البرهان لعلوم القرآن

علمی . استدلالی . اخلاقی . تفسیری

مؤلفہ

الشیخ موسیٰ ابن جعفر السودانی

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

al-Sūdānī, Mūsá Ja'far

al-Burhān li-'ulūm al-Qur'ān

البرهان
لعلوم القرآن

علمي ، استدلالي ، اخلاقي ، تفسيري

لمؤلفه

الشيخ موسى الشيخ جعفر السوداني

الجزء الاول

مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف

١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد النبيين وخاتم المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه المرضيين .

عندما طلب مني المؤمنون سابقا اخراج مؤلف على سنخ ما التزمت به لهم من المحاضرات بعد اداء فريضة الصلاة بما تتضمن من تفسير ، وعقائد ، وأخلاق ، وأحكام . مدعومة بمدارك فلسفية بمنتهى التبسيط وايضاحات بالمقارنات . لغرض ان يكون المؤلف محفوظا لديهم وماثلاً أمامهم ، وكنت اتردد في اجابتهم لما أرى من كثرة ما ألف في ذلك العلماء ، وما كتب فيه الفضلاء جزاهم الله خير الجزاء .

ولتكرر الطلب وشدة الالحاح وإلزامى بحجج شرعية وعقلية فقد أجبتهم بوقته مستعيناً بالله تعالى مستمداً الطافه ، طالبا وجهه في توجيه عباده وإلفات الانسان الى ضرورة تقديم زاده ليوم معاده .

أجبتهم باخراج كتابنا ـ الآيات الساطعة ـ بأجزائه الثلاثة وقد لاقى من إعجاب الكل ورغبة الجميع مالم اكن أتوقعه ، ولعله لما التزمت به فيه من توفير المعاني وتقليل الالفاظ وتجنب التكرار ، وإرتباط المواضيع . اضافة الى التبسيط في التعبير بالمألوف ورفض التمحل بجسامة الألفاظ وضخامة الصور .

وعند ما نفذ الكتاب وتكثر طلبه من داخل وخارج ورغب الكثير في اعادة طبعه حيث لم يكن بوسعي ذلك ، لما تعوده الزمان بجوره ، وجرت عليه حكمة الباري في ابتلاء عباده ، فقد قام باعادة طبعه بعض المؤمنين على نفقتهم . وقـــد أنجز الجزء الأول منه وتسابق الى اشترائه المنتظرون .

ثم عاودني المؤمنون بطلب وإلحــاح باكثر من السابق لاخراج مؤلف آخر .

عندما كان ذلك كله فلم أجد بدأ من الاجابة رغم عدم الفراغ وتسلسل المشغوليـــة . لقيام الدليل الحسي علي بلزوم الاجابة ، من مشاهدتي الرغبة للمؤلف السابق ونفاده واعادة طبعه .

وحيث ان القرآن الكريم هو منبع العلوم ، ومصدر التوجيه ، رجحت أن يكون مؤلفنا هذا مما يرتبط بالقرآن ، لا كتفسير لغناء ماجاء من كثرة كتب التفاسير ، ولخروج المؤلف بذلك عن الهدف المقصود من الاختصار لجعله ماثلا أمام القارىء في اكثر زمانه ، مصحوباً معه في غالب احواله .

بل عزمت بحول الله تعالى على تضمينه ما يكشف عن بعض أسرار القرآن ، ويوضح كفالته لأسس مكتشفات أهل الزمان ، والبرهنة بالحس على ارتباط متفرق فروعها بمنظم اصوله ، واتصال ملون أساليبها ، ومعدد وسائلها بجذور بيانه . بذكري لنماذج من بعض آياته وشواهد على سبقه في ذلك ، والتنبيه على نبذ من مهام مواضيعه ، موشحاً بشيء من الأدب والنكات ، وقدر من الحكم والعضات بما يناسب كل مقام ، وعلى الله التوكل وبه الاعتصام ، وقد أسميته : البرهان لعلوم القرآن .

قرين القرآن في وصف القرآن

أما وصف أمير المؤمنين عليه السلام لكلام رب العالمين ، وتجسيده للقرآن المبين ، وبيان ما يحتويه من علوم التكوين فهو الحد الفصل في ذلك .

فمن خطبة له عليه السلام في مدح القرآن (١) : (واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضل ، والمحدث الذي لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحد الا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدى ، أو نقصان من عمى ، واعلموا انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا أحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفوه من أدوائكم ، وأستعينوا به على لأوائكم (٢) فان فيه شفاء من أكبر الداء : وهو الكفر والنفاق ، والغي والضلال . فأسلوا الله به ، وتوجهوا أليه بحبه ، ولا تسألوا به خلقه انه ماتوجه العباد الى الله تعالى بمثله .

واعلموا انه شافع مشفع ، وقائل مصدق ، وانه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه ، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه (٣) فانه ينادي مناد يوم القيامة : الا ان كل حارث مبتلى في حرثه ، وعاقبة

---

(١) في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ج١٠ ص١٨ ط ايران .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) يقال محل به الى السلطان : قال عنه مايضره . فكأنه (ع) جعل القرآن بمحل يوم القيامة عند الله بقوم : اي يقول عنهم شراً فيصدق عليهم ، ويشفع عند الله لقوم ، اي يثني عليهم خيراً فيشفع فيهم

عمله ، غير حرثة القرآن (١) فكونوا من حرثته واتباعه ، واستدلوه على ربكم ، واستنصحوه على انفسكم ، واتهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم (٢) .

ومما قال عليه السلام (٣) في وصف القرآن : [ألا أن فيه علم مايأتي ، والحديث عن الماضي ، ودواء دائكم ، ونظم ما بينكم] .

ولا يخفى ما في تعبيره عليه السلام عن الماضي بالحديث وعما يأتي بالعلم : من ارتباطه بالمكتشفات العلمية .

ومما قال عليه السلام (٤) في وصف القرآن : [ثم انزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لايدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوءه ، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم اركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره ، . . وبحر لا ينتزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، . . جعله الله ريا لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء . .] .

ولعل التعبير أولا بالعلماء وثانياً بالفقهاء إلماح منه عليه السلام إلى تنوع علومه ، وانها ليست فقهية واحكاماً شرعية فقط .

---

(١) المراد من الحارث : المكتسب ، وحرثة القرآن هم المتاجرون الله تعالى .

(٢) اي اذا اشار عليكم بامر واشارت عليكم انفسكم بما يخالفه فاقبلوا مشورته لأنه الناصح ، دون مشورة انفسكم فانها الامارة بالسوء .

(٣) في شرح نهج البلاغة ـ محمد عبده ـ ج٢ ط الاستقامة ص٦٩

(٤) نفس المصدر ص٢٠٢ .

وقال عليه السلام (١) من خطبة له فيما يخص القرآن : [وفيه ربيع القلب ، وينابيع العلم] .

ومما روي عنه عليه السلام (٢) بسنده عن الحارث بن الاعور عن امير المؤمنين علي عليه السلام قال في حديث طويل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : [انها ستكون فتن] . قلت فما المخرج منها يارسول الله قال : [كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ مابعدكم ، وحكم مابينكم هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي لا يزيغ به الاهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة رد ، ولا تنقضي عجائبه] .

فعدم شبع العلماء منه ، وعدم انقضاء عجائبه لعطائه الشيء الحادث وانطباقه على ما أسموه بالمخترعات ، فهو يأتينا في كل يوم بجديد .

من اقوال علماء التفسير

قال الشيخ الطوسي (٣) : أما بعد فان الذي حملني على الشروع فى عمل هذا الكتاب : اني لم اجد احداً من أصحابنا ـ قديماً وحديثاً ـ من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن ويشتمل على فنون معانيه . . (٤) وسمعت جماعة من أصحابنا ـ قديماً وحديثاً ـ يرغبون

(١) في شرح نهج البلاغة محمد عبده ص ١١٥ .

(٢) مجمع البيان ج١ ص١٦ ط ايران .

(٣) المتوفى سنة ٤٦٠ هـ في تفسيره ـ التبيان ـ المجلد الأول في مقدمته ص ١ ط المطبعة العلمية في النجف .

(٤) يعني ان كل مفسر منهم صرف همه فيما يختص هو به ، كالنحوي في الاعراب والتصريف . واللغوي في اللغة واشتقاق الالفاظ . والمتكلم في المسائل الكلامية . و . . .

في كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن : من القراءة ، والمعاني ، والاعراب ، والكلام على المتشابه ، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه وأنواع المبطلين : كالمجبرة ، والمشبهة ، والمجسمة ، وغيرهم و . . وأنا انشاء الله تعالى اشرع في ذلك على وجه الايجاز والاختصار لكل فن من فنونه ، ولا اطيل فيملـّه الناظر فيه ، ولا اختصر اختصاراً يقصر فهمه عن معانيه .

وقال (١) : والمقصود من هذا الكتاب علم معانيه (٢) وفنون اغراضه ، واما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به . ثم اخذ في ابطال القول بالزيادة فيه والنقصان منه : بان الروايات متناصرة بالحث على التمسك بما فيه ، ورد المختلف من الاخبار اليه ، واهمها ما اجتمعت الامة على تصحيحه من ان النبى صلى الله عليه وآله قال : [اني مخلف فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي اهل بيتي . وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض (٣) .

(١) في التبيان ص ٥ ـ ٩ ملخصا .

(٢) أي معاني القرآن .

(٣) في لآلي الرحمن ص ٣٨ مطبعة النجاح ـ القاهرة ـ : رواة هذا الحديث ٢٦ صحابياً وعدد أسماءهم . ولما طلب امير المؤمنين (ع) في رحبة الكوفة شهادة من سمع حديث الثقلين من رسول الله (ص) اضيف الى هؤلاء سبعة من قريش فكانوا ٣٣ ورواة ابو نعيم الاصبهاني في كتاب منقبة المطهرين مسنداً عن جبير بن مطعم . وانس بن مالك والبراء بن عازب . ورواه موفق بن احمد اخطب خوارزم عن عمرو بن العاص . وقلما يخلو عن رواية هذا الحديث مسند او جامع او كتاب في الفضائل لأهل السنة . وربما رواه الواحد عن أكثر من عشرين =

وهذا يدل على ان القرآن موجود في كل عصر لانه لا يجوز ان يأمر بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به . وكذلك يدل على عدم خلو عصر من اهل بيته بنفس الدليل . كما وانه رد بعد ذلك على من منع التفسير بالرأي تمسكاً باخبار ظاهرها النهي عن ذلك : بانه لا يجوز ان يكون في كلام الله تعالى وكلام النبي صلى الله عليه وآله تناقض وتضاد وقد قال الله تعالى . [انا جعلناه قرآنا عربيا] (١) (وقال تعالى : [بلسان عربي مبين] (٢) وفيه تبيان كل شيء .. . وانه كيف يصفه بانه عربي مبين ، وانه بيان للناس ، ولا يفهم بظاهره شيء ، وهل ذلك الا وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به الا بعد تفسيره وبيانه ، وذلك منزه عن القرآن ، وقد مدح الله اقواما على استخراج معاني القرآن فقال : [لعلمه الذين يستنبطونه منهم] (٣) وقال في قوم يذمهم حيث لم يتدبروا القرآن : [أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها] (٤) وقال النبي صلى الله عليه وآله : [اذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فاقبلوه ، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط] . وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام . وكيف يمكن

= صحابياً اما مجملا كما في الصواعق . واما مفصلاً كما في كتب السنحاوي والسيوطي ، والسمهودي ، وغيرهم . ومن اراد الاطـلاع فليرجع الى الجزأين المكتوبين في اسانيد هـذا الحديث من كتاب العبقات للسيد ـ مير حامد حسين الهندي ـ طبع بالهند .

(١) الزخرف : ٤٣

(٢) الشعراء : ١٩٥

(٣) النساء : ٨٢

(٤) سورة محمد : ٢٤

العرض على كتاب الله وهو لا يفهم به شيء .

وكل ذلك يدل على ان ظاهر هذه الأخبار متروك (١) .

ثم قال : ان معاني القرآن على اربعة أقسام : احدها ما اختص الله بالعلم به فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه ولا تعاطي معرفته ، وذلك مثل قوله تعالى : [يسألونك عن الساعة ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو] (٢) ومثل قوله تعالى : [ان الله عنده علم الساعة . .] (٣) فتعاطي ما اختص الله تعالى به خطأ .

ثانيها ـ ما كان ظاهره مطابقاً لمعناه ، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها عرف معناها . مثل قوله تعالى : [ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق] (٤) ومثل قوله تعالى : [قل هو الله احد] (٥) وغير ذلك .

ثالثها ـ ما هو مجمل لا ينبيء ظاهره عن المراد به مفصلا . مثل قوله تعالى : [اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة] (٦) ومثل قوله تعالى : [ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً] (٧) ومثل قوله تعالى :

---

(١) أي اخبار المنع عن التفسير وان المقصود بعض معاني التفسير وهو ثالث الأقسام الآتية .

(٢) الاعراف : ١٨٦

(٣) لقمان : ٣٤

(٤) الانعام : ١٥١

(٥) التوحيد : ١

(٦) البقرة : ٤٣ و ٨٣ والنساء ٧٦ والحج : ٧٨ والنور : ٥٦ والمجادلة : ١٣ والمزمل : ٢

(٧) آل عمران : ٩١

[وآتوا حقه يوم حصاده] (١) ومثل قوله تعالى : [وفي أموالهم حق معلوم] (٢) وغير ذلك . فان تفصيل اعداد الصلاة وعدد ركعاتها ، وتفصيل مناسك الحج وشروطه ، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن استخراجه الا ببيان من النبي صلى الله عليه وآله ووحي من جهة الله تعالى . فتكلف القول في ذلك خطأ ممنوع منه . يمكن ان تكون الاخبار متناولة له ـ أي الاخبار الناهية عن التفسير ـ .

رابعها ـ ما كان اللفظ مشتركا بين معنيين فما زاد عنهما ويمكن ان يكون كل واحد منهما مراداً . فانه لا ينبغي ان يقدم احد به فيقول : ان مراد الله فيه بعض ما يحتمل . الا ان يقول نبي او امام معصوم . بل ينبغي ان يقول : ان الظاهر يحتمل لامور ، وكل واحد يجوز ان يكون مراداً على التفصيل والله اعلم بما اراد . ومتى كان اللفظ مشتركا بين شيئين او ما زاد عليهما ودل الدليل على انه لا يجوز ان يريد الا وجهاً واحداً جاز ان يقال : انه هو المراد .

ومتى قسمنا هذه الأقسام نكون قد قبلنا الاخبار (٣) ولم نردها على وجه (٤) يستوحش نقلتها والمتمسكين بها ولا منعنا بذلك من الكلام في تأويل الآي جملة .

فاما ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : [ما نزل من آية الا ولها ظهر وبطن] . وقد رواها ايضاً اصحابنا عن الأئمة

---

(١) الانعام : ١٤١

(٢) المعارج : ٢٣

(٣) أي اخبار النهي عن التفسير بالرأي .

(٤) أي رداً كليا بحيث لا مصداق لها ، وهذه قاعدة علاج الاخبار عند التعارض المقررة في علم الأصول .

عليهم السلام فانه يحتمل ذلك وجوها : احدها ، ماروي في اخبارنا عن الصادقين عليهما السلام (١) ، وحكي عن أبي عبيدة : ان المراد بذلك : القصص باخبار هلاك الاولين ، وباطنها : عظة الآخرين .

والثاني - ما حكي عن ابن مسعود انه قال : مامن آية الا وقد عمل بها قوم ولها قوم يعملون بها .

والثالث - معناها : ان ظاهرها لفظها ، وباطنها تأويلها . ذكره الطبري ، واختاره البلخي .

والرابع - ما قاله الحسن البصري : أنك اذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها .

وجميع اقسام القرآن لا يخلو من ستة : محكم . ومتشابه . وناسخ ومنسوخ . وخاص . وعام .

* * *

وقال الطبرسي (٢) ثم ان اشرف العلوم واسناها ، وابهرها وابهاها واجلها وافضلها ، وانفعها واكملها ، علم القرآن . فانه لجميع العلوم الاصل ، منه تتفرع أفانينها ، والعماد عليه تبتني قوانينها .

وقال : قال امير المؤمنين عليه السلام : [القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه .

وقد روى عن ابن مسعود انه قال : اذا أردتم العلم فاثيروا القرآن فان فيه علم الاولين والآخرين . وعن سعيد عن قتادة في قوله عزوجل : [ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرآ كثيرا] (٣) قال : هو القرآن ،

---

(١) أي الباقر والصادق عليهما السلام

(٢) في تفسيره مجمع البيان ج ١ ص ٩ ط ايران .

(٣) البقرة : ٢٧٢

وقال (١) وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : [القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه] .

وروي عن عبد الله بن عباس : انه قسم وجوه التفسير على أربعة اقسام - تفسير لا يعذر احد بجهالته - ، وتفسير تعرفه العرب بكلامها وتفسير يعلمه العلماء . وتفسير لا يعلمه الا الله عز وجل .

فاما الذي لا يعذر احد بجهالته فهو ما يلزم الكافه (٢) من الشرائع التي في القرآن وجمل دلائل التوحيد .

واما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضع كلامهم واما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الاحكام . واما الذي لا يعلمه الا الله فهو يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة .

ثم قال صاحب مجمع البيان : واقول ان الاعراب أجل علوم القرآن فان اليه يفتقر كل بيان ، وهو الذي يفتح من الألفاظ الاغلاق ، إذ الاغراض كامنة فيها فيكون هو المثير لها ، والباحث عنها ، وهو معيار الكلام . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : [اعربوا القرآن ، والتمسوا غرائبه] . وعن النبي (ص) ايضاً (٣) انه قال : [القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده] .

وليس بخفى انه (ص) يريد بذلك ان القرآن كفيل لاستخراج كل شيء منه ، وانه المصدر لكل العلوم مهما كشفت عن حجاب ، فان ما كشفته كامن فيه ، يتطلب من يثيره ، قال تعالى : [ونزلنا عليك

---

(١) الطبرسي في مجمع البيان ج ١ ص ١٣ الفن الثالث

(٢) أي يلزم عامة الناس ، ومن في قوله : من الشرايع بيانية لما يلزم .

(٣) مجمع البيان : ج ١ ص ١٥ .

الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (١) .

وقال الطبرسي قال النبي (ص) : [لا ينبغي لحامل القرآن ان يرى ان احداً من اهل الأرض اغنى منه ملك الدنيا برحبها] - أي ولو كان ذلك الاحد قد ملك الدنيا بحذافيرها ، فحامل القرآن اغنى منه وذلك لان من ملك الدنيا برحبها لم يملك اسرار ما ملكه ، وانما ملك المادة المحدودة ، وحامل القرآن - أي المتفهم لعلومه والمدرك لبطونه قد ملك المادة ومنابعها ، بتعرفه على اسرار القرآن المتضمنة لعناصر الموجودات في عالم التكوين بأسرها ، سواء كانت الأرضية منها ، او الافلاك السماوية ، والكواكب العلوية ، او مابينهما من الارتباطات والتأثيرات والانفعالات .

وذكر عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : [ان هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته مااستطعتم ، ان هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد . . الحديث .

ولعل قوله (ص) : لا يخلق . هو انطباقه على المكتشفات الجديدة يوماً فيوماً وكفالة الفاظه لمعانيها ، فهو بذلك طري جديد .

---

(١) النحل : ٩١

العلوم تتكيء على القرآن

لا ان القرآن يتكىء عليها

قال الطباطبائي (١) : القرآن هو الذي يعرف نفسه بانه هدى للعالمين ، ونور مبين ، وتبيان كل شيء . فكيف يكون مهدياً اليه بغيره ومستنيراً بغيره ومبيناً بغيره فما هذا الغير ، وما شأنه ، وبماذا يهدى اليه وما هو المرجع اذا اختلف فيه ، وقد اختلف واشتد الخلاف (٢) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله (٣) : [فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن . وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل ، وهو الفصل ليس بالهزل ، وله ظهر وبطن ، فظاهره حكمة وباطنه علم ، ظاهره انيق ، وباطنه عميق ، له نجوم وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه . . الحديث .

وقال (٤) بتلخيص وتصرف منا : وليس بين آيات القرآن - وهي بضع آلاف آية - آية واحدة ذات إغلاق وتعقيد في مفهومها بحيث يتحير الذهن في فهم معناها . كيف والقرآن أفصح الكلام ومن شروط الفصاحة خلو الكلام عن الاغلاق والتعقيد ، حتى ان الآيات المعدودة

---

(١) في مقدمة تفسيره - الميزان - ج ١ ص ١ و ٧ مطبعة الحيدري بطهران .

(٢) نفس المصدر ص ٧

(٣) نفس المصدر ص ١٠

(٤) السيد محمد حسين صاحب الميزان ص ٧ و ١١

من متشابه القرآن هي في غاية الوضوح من جهة المفهوم ، وانما التشابه في المراد منها ، وانما الاختلاف كل الاختلاف في المصداق الذي ينطبق المفاهيم اللفظية عليه من مفردها ومركبها ، وفي المدلول التصوري والتصديقي .

توضيحة

ان الأنس والعادة - كما قيل - يوجبان لنا ان يسبق الى أذهاننا عند استماع الألفاظ معانيها المادية ، او ما يتعلق بالمادة ، فان المادة هي التي تنقلب فيها أبداننا وقوانا المتعلقة بها ما دمنا في الحياة الدنيوية فاذا سمعنا الفاظ الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والرضا ، والغضب ، والخلق ، والامر ، كان السابق الى اذهاننا منها : الوجودات المادية لمفاهيمها .

وكذا اذا سمعنا الفاظ السماء ، والارض ، واللوح ، والقلم ، والعرش ، والكرسي ، والملك وأجنحته ، والشيطان وقبيله وخيله ورجله كان المتبادر الى افهامنا مصاديقها الطبيعية و . . .

ولكن كان علينا ان نتنبه بان المسميات المادية محكومة بالتغير والتبدل بحسب تبدل الحوائج في طريق التحول والتكامل . كما ان السراج اول ما عمله الانسان كان إناء فيه فتيلة وشيء من الدهن تشتعل به الفتيلة للاستضائة به في الظلمة ، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم الى السراج الكهربائي ولم يبق من اجزاء السراج المعمول اولاً الموضوع بازائه لفظ السراج شيء ، ولا واحد .

وكذا الميزان المعمول اولا ، والميزان المعمول اليوم ، لتوزين ثقل

الحرارة مثلا ، والسلاح المتخذ اولا والسلاح المعمول اليوم ، الى غير ذلك .

فالمسميات بلغت في التغير الى حيث فقدت جميع اجزائها السابقة ذاتاً وصفة ، والاسم مع ذلك باق . وليس الا لأن المراد في التسمية انما هو من الشيء غايته ، لا شكله وصورته ، فما دام غرض التوزين او الاستضاءة ، او الدفاع باقياً كان اسم الميزان والسراج والسلاح وغيرها باقيا على حاله .

فكان ينبغي لنا ان نتنبه بان المدار في صدق الاسم اشتمال المصداق على الغاية والغرض لا جمود اللفظ على صورة واحدة . وفي الحقيقة ان ذلك ليس جموداً على اللفظ . بل جمود على الانس والعادة في تشخيص المصاديق بالخواص التي في الآيات كما قال تعالى : [ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء . .] (١) وحاشا ان يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه ... الى ان قال : وقد تحصل من هذه البيانات الموضوعة على هذه الطريقة من البحث استفراغ الكلام فيما نذكره .

١ ـ المعارف المتعلقة باسماء الله سبحانه وصفاته من الحياة ، والعلم ، والقدرة : والسمع ، والبصر ، والوحدة ، وغيرها .

٢ ـ المعارف المتعلقة بافعاله . . .

٣ ـ المعارف المتعلقة بالوسائط الواقعة بينه وبين الانسان كالحجب واللوح ، والقلم ، والعرش ، والكرسي ، والبيت المعمور ، والسماء والارض ، والملائكة ، والشياطين ، والجن ، وغير ذلك .

٤ ـ المعارف المتعلقة بالانسان قبل الدنيا .

٥ ـ المعارف المتعلقة بالانسان في الدنيا . كمعرفة تاريخ نوعه ومعرفة نفسه ، ومعرفة اصول اجتماعه ، ومعرفة النبوة والرسالة والوحي . . .

---

(١) النحل : ٩١

٦ ـ المعارف المتعلقة بالانسان بعد الدنيا وهو البرزخ والمعاد .

٧ ـ المعارف المتعلقة بالاخلاق الانسانية .

* * *

قال محي الدين (١) : ان علم التفسير من اجل العلوم الشرعية موضوعاً ، وافضل المعارف الدينية اصولا وفروعا ، لانه الكشاف عن انوار التنزيل الحجاب ، ومن شأنه الاسعاف ـ بمجمع البيان ـ ـ والتبيان ـ لاولي الألباب ، وفي ضمنه كشف عن حقائق علوم جمة ، وفي طيه نشر لدقائق فنون مهمة .

* * *

العقيدة بالله تعالى

هي القاعدة الضخمة لكل ما عداها

قال السيد قطب (٢) بتلخيص منا : العقيدة بالله والرجوع اليه في كل الأمور ، هو الامر الاساسي لراحة الانسان ولكماله ولسعادته وانتظام اموره .

فعقيدة المؤمن هي وطنه ، وهي قومه ، وهي اهله ، ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، وهي نقطة التقائه كله ، وهي مجمع ثمرات اعماله

(١) في تفسيره ـ الوجيز ـ ج ١ ص ٢ مطبعة الزهراء .

(٢) في تفسيره ـ ظلال القرآن ـ ج ١ ص ٤ و ١٠ ط بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة .

كلها ، وهي جهاز تصفيتها لقبول سليمها ، ونبذ سقيمها .

والمؤمن ذو نسب عريق ضارب في شعاب الزمان . انه واحد من ذلك الموكب الكريم الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم : نوح (ع) وابراهيم (ع) . واسماعيل (ع) . واسحاق (ع) . ويعقوب (ع) . ويوسف (ع) . وموسى (ع) . وعيسى (ع) . ومحمد صلى الله عليه وآله [وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون] (١) .

وان الرجوع والاحتكام الى الله ليس نافلة وتطوع واختيار . وانما هو الرجوع الطبيعي ، لان البشرية هي من صنع الله ، ولا تعالج امراضها وعللها الا بالدواء الذي يخرج من يده سبحانه .

وقد جعل تعالى في منهجه مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء : [وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين] (٢) [ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم] (٣) ولكن هذه البشرية لا تريد ان ترد القفل الى صانعه ، ولا ان تذهب بالمريض الى مبدعه ، ولا تسلك في امر نفسها وفي أمر انسانيتها ، وفي أمر سعادتها او شقوتها . . ما تعودت ان تسلكه في امر الاجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة في الرجوع لاصلاحها عند ما تنغلق عليهم فوائدها الى مهندس المصنع الذي صنع الجهاز . ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الانسان نفسه فترده الى المصنع الذي خرج منه ، ولا ان تستفتي المبدع الذي انشأ هذا الجهاز العجيب ، الجهاز الانساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذي لا يعلم مساربه ، ومداخله الا الذي أبدعه وانشأه . [انه عليم بذات

---

(١) الأنبياء : ٩٢

(٢) الاسراء : ٨٤

(٣) الاسراء : ٩١

الصدور ، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] (١) .

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة المسكينة . البشرية التي لن تجد الرشد والراحة والسعادة الا حين ترد الفطرة البشرية الى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الصغير الى صانعه الصغير .

ولقد كانت تنحية الاسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا في تاريخها ونكبة قاصمة في حياتها ، نكبة لم تعرف البشرية لها نظيراً في كل ماألم بها من نكبات . .

لقد كان الاسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض ، وذاقت البشرية الويلات ، من القيادة المتعفنة : [ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس] (٢) تسلم الاسلام القيادة بهذا القرآن فكان ذلك مولداً جديداً للانسان .

لقد انشأ هذا القرآن - بعلومه - للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود ، والحياة ، والقيم ، والنظم .

كما حقق لها واقعا اجتماعياً فريدا لم تكن تحلم به قبل ان ينشئه لها هذا القرآن الذي فيه تبيان كل شيء . .

وقال ايضاً (٣) : ان في القرآن كنوزا ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه . والايمان هو مفتاح هذه الكنوز . ولن تنفتح كنوز القرآن الا بمفتاح الايمان . والذين آمنوا حق الايمان حققوا الخوارق بهذا القرآن . فاما حين اصبح القرآن كتاباً يترنم المترفون بآياته فتصل الى الآذان ، ولا تتعداها الى القلوب فانه

(١) الملك : ١٥

(٢) الروم : ٤٠

(٣) في ظلال القرآن المجلد ٦ ج ١٩ ص ١٢٦

لم يصنع شيئاً ولم ينتفع به أحد . . لقد ظل كنزاً بلا مفتاح .

* * *

ذلك مما يؤيد اختيارنا - الايمان - مدخلاً لكتابنا هذا - البرهان - .

وقال (١) في البيـان : رأيت صغارة الانسان في تفسيره وتفكيره امام عظمة الله في قرآنه رأيت نقص المخلوق في تناهيه ، وخضوعه امام كمال الخالق في وجوبه وكبريائه .

رأيت القرآن يترفع ويرتفع . ورأيت هذه الكتب تصغر وتتصاغر .. رأيت الانسان يجهد نفسه ليكتشف ناحيـــة خاصة او ناحيتين فيحرر ما اكتشفه في كتاب ثم يسمي ذلك الكتاب تفسيرا يجلو غوامض القرآن ويكشف أسراره . وكيف يصح في العقول ان يحيط الناقص بالكامل ...

وبعد ان تعرض بنقده للمفسرين حيث يتجهوا الى ناحية او ناحيتين من نواحي القرآن ولم تشمل تفاسيرهم كل نواحيه ، قال : على المفسر ان يجري مع الآية حيث تجري ، ويكشف معناها حيث تشير ، ويوضح دلالتها حيث تدل .

عليه ان يكون حكيماً حين تشتمل الآية على الحكمة ، وخلقياً حين ترشد الآية الى الأخلاق ، وفقيهاً حين تتعرض للفقه . واجتماعيا حين تبحث في الاجتماع ، وشيئاً آخر حين تنظر في اشياء أخر .

على المفسر أن يوضح الفن الذي يظهر في الآية ، والأدب الذي يتجلى بلفظها ، عليه ان يحرر دائرة لمعارف القرآن اذا اراد ان يكون مفسراً ، والحق اني لم أجد من تكفل بجميع ذلك من المفسرين . .

(١) آية الله السيد ابو القاسم الخوئي في مقدمة تفسيره - البيان - ج ١ ص ٣ - ١٥ المطبعة العلمية في النجف .

ماذا يقول الواصف في عظمة القرآن . . وكيف يستطيع الممكن ان يدرك مدى كلام الواجب . . وهل يصف المحدود إلا محدوداً ، وقد ورد في الاثر عن النبي صلى الله عليه وآله : [فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه] (١) . وحسب القرآن عظمة ، وكفاه منزلة وفخرا انه كلام الله العظيم ، ومعجزة نبيه الكريم . .

وقال : قال امير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن : [ثم انزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجا لا يخبو توقده . .] (٢) . ويريد عليه السلام بجمل هذه الخطبة : ان القرآن لا تنتهي معانيه ، وانه غض جديد الى يوم القيامة فقد تنزل الآية في مورد ، او في شخص او في قوم ، ولكنها لا تختص بذلك المورد او ذلك الشخص أو اولئك القوم فهي عامة المعنى .

روى العياشي (٣) باسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : [ولكل قوم هاد] (٤) انه قال : علي الهادي . ومنا الهادي . فقلت : فانت جعلت فداك الهادي . قال : صدقت ان القرآن حي لا يموت ، والآية حية لا تموت فلو كانت الآية اذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين . وعن أبي عبد الله عليه السلام ان القرآن حي لم يمت ، وانه

---

(١) البحار للمجلسي ج ١٩ ص ٦ صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ١١ ص ٤٧ ابواب فضائل القرآن .

(٢) نهج البلاغة من خطبة اولها : يعلم عجيج الوحوش .

(٣) في مرآت الانوار ص ٣ ـ ٤

(٤) الرعد : ٨

يجري كما يجري الليل والنهار ، وكما تجري الشمس والقمر ، ويجري على آخرنا كما يجري على اولنا (١) .

القرآن وعلم الاجتماع والاخلاق

قال آية الله الخوئي (٢) : يبدو لكل متتبع للتاريخ ما كانت عليه الأمم قبل الاسلام من الجهل ، وما وصلت اليه من الانحطاط في معارفهم واخلاقهم فكانت الهمجية سائدة عليهم ، والغارات متواصلة فيما بينهم والقلوب متجهة الى النهب وإصلاء نيران الحرب . وكان للعرب القسم الوافر من خرافات العقيدة ووحشية السلوك فلا دين يجمعهم ، ولا نظام يربطهم . . وحين نزول القرآن تنوروا بالمعارف ، فاستبدلوا التوحيد بالوثنيه ، والعلم بالجهل ، والاخاء والتآلف بالشقاق والتخالف ، فأصبحوا أمة وثيقة العرى ، مدت جناح ملكها على العالم ، ورفعت اعلام الحضارة في اقطار الأرض وارجائها .

قال الدوري (٣) : وبعد ظهور الذي - النبي (ص) - جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصدا واحداً ظهرت للعيان أمة كبيرة ، مدت جناح ملكها من نهر تاج أسبانيا الى نهر الجانج في الهند ، ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن في اقطار الارض ايام كانت اوربا مظلمة بجهالات اهلها في القرون المتوسطة .

ثم قال : انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين

---

(١) مرات الأنوار ص ٣ - ٤ .

(٢) في مقدمة تفسيره - البيان - ص ٣ - ٥٠ ملخصاً بتصرف .

(٣) هو احد وزراء فرنسا

سائر الامم ، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التى امتدت على اوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين (١) .

نعم ان جميع ذلك كان بفضل تعاليم القرآن ، فان في انظمته تمشياً مع البراهين وحكم العقل السليم .

القرآن والعدل

فقد أمر القرآن بالعدل ، اذ به يتكون النظام الصحيح ، وبه تحفظ حقوق الفرد والمجتمع دون تكلف ، فان من تحلى بصفة العدل يهوى بما انطبع عليه ايصال الحقوق لذويها ، ويبغض ما يضاد طبيعته .

قال تعالى : [وأمرت لأعدل بينكم] (٢) وقال تعالى : [إعدلوا هو اقرب للتقوى] (٣) وقال تعالى : [واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى] (٤) وقال تعالى : [واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل] (٥) وقال تعالى : [ان الله يأمر بالعدل] (٦) .

---

(١) صفوة العرفان لمحمد فريد وجدي ص ١١٩ .

(٢) الشورى : ١٤

(٣) المائدة : ١١

(٤) الانعام : ١٥٣

(٥) النساء : ٦١

(٦) النحل : ٩٢

امر القرآن بالشورى

قال تعالى : [وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله] (١) والتي هي من الاسس للنظام ولو تمت بشروطها لكان لها الأثر الفعال في نظم المجتمع والمحافظة على حقوقه .

القرآن واسرار الاكوان

ومن علوم القرآن تعرضه لما هو الاصل للمكتشفات الحديثة مهما تنوعت فقد اخبر في غير واحدة من آياته عما يتعلق بسنن الكون ونواميس الطبيعة ، والافلاك وغيرها مما لا سبيل الى العلم به في بدء الاسلام إلا من ناحية الوحي الإلهي . وان فريقاً منها لم يتضح مغزاها الا بعد توفر العلوم وكثرة الاكتشافات .

وقد اخذ القرآن بالحزم ومناسبات المقام في اخباره عن هذه الامور فصرح ببعضها حيث يحسن التصريح واشار الى بعضها حيث تحمد الاشارة . لان البعض منها مما يستعصي على عقول اهل ذلك العصر فكان من الرشد ان يشير اليها اشارة تتضح لاهل العصور المقبلة حين يتقدم العلم وتتوفر الاكتشافات .

كمثل حاجة النبات الى اللقاح وان سنة الزواج لا تختص بالحيوان وان النبات مركب من اجزاء وانها على وزن مخصوص بحيث لو زيد في في بعض اجزائه او نقص لاختل المركب وذهبت خاصيته ، وكان مركبا

(١) آل عمران ١٥٤

اخر . ومثل الاشارة الى حركة الارض . وكرويتها . وغير ذلك كما سنأتي على تفاصيلها ان شاء الله تعالى .

القرآن والقصص

من المواضيع التي تعرض لها القرآن بكثرة - القصص - ولكن القصة القرآنية تختلف عن القصص الاخرى بهدفها وغايتها ، مع المحافظة على اسلوب القصة بمعناها العام .

فنجد القصة القرآنية قد خضعت في موضوعها وفي طريقة عرضها وادارة حوادثها لمقتضى الاغراض الدينية . . ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني ، ووفائها بهذا الغرض حد الوفاء لم يمنع من بروز القصة بخصائصها الفنية ، وروعتها الجاذبية في عرضها .

ان اهم الأهداف الذي سيقت لها القصة القرآنية اثبات الوحي والرسالة ، ذلك ان النبي صلى الله عليه وآله كان أمياً لم يعرف عنه الاختلاف الى احبار اليهود والنصارى ، ولم يغادر وطنه مدة يمكنه فيها الانقطاع الى - عالم - هناك يأخذ عنه علم الاخبار ، ولم يعرف له طلب شيء من العلوم . ثم جاءت هذه القصص في القرآن تشرح في دقة وتفصيل وثقة احوال الأنبياء والأمم السالفة ، وبشكل لا يمكن صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله ذاته وباستقلاله مع ملاحظة ظروفه الثقافية والاجتماعية .

كل ذلك يكشف عن حقيقة ثابتة : وهي تلقيه (ص) هذه الانباء من مصدر غيبي مطلع على الأسرار ، وما خفي من بواطن الأمور

وهذا المصدر هو الله تعالى (١) : [ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون] (٢) .

ولقد تعرض القرآن الكريم لاكثر الجوانب الفكرية والثقافية المرتبطة بالحياة والكون ، سواء مايتعلق منها بالعقيدة ، او بالتشريع او بالاخلاق ، او المجتمع ، او التاريخ ، او غير ذلك من الجوانب الأخرى .

النقاط الرئيسية

الألوهية - افعال الإله - عالم الغيب - الانسان قبل الدنيا - الانسان بعد هذه الدنيا - الأخلاق الانسانية - التشريع الاسلامي (٣)

وقال في آلآء الرحمن (٤) بعدما ذكر اعجاز القرآن بالوجه الذي تقوم به الحجة على العرب ، قال : وان للقرآن المجيد أيضاً وجوهاً من الاعجاز مما يشترك في معرفتها كل بشر ذي رشد اذا اطلع عليها . وهي عديدة - اعجاز القرآن من وجهة التاريخ - لا نقول بذلك بمحض اخباره عن الحوادث الماضية والامم الخالية . .

بل نقول : ان القرآن اشترك في تاريخه في بعض القصص مع التوراة الرائجة التي اتفق اليهود والنصارى على أنها كتاب الله المنزل

---

(١) يراجع للازدياد من الموضوع : رسالة الاسلام العدد ٩ - ١٠ ص ١٩

(٢) آل عمران : ٤٠

(٣) رسالة الاسلام العدد ٩ - ١٠ ص ١٧٧

(٤) العلامة البلاغي مقدمة تفسير ص ٧ ط ٢ مطبعة النجاح - القاهرة - .

على رسوله موسى (ع) فأوردت هذه التوراة تلك القصص وهي مملوءة من الخرافات او الكفر . .

فمن ذلك قصة آدم في نهي الله له عن الاكل من الشجرة ومافيها من الخرافات والكفر بنسبة الكذب والخداع الى الله جل وعلا ، وسائر شؤون القصة على ماجاء في الفصل الثالث من سفر التكوين .

ومن ذلك ماجاء في الفصل الخامس عشر منه : من شك ابراهيم (ع) في وعد الله له باعطاء الارض في سوريا ومن ذكر العلامة في ذلك .

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثامن عشر والتاسع عشر في مجيء الملائكة الى ابراهيم بالبشري باسحاق واخباره بامر هلاك قوم لوط ومن حكاية ذهابهم الى لوط وخطابهم معه .

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثالث من سفر الخروج في خطاب الله لموسى (ع) من الشجرة ، وفي اواخره : ما حاصله . ان الله جل شأنه افتتح الرسالة لموسى بالتعليم بالكذب .

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثاني والثلاثين في سفر الخروج في ان هارون هو الذي عمل العجل ليكون إلهاً لبني اسرائيل ودعا لعبادته وبنى له رسوم العبادة .

فانظر الى هذه القصص في مواردها المذكووة من التوراة الرائجة والقرآن الكريم اورد القصة الأولى في سورتي الاعراف وطه . والثانية في اواخر البقرة . والثالثة في سورتي هود والذاريات . والرابعة في سورة طه والنمل والقصص . والخامسة في سورة طه والاعراف . فجاءت هذه القصص بكرامة الوحي الالهي منزهة عن كل خرافة . وكفر وعن كل ما ينافي قدس الله وقدس أنبيائه . جارية على المعقول . منظمة الحجة ، شريفة البيان . . الى ان ذكر : اعجاز القرآن في وجهة

الاحتجاج - ثم - اعجازة من وجهة الاستقامة والسلامة من الاختلاف والتناقض - ثم اعجازه في وجهة التشريع العادل ونظام المدنية - ثم - اعجازه من وجهة الاخلاق -- ثم -- من وجهة علم الغيب -- كقوله تعالى : [فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين] (١) وقوله [انا كفيناك المستهزئين] (٢) وقوله : [الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون] (٣) قالها عند طغيان الشرك واستفحاله وهيجان المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كفاه الله أشرف كفاية لم تكن تعلق بها الآمال بحسب العادة وقد بان للمشركين وعلموا مافي قوله تعالى في آخر الآية : [فسوف يعلمون] . وقوله في نفس الوقت من طغيان الشرك [هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] (٤) فاظهره على الدين أعز إظهار ارغمت به آناف المشركين .

ومن الاخبار بالغيب قوله : [غلبت الروم في ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين] (٥) فغلبت الروم فارس ودخلت مملكتها قبل مضي عشر سنين من إخباره تعالى . وقوله : [تبت يدا أبي لهب وتب : سيصلى ناراً ذات لهب] (٦) في شأن أبي لهب وامرأته وهو اخبار بموتهما على الكفر فماتا عليه . .

---

(١) الجحيم : ٩٤

(٢) الحجر : ٩٥

(٣) الحجر ايضاً : ٩٦

(٤) الصف : ٩

(٥) الروم : ١

(٦) سورة تبت

شواهد الحاجة الى القرآن

من الشواهد على احتياج البشرية الى القرآن : عودة ـ تركيا ـ بعد تخلصها من الطاغوت ـ عصمت إينونو ـ الى القرآن ودعوتها الناس للالتحاق بما أسمته ـ دور القرآن ـ . (١) .

شهادات الغربيين بعظمة القرآن

قال : ادموندبورك ـ الخطيب السياسي الانكليزي (٢) : القانون المحمدي القرآن قانون ضابط للجميع من الملك الى أقل رعاياه وهو قانون نسج بأحكام نظامي قضائي ، واعظم قضاء علمي ، تشريع لامع . ما وجد قط مثله في هذا العالم من قبل .

وقال الكاتب ـ مراشي ـ : من يتأمل آي القرآن يجد ان اساس الاسلام : التوحيد . وقطبيه : التآخي وتحسين شئون العالم تدريجاً بواسطة العلم . .

وقال ـ المستر بيكتول ـ : القرآن هو الذي دفع العرب الى فتح العالم ومكنهم من انشاء امبراطورية فاقت امبراطوريات اسكندر الكبير والامبراطورية الرومانيه ، سعة وقوة وعمراناً ودواما .

وقال ـ گستاولوبون ـ : ان القرآن لم ينشر الا بالاقناع لا بالقوة فاستطاع بذلك ان يجذب اليه الشعوب وتدين به الشعوب .

وقال ـ ريتونبورث ـ : يجب ان نعترف ان العلوم الطبيعية ،

---

(١) و (٢) التكامل ج ٣ ص ٦٠

والفلك ، والفلسفة مقتبسة من القرآن ، فجميع العلماء مدينون له .

ويقول احد الغربيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي : هل يتأتى لجميع فلاسفة العالم ان يثبتوا غلطة واحدة في القرآن ، ولو ارتكنوا على كل مافي ايديهم من العلوم العصرية لا يتأتى لهم ذلك .

ولو وجدوا فيه خطأ صغيراً ما كانوا الا مظهريه ، ولكن أنى لهم ذلك . والعلوم كل يوم تبدل وتغير وفي كل لحظة تظهر معان باهرات لآيات قرانية ماكنا لنفهم معناها الا بعد تقدم العلوم . لاضربن لكم مثلاً : كان الفلكيون يدعون اولاً ان الارض ثابتة والشمس متحركة . ثم قالوا : بل الارض متحركة والشمس ثابتة . ثم جاؤا اليوم يقولون علمنا الآن ان كلاً في فلك يسبحون ، وان الشمس تجري لمستقر لها .

فمن هنا علمنا ان العلوم تتغير وتترقى . والقرآن لا يتغير بالحوادث فان وجد في الكتاب الحكيم شيء لا نفهمه وجب علينا ان ننتظر في العلوم ولا نشك لحظة في صحة القرآن .

ثم يقول : قصدت في سياحتي مدينة - بوتارليه - لمقابلة الدكتور - - جرينه - المسلم الفرنسي الشهير الذي كان عضواً في مجلس النواب لأسأله عن سبب دخوله في الاسلام ، فعند الوصول والسؤال منه قال لي : تتبعت كل الآيات القرءآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية ، والصحية والطبية التي درستها من صغري وفهمتها جيدا فوجدتها منطبقة كل الانطباق مع معارفنا الحديثة فاسلمت . لأني تيقنت ان محمداً (ص) أتى بالحق الصراح من قبل الف سنة من غير ان يكون له مدرس من البشر .

ولو ان صاحب كل فن من الفنون ، او علم من العلوم قارن كل الآيات القرءآنية بما يعلمه جيداً كما قارنت انا لأسلم دون ريب ان كان

عاقلاً خالياً من الأغراض (١) .

والى هنا ننهي الكلام فى اقوال ذوي الفن في رفيع شأن القرآن واعترافاتهم بانه الركيزة لعلم كل زمان ضمنا المقدمة اياها كشطر من البرهان (٢) ليكون القارىء على ضوء في دخوله الكتاب لاستقراء شطره الأخر . سائلاً منزل القرآن التوفيق والسداد في البيان .

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ، ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار

قرآن كريم (٣)

---

(١) من مقال للاستاذ السيد احمد الحسيني في مجلة - صوت المبلغين التي تصدر بكربلاء .

(٢) فقد ذكرنا أن الكتاب برهان ودليل لعلوم القرآن . والبرهان نقلي وعقلي . فما فى المقدمة هو النقلي . وما في الكتاب هو العقلي . ويوضحه ويجسده ثبوت المصداق : وهو مانحن بصدده .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٠

المدخل

الانسان والايمان بالله تعالى

لما كان الايمان ركيزة الاعمال الصالحة ، والقاعدة الضخمة لاندفاع العبد إلى طاعة المعبود ، كما ان الايمان هو مبدأ الفيض لكل الخيرات ، وأساس الانتظام ، وانه السبب المتوحد للحصول على الراحة في الدنيا لو كانت فيها راحة ولو نسبياً ، وهو الطريق المتفرد لاكتساب السعادة في الاخرى - نعيم دار البقاء - .

لما كان هذا كله تجد رب العزة - وهو الحنون على خلقه ، والرؤف بعباده - يجري معهم على سنته في ارشادهم إلى التحلي بجميل صفة الايمان ، والتخلي عن قبيح صفة الكفر والنفاق : [آمنوا بالله ورسوله] والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يدعون إلى الايمان بالله ورسوله فهي اذن حقيقة الايمان ، يدعون لتحقيقها في قلوبهم بصحيح معناها . وهي لفتة دقيقة .

ان هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً ، ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة ، لما حفت به من معدد الشهوات ، وما فرش لها من الأشواك على قوارع الطرقات .

ومن ثم يحشد لها سبحانه هذه النداءات ، ويكرر لها بهذه المؤثرات ، ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وتزن كل شيء بميزانها الكبير الدقيق .

ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة ، ولا يكلها إلى هتاف واحد ،

أو بيان واحد أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب .. بل يعاودها كمعاودة الطبيب مريضه .

وهذا هو منهج القرآن الالهي في عـــلاج القلوب . وهو جدير بالاستجابة ، وان يقف الدعاة إلى الله امامه طويلا ليتدبروه ، وينطبعوا بتعـاليمه .

إن الله سبحانه يخاطب القلوب التي خلقها ، فهو يعلم احوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها .. [يعلم السر واخفى] (١) وهو يعلم ان نقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستمرار حقيقة الايمان استقراراً تنبثق منه آثاره ، ونتائجه في واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله .. [آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه] .. (٢) والدعوة الى الانفاق كما ترى مصحوبة بلمسة موحية تنبع من حقيقة الايمان . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه وهو الذي [له ملك السماوات والأرض]

هذا مسلك القرآن في تكميل الانسان ، يدعم الطلب بالبرهان . فهو يدفع بالانسان إلى التشبع من حقيقة الايمـان والتضلع من جوهره ، وعدم الاكتفاء بصورته وقشره ، بالوان من الترغيب : تارة بسرد صفات، المؤمنين التي شكلت لهم وحدة صحيحة جامعة ، نافعة [والمؤمنون بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله والله عزيز حكيم] (٣) وتارة اخرى بصادق وعده لهم تجاه ايمانهم بعظيم الاجر ومنوع الثمر

(١) سورة طه : الآية ٦ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٧ .

(٣) سووة التوبة : الآية ٧١ .

[وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله اكبر ، ذلك هو الفوز العظيم] (١) ..

اضف إلى ذلك ما جاء على لسان سفيره إلى خلقه ، وبعيثه لعباده محمد صلى الله عليه وآله : إن الله تبارك وتعالى إذا رأى أهل قرية قد أسرفوا في المعاصي ، وفيهم ثلاثة نفر من المؤمنين ، ناداهم : يا أهل معصيتى لو لا من فيكم من المؤمنين المتحابين بحلالي العامرين بصلاتهم أرضى ومساجدي المستغفرين خوفاً مني لانزلت بكم عذابي ثم لا أبالي (٢)

وما جاء عن حملة علمه : أهل بيته : [الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً] .. فعن الصادق عليه السلام في حرمة المؤمن على الله قال : [لو كشف الغطاء عن الناس ونظروا إلى وصل ما بين الله عز وجل وبين المؤمن ، خضعت للمؤمنين رقابهم ، وتسهلت لهم أمورهم ولانت لهم طاعتهم (٣) .

وفي صفات المؤمن عنه (ع) : المؤمن يخشع له كل شيء . ثم قال : إذا كان مخلصاً قلبه لله اخاف منه كل شيء حتى هوام الأرض وسباعها ، وطير السماء (٤) . وعن الرضا عليه السلام : [ان المؤمن ليعرف في السماء كما يعرف الرجل أهله وولده ، وانه لأكرم على الله من ملك مقرب] (٥) .

(١) سورة التوبة : الآية ٧٢ .
(٢) مشكاة الانوار عن النبي صلى الله عليه وآله .
(٣) في الكافي .
(٤) نفس المصدر .
(٥) عيون أخبار الرضا .

وكما ذكروا عليهم السلام : ان المؤمن إنما سمي مؤمناً ، لانه يؤمن على الله فيجيز الله أمانه . وعن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : [ان الحب والمؤازرة على العمل الصالح يقطعان دابر الشيطان] (١) . وإلى كثير من ذلك وقد فصلناه في الجزء الثاني من كتابنا ـ الآيات الساطعة ـ .

كل هذا تثبيتاً للمؤمن في صموده على خطه الحربي ، وتشويقاً للمسلم للالتحاق بركبه ، والانخراط بصفه .

فان الله سبحانه عندما اراد هذا التكوين ، وشاء ابرازه على صفحة الوجود الخارجي فقد أحكمه بأدق الأحكام وأوجد له أقوى وسائل الدفاع . ـ وأُسها الايمان ـ في اطار كلمة التوحيد . لأنه ـ وهو الحكيم ـ لم يوجده عبثاً ، ولم يتركه هملا ، لسابق علمه جل شأنه بما يعارض نظام هذا التكوين ، وما يزاحم لباب الايمان والدين . فالايمان والدين يهدفان الى تنمية الروح . ومعارضها يرمى الى الاستكثار من المادة فقط ولو ذابت الروح اثناءها وقد علم سبحانه بان طالب المادة سيحدث لدفاعه عنها ـ اسلحة فتاكة ـ ولكنها رغم ذلك فهى مدحورة بسلاح الايمان .

نعم يجب أن يستخدم سلاح الايمان كما أراد مشرع الايمان ، دون أي غش وطلاء . فهو ان لم يفتك بمعارضه في وقت ، ولم يدحر مزاحمه في زمان فلسوء التصرف ، وليس لضعف فيه ذاته . ولي على ذلك أكثر من شاهد . ـ ومنها ـ ما احدثه الاسلام عند ولادته ، وحين ماكان حكيماً في قيادته ، موحداً برايته .

وتابع ذلك بدراسة الثورات الجدية ، والنهضات الاسلامية على طول الخط قبل أن تلاحقها ـ المؤامرات ـ وتدنسها التفاعلات ، وتعفنها المغرضات

---

(١) الصدوق في معاليه .

فانها شواهد . على ضخامة الايمان وعظمة سيطرته على نفوس أهله وبذلهم الغالي في سبيل نشره .

وإن المادة في طاقاتها وإن إتسعت ، والذرة في ابتكاراتها قد ارتفعت ، فهي لا تعد شيئاً إلى جنب الايمان وسعة طاقاته . لان فعاليات تلك القوى محدودة في اطار المادة فقط ، ولا تصل بها المرحلة لان تعمل في جلاء القلب ، وتصفية النفس ، ونقاء الروح ، كما يعمل الايمان . اذن هو المدرس السري للعقول ، والمهذب الداخلي للنفوس .

أما إذا توسعنا في نطاق طاقات الايمان وتأثيراته لدار البقاء - دار الآخرة - فحدث عنها ولا حرج . وسيأتى لها مقام آخر إن شاء الله تعالى .

إسعاف المؤمن

وحيث علم سبحانه مشقة الصمود على الايمان ، وعلى الأخص في أواخر الزمان ، بشاهد ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله : [يأتي زمان على أمتي القابض على دينه كالقابض على الجمر] (١) . وما جاء عنه (ص) انه قال لأصحابه : [اي المؤمنين أعجب إليكم . قالوا : الملائكة . قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم . قالوا : الانبياء : قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم . قالوا : فنحن . قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم . قال : ولكن أعجب المؤمنين ايماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها .. (٢) .

(١) الكافي .

(٢) صحيح البخاري .

كل ذلك لما يتغلب على الناس من الضلال ، والأضاليل ، والشبهات بلبس الحق بالباطل ، ومساواة الفاسق والعادل ، بضرب من الزبرج والطلاء . ومن هنا ضرب المثل : - كلمة حق يراد بها باطل -- اضافة إلى طغيان المادة ، والمساومة على الضمائر ، وما إلى ذلك بما هو مشاهد ومحل الابتلاء .

وعليه فالمؤمن حقاً في ملاقاة هذه المصاعب ، ومطاردته باشد المتاعب واغمض الشبه يكاد أن يتضعضع ان لم يتزعزع .

فالقرآن الكريم يسعفه بالبيان ، ويدعمه بالبرهان : [الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة . أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها . ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء ..] (١) .

ان الكلمة الطيبة هى كلمة الحق ، ونتاج الايمان تكون كالشجرة الطيبة ثابتة مثمرة . لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان ، وان خيل للبعض انها معرضة للمخطر الماحق في بعض الاحيان ، فهي سامية متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل وان خيل للبعض احياناً ان الشر يزحمها في الفضاء ، فهي مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لان بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن .

وان الكلمة الخبيثة -- هي كلمة الباطل -- كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى ، وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس انها أضخم من الشجرة الطيبة

(١) سورة ابراهيم : الآية ٢٩ .

وأقوى ، ولكنها تظل نافشة هشة وتظل جذورها في التربة قريبة حتى كأنها على وجه الأرض ، وما هي الا فترة ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء .

وليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء وتسكين للطيبين وتشجيع ، انما هو الواقع في الحياة ، ولو ابطأ تحققه في بعض الأحيان والخير الأصيل لا يموت مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق ، والشر كذلك لا يعيش الا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس معه ، والطلاء الذى سطح به ، فقلما يوجد الشر الخالص ، وعندما يستهلك مايلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية ، فانه عند ذلك يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال . [ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون] فهي أمثال ومصداقها واقع في الأرض ، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه في زحمة الحياة .

وفي فناء الشجرة الثابتة : [يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا] وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض مالها من قرار : [ويضل الله الظالمين] .. فتتناسق أنوار التعابير ، وأنوار المعاني كلها في السياق . يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الاخرة بكلمة الايمان المستقرة في الضمائر ، الثابتة في الفطر ، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة ، لا تتفرق به السبل ، ولا ينحرف عن الصراط المستقيم .

[ان الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون] (١) ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم وبعدهم عن النور الهادي ، واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرفات ، واتباعهم

(١) سورة الأحقاف : الآية ١٣ .

مناهج وشرائع من الهوى ، لا من اختيار الله .

تحقيق في الايمان

اختلفت كلماتهم في معنى الايمان حتى بلغت ثمانية أقوال بفصيل مطول (٢) والخلاصة في تحديد الكامل منه انه : التصديق بالجنان ، والاقرار باللسان ، والعمل بالأركان ، ونسب هذا القول إلى الشيخ المفيد (٣) وإن كان له قول آخر أيضاً . وان شئت فقل : انه : الاتصال بعالم الملكوت ، وصرف الوقت والامكانيات في الاقبال عليه جل شأنه .

ايضاح ذلك

ان العارفين قد شبهوا الايمان في الزيادة والنقصان بشخص مشتمل على جميع الأعضاء والجوارح والمزينات والمحسنات في خلقته . فان من تلك الأعضاء مايكون به قوام ذلك الشخص ووجوده ، كالرأس والقلب ونحوهما ، وبازائها من الايمان : التصديق القلبي واللساني والعملي . ومنها ما يكون به جلب منافعه ودفع مضاره وان لم يتوقف عليه اصل وجوده ، كاليدين والرجلين ونحوهما . وبازائها من الايمان فعل الواجبات وترك المحرمات . ومنها ما يكون له الدخل في تحسين صورته كالحاجبين

(١) يراجع كتاب الأنوار ج٢ ص٣١٣ ط ـ تبريز ايران ـ

(٢) الجمع بين الأقوال هو الحل على اختلاف مراتب الايمان .

(٣) الأنوار في هامش ص٣١٦ .

واهداب العينين ونحوهما ، وبازائه من الايمان فعل المستحبات وترك المكروهات . واليه ينظر قول سيد الساجدين عليه السلام [وحلني بحلية المتيقن] (١) . .

وقد ورد ايضاً تشبيه الايمان بالعين النابعة في زيادة مائها ونقصانه حيث ان زيادة مائها تكون بتشريع الانهار حولها ، وشقها ، وتطهيرها من الحمأة المفسدة (٢) ونقصان مائها يكون بعدم ذلك واهمالها .

ويؤيد ذلك ما ذكره الكليني (٣) : الايمان فوق الاسلام بدرجة والتقوى فوق الايمان بدرجة ، واليقين فوق التقوى بدرجة ، ولم يقسم بين العباد شيء اقل من اليقين . كما قال تعالى : [واعبد ربك حتى يأتيك اليقين] (٤) أي استمر على عبادة ربك ودراسة معرفته حتى تصل الى درجة اليقين . وان ذكر المفسرون ايضاً : ان اليقين الموت . ويؤيد الاول قوله تعالى : [ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون] (٥) أي ليعرفون على قول . فالمقصود بقوله : ـ اعبد ربك ـ أي خذ في معرفة ربك .

وقالوا في حدود المعرفة بالله تعالى : العارف أنس بالله فاوحشه من خلقه ، وافتقر الى الله فاغناه عن خلقه ، وذل لله فأعزه في خلقه وقالوا ايضاً : يفتح الله للعارف على فراشه مالا يفتح للعابد وهو قائم يصلي .

---

(١) الصحيفة السجادية

(٢) الطين اللزج الاسود

(٣) في الكافي

(٤) الحجر : ٩٩

(٥) الذاريات : ٥٦

ان من الشعر لحكمة

لسعيد بن محمد الاندلسي (١) :

أبعد غوصي في علوم الحقائق — وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين اشرافي على ملكوته — أرى طالباً رزقا الى غير رازقي
فأيام عمر المرء متعة ساعة — تمر سريعا مثل لمعة بارق
وقد اذنت نفسي بتقويض رحلها — واسرع في سوقي الى الموت سائقي
واني وان أوغلت او سرت هارباً — من الموت في الآفاق فالموت لاحقي

* * *

ومن الادلة ان الايمان على مراتب ، وان الكامل منه قليل ، قوله تعالى : [وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين ، وكأين من آية فى السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون ، أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله او تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون] (٢) .

فان هذه الآيات لبيان الايمان الكامل . والتوحيد الخالص عزيز المنال ، لا يناله الا القليل ، لأنه تعالى قد نفى اولاً ان يكون اكثر الناس مؤمنين ولو حرص النبي صلى الله عليه واله وأحب واجتهد كل جهده على ان يكون الاكثر منهم مؤمنين ، فان ذلك لا يكون . ومفهومه

(١) في كتاب طبقات الأمم ص ١٠٣

(٢) يوسف : ١٠٣

ان اقل الناس يكونون مؤمنين ، وقد ذمهم سبحانه على هذا وعرض بهم :
بان ذلك منهم على خلاف العادة حيث انك ما تطلب منهم على ايمانهم
وتصديقهم بقرءآنهم من أجور كي تصدهم الغرامة المالية التي هاموا
بحبها ، وجبلوا على جمعها عن قبول دعوتك ، والايمان بك ـ يا محمد ـ
وانما شأن القرآن مذكر للعالمين : ما أودع في قلوب البشر من العلم
بالله ، وبآياته بالفطرة . ولكنهم قد أنستهم ذلك : الغفلة والاعراض .

ثم بين جل شأنه : الآيات الحسيه لديهم ، والمستمر مشاهدتها
لهم فقال : [وكأين من آية . .] أي أن هنالك آيات كثيرة : سماوية
وارضية تدل بوجودها ونظامها البديع الجاري فيها على توحيد ربهم ،
والاخلاص له وهم يشاهدونها واحدة بعد اخرى ، فتتكرر عليهم . وهذا
معنى المرور عليها . ولو مجازاً وكناية . والحال أنهم معرضون عنها
لا ينتبهون . ولو حمل قوله : [يمرون عليها] على التصريح دون الكناية
أي هم يمرون عليها كان من الادلة على ماعليه الهيئة الحديثة من حركة
الارض ـ وضعا ـ و ـ انتقالا ـ فانما هم المارون على الاجرام السماوية
بحركة الارض الانتقالية والوضعية . لا بالعكس على ما يخيل الينا في
ظاهر الحس . ويكون القرار عليها بالجاذبية . وهذا من علوم القرآن
كما سيتضح في المباحث الآتية ان شاء الله تعالى .

واما التأييد الذي ادعيناه آنفاً بالآية على ان المراد باليقين :
ظاهره . لا الموت . فهو بقوله : [وما يؤمن اكثرهم الا وهم مشركون]
لأن معناه : بعد ان كان اكثر الناس ليسوا بمؤمنين ، مع عدم سؤالك
منهم الأجر ، ومع مرورهم على الآيات السماوية والارضية على كثرتها
فان الذين آمنوا منهم وهم الاقلون ايضاً : ما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم
متلبسون بالشرك .

وان شبهة تلبس الانسان بالايمان والشرك معاً تلبس بالضدين وهو ممنوع وباطل : مندفعة باختلاف المراتب للايمان قوة وضعفا ، وبالنسبة والاضافة . كالقرب والبعد يجتمعان في واحد نسبياً ، ويقال : انه قريب بالنسبة الى مكان ، وبعيد ايضاً بالنسبة الى مكان آخر .

ومعنى الايمان بالله والشرك به : هو تعلق القلب بالله والخضوع للحقيقة عند الشدائد ، وعند الاصطدام بالواقع . وهذا هو الايمان .

وتعلق القلب ايضاً بغيره بما لايملك شيئاً الا باذنه ، كتعلق الانسان بالحياة الفانية ، وزينتها الباطلة وباهلها المزيفين . وينسى مع ذلك كل حق وحقيقة . وبامكانه ان ينقطع عن كل ما يصد النفس ويشغلها عن الله تعالى ، وعن الركون الا اليه عز وجل ، فيكون من اوليائه المخلصين وهذ هو الشرك ، والمعبر عنه بلسان اهل السلوك - بالشرك الخفي - .

ثم يعود سبحانه فيختم الآيات بالتهديد لضعيفي الايمان ، المتعلقين بحطام الدنيا فيقول : [أفامنوا ان تأتيهم غاشية . .] أي عقوبة تغشاهم وتحيط بهم بحيث لا يبقى أي مسلك لهم للتخلص منها [بغتة] - أي فجأة [وهم لا يشعرون] لعدم مسبوقيتها بعلامات تعين وقتها ، وتشخص قيامها ، او لغفلتهم وانشغالهم بالدنيا فلا يلتفتون الى العلامات رغم وجودها كالزلزال ونحوه ويعدونها اموراً طبيعية واعتيادية ، فيتمادون بغرورهم ، ويستمرون بغفلتهم حتى تنقض عليهم منيتهم بحلول آجالهم (١) .

---

(١) يراجع كتاب الميزان ج ١١ ص ٣٠٢ للازدياد من الموضوع .

تحديد الايمان من القرآن

قد بين سبحانه حقيقة الايمان بقوله : [انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون] (١) فالايمان : تصديق القلب بالله ورسوله لا اللسان فقط . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب ، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور ، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ، بل كل ما يتقرب به الى الله .

فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الايمان واطمأن اليه وثبت عليه لابد وان يكون مندفعاً لتحقيق حقيقته في خارج القلب ، في واقع الحياة ، — في دنيا الناس — . يريد ان يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الايمان ، وبين ما يحيط به من ظاهره في واقع الحياة ولا يريد ان يكون مزدوجاً . بل لا يطيق التفكيك بين واقعه الباطني وعمله الظاهري ، ولا يستطيع التنازل عن تصوره الايماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن الجاهلي المنحرف .

ومن هنا ينطلق الى الجهاد في سبيل الله بكل انواعه ، والى تحقيق تكاليف الله بكل اقسامها .

فلابد من حرب بينه وبين الجاهليـــة من حوله ، والمحيطة به : [اولئك هم الصادقون] الصادقون في عقيدتهم الصادقون حين يقولون : انهم مؤمنون .

---

(١) الحجرات : ١٥

فاذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلوب ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة فالايمان لا يتحقق ، والصدق في العقيدة ، وفي ادعائها لا يكون : [قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم] (١) .

الرسول (ص) يجسد الايمان

قال رسول الله (ص) (٢) : [قال حبيبي جبرئيل : ان مثل هذا الدين كمثل شجرة ثابتة ، الايمان اصلها ، والصلاة عروقها ، والزكاة ماؤها ، والصوم سعفها ، وحسن الخلق ورقها ، والكف عن المحارم ثمرها فكما لا تكمل شجرة الا بالثمر كذلك الايمان لا يكمل إلا بالكف عن المحارم] .

وعن الصدوق (٣) : المؤمن ينقلب في خمسة من النور . مدخله نور ، ومخرجه نور ، وعلمه نور ، وكلامه نور ، ومنظره يوم القيامة الى النور .

وورد مسنداً الى ابي الحسن الرضا عليه السلام انه قال : لم لايكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال : سنة من ربه ، وسنة من نبيه ، وسنة من وليه . فالسنة من ربه : كتمان سره . قال عز وجل : [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول] (٤) . واما السنة من نبيه : فمداراة الناس فان الله أمر نبيه بمداراة

---

(١) الحجرات : ١٤

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ج ١٢ ص ٢٩٠ ط ايران

(٣) في الخصال

(٤) الجن : ٢٦

الناس فقال : [خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين] (١) .

واما السنة من وليه : فالصبر على البأساء والضرآء . فان الله يقول : [والصابرين في البأسآء والضراء] (٢) .

فن القرآن في توصيف الايمان

قال الله تعالى : [من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم ان الله كان غفوراً رحيما] (٣) ذكر الكثير من المفسرين والمؤرخين : ان نزولها في علي ابن ابي طالب عليه السلام -- وهو المنتظر -- (٤) وفي حمزة بن عبد المطلب عليه السلام - وهو الذي قضى نحبه - في واقعـــه احد ، وفي صدقهم ببيعتهم للرسول الاعظم ، والتزامهم بعهدهم معه ، حيث هو عهد لله ومع الله : [ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه

---

(١) الاعراف : ١٩٨

(٢) البقرة ١٧٢

(٣) الاحزاب : ٢٤

(٤) في المجمع ج ٨ ص ٣٥٠ وروى الحاكم ابو القاسم الحسكاني بالاسناد عن عمرو بن ثابت عن ابي اسحاق عن علي عليه السلام قال : فينا نزلت رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فانا والله المنتظر وما بدلت تبديلا .

اجراً عظيما] (١) وفي صمودهم في الذب عنـــه صلى الله عليه وآله ، والجهاد بين يديه حتى ورد ان حمزة (ع) لما رأى المنهزمين من اصحاب النبي (ص) قال : اللهم اني ابرأ اليك مما فعلوا ، واعتذر اليك من التقصير وقاتل حتى استشهد .

واما موقف علي بن أبي طالب عليه السلام وذبه عن رسول الله (ص) تارة . وقتله لاصحاب الكتائب المصممة على قتل رسول الله (ص) تارة أخرى ، وتتبعه للمنهزمين وتأنيبهم وتقريعهم تارة حتى رجع البعض منهم فهو امر معروف ومشهور وغني عن البيان حتى صاح جبرئيل بين السماء والأرض : ـ لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي .

هذا ولكن القرآن بملاكه عام لكل أوان . وبهديه وارشاده شامل لكل زمان ، وان خص النزول .

فالآية قـد دلت بمنطوقها على ان بعضاً من المؤمنين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه ، ودلت بمفهومها على ان بعضا منهم لم يصدقوا في ذلك وقد انكشفت سرائرهم بنقضهم عهد ربهم ، وبهزيمتهم عن نبيهم وتركه محاطاً به من قبل المشركين ـ ألد أعدائه ـ مع انهم معدودون من المؤمنين بمقتضى تقسيم الآية وتبعيضها .

فاذن لابد وان يكون للايمان عدة معان واقسام وقد ذهب الى ذلك فريق . او ان يكون للايمان عدة مصاديق تختلف مراتبها فيه ، وبذلك تختلف قوة صدق الايمان وضعفه عليها . كما ان صدق الانسان على الفرد الكامل منه يكون بانطباق واستحقاق ماليس له في صدقه على الفرد الناقص منه ، وان تساوى الفردان في اصل صدق الانسان عليهما .

فكذلك القول في الايمان . فان صدقه على الكامل فيه ، والبالغ

---

(١) الفتح : ١٠

في معرفته لربه درجة السالكين. والمضحي بكل امكانياته ، وحتى بحياته في سبيل الوفاء بعهده لخالقه ، والذب عن دينه ، والدفاع عن سفيره لا يكون كصدقه على من آثر الحياة الدنيا على ذلك كله ، وحققه بانهزامه وبنكثه لعهد ربه .

بل ان اطلاق الايمان على مثل ذلك لا يعدو ان يكون مجازياً ، لأن الحقيقي منه لا يرى صاحبه : ان الموت في سبيل الله فناءً بل يراه هو الحياة .

لون آخر من بيان القرآن

الكامل الايمان معرضاً بناقصه

قال تعالى (١) : [انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون ، افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون ، اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، واما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما ارادوا ان يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ، ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون ، ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها ، انا من المجرمين منتقمون] .

* * *

(١) السجدة : ١٦

يعرض سبحانه في هذه الآيات وما قبلها : نموذجا من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء بها القرآن ليوقظها في الفطرة ، ويركزها في القلوب : عقيدة التوحيد والايمان والدينونة لخالق الكون ، ومدير السماوات والارض وما فيهما من خلائق لا يعلمها الا هو - والتصديق برسالة محمد (ص) الموحى اليه بهذا القرآن لهداية البشر الى الله ، والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء.

ويجعل ذلك على نحو التقابل والتضاد ، حيث ذكر قبل هذه الآيات منكري البعث ، وفي هذه الآيات المؤمنين بذلك . فهي ترسم صوراً للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها الى ربها . والنفوس الجاحدة في عنادها وتمردها . وترسم صوراً للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء . وهؤلاء وكأنها بتصويرها واقع مشهود حاضر للعيان ، يشهده كل قارىء لهذه الآيات من القرآن .

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده الى التأمل والتدبر مرة ، والى الخوف والخشية مرة ، والى التطلع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالاطماع ، وتارة بالاقناع . . ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وامام هذه البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى ، وعلى نور .

فبعد ان عرض تعالى فيما قبل هذه الآيات : قضية البعث ، وشكهم فيه بعد تفرق ذراتهم في التراب : [وقالوا أءاذا ضللنا في الارض أءنا لفي خلق جديد] (١) ويرد على هذا الشك بصيغه الجزم واليقين :

(١) السجدة : ٩

[قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون] (١) ومن ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة : [ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم] (٢) بعد هذا كله يرض الى جواره وفي قباله مشهد المؤمنين في هذه الارض : وانهم اذا ذكروا بآيات ربهم : - خروا سجداً - تأثراً بما ذكروا به ، وتعظيماً لله الذي ذكروا باياته ، وشعوراً بجلاله الذي يقابل بالسجود فوراً ، تعبيراً عن الاحساس الذي لا يعبر عنه الا تمريغ الجباه بالتراب . وسبحوا بحمد ربهم مردفين عبادة الجسد بعبادة اللسان - وهم لا يستكبرون - فهي استجابة الطائع الخاشع الشاعر بجلال ربه الكبير .

ثم يعرض لهم مشهداً الى جانب هذا ، وهم في خلواتهم ، بعيدين عن أي رياء ، يكاد يجسم حركة الاجساد والقلوب : [تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً] . انهم يقومون لصلاة الليل ويتهجدون بالصلاة ، ودعاء الله .

ولكن التعبير القراءني يعبر عن هذا القيام بطريقة تنبيء عن امر دقيق : وانهم قد تغلبوا عليه بعد معركة وصراع ، ويقول : [تتجافى جنوبهم عن المضاجع] فيرسم صورة المضاجع في الليل بانها تدعو وتجذب الجنوب الى الرقاد والراحة والتذاذ المنام . ولكن هذه الجنوب لا تستجيب لها ، وان كانت تبذل جهداً في مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لان لها شغلا عن المضاجع اللينية ، والرقاد اللذيذ ، شغلا بربها . شغلا بالوقوف بين يديه ، وبالتوجيه اليه في خشية وفي طمع ، يتنازعها الخوف والرجاء الخوف من عذاب الله . والرجـاء في رحمته . والخوف من غضبه .

(١) السجدة : ١٢

(٢) آلسجدة : ١٣

والطمع في رضاه . والخوف من معصيته والطمع في توفيقه .

يعبر عن هذا بكلمة واحدة حتى لكأنها مجسمة مشاهدة ـ يدعون ربهم خوفاً وطمعا .

بعض اسانيد فضل صلاة الليل

فقد ورد الكثير من فضل صلاة الليل ، والتهجد . روى الواحدي (١) بالاسناد عن معاذ بن جبل قال : بينما نحن مع رسول الله (ص) في غزوة تبوك وقد اصابنا الحر فتفرق القوم فاذا رسول الله (ص) اقربهم مني فدنوت منه فقلت يا رسول الله : أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . قال : لقد سألت عن عظيم ، وانه ليسير على من يسره الله عليه : ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم شهر رمضان . قال : وان شئت انبأتك بابواب الخير . قلت : اجل يا رسول الله . قال : [الصوم جنـــة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله . ثم قرأ الآية : [تتجافى جنوبهم عن المضاجع] .

وبالاسناد عن بلال قال : قال رسول الله (ص) : [عليكم بقيام الليل فأنه دأب الصالحين قبلكم ، وان قيام الليل قربة الى الله ، ومنهاة عن الاثم ، وتكفير للمسيآت ، ومطردة الداء عن الجسد] .

وهم الى جانب هذه الصلاة الخاشعة ، والدعاء الحار ، من العبادة البدنية . يؤدون أيضاً واجبهم للمجتمع المسلم من العبادة المالية طاعة لله وزكاة ـ ومما رزقناهم ينفقون ـ رغم الحب الشديد للمال وجمعه :

(١) في تفسيره .

[وانه لحب الخير لشديد] (١) .

ثم توافق هذه الصورة الحساسة الوضيئة صورة للجزاء الرفيع الخاص الجزاء الذي تتجلى فيه عظمة المؤمنين ، والاعزاز الذاتي ، والاكرام الالهي لهم - فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون - تعبير عجيب ينبىء بحفاوة الله سبحانه بالقوم ، وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الكرامة ، مما تقربه العيون ، الذي لا يطلع عليه احد سواه ، والذي يظل عنده مستوراً حتى يكشف لاصحابه عنه يوم لقائه (٢) . تصويرة وضيئة لهـذا اللقاء الكريم في حضرة الله تعالى ، فكم يفيض الله على عباده من كرمه ، ويغمرهم بفضله .

ومن هم الى جنب الله كائناً ما كان عملهم وعبادتهم ، وطاعتهم ، وتطلعهم حتى يتولى الله جل جلاله إعداد ما يدخره لهـم من جزاء في عناية ، ورعاية ، وود ، واحتفال . لولا انه المتفضل المنان .

ومما قيل في اسباب إخفاء جزائهم : انه في مقابل صلاتهم في الليل - وهي خفية - فكذلك ما بازائها ويؤيده ما روى عن ابي عبد الله عليه السلام : انه قال : [ما من حسنة إلا لها ثواب مبين في القرآن الا صلاة الليل فان الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرهـا ، قـال تعالى : [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم] .

وقال امير المؤمنين (ع) من خطبة له في وصف المتقين (٣) : - [وكان ليلهم في دنياهم نهاراً [اي متنبهين عاملين ولكن لا للدنيا بل :

---

(١) العاديات : ٨ .

(٢) راجع الجزء الثالث من ص ١٤٧ - ١٦٤ من كتابنا - الايات الساطعة لتطلع على مفصلات ، ماعده الله لهؤلاء المؤمنين بما تقربه .

(٣) من منهاج البراعة ج ١١ ص ٢٠٨ .

[تخشعا واستغفارا] وقد مدحهم سبحانــه بقوله : [والمستغفرين بالاسحار] وبقوله : [أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحـذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . .] (١) . وبقوله تعالى :[سيماهم في وجوههم من اثر السجود] (٢) . قال الصادق عليه السلام في تفسيره : [هـو السهر في الصلاة] . وقال تعالى : [انا سنلقي عليك قولا ثقيلا ، ان ناشئة الليل هي أشد وطأ واقوم قيلا] (٣) قيل في تفسير - قولا ثقيلا - انه القرآن لما فيه من ثقل التكاليف ، وهي ثقيلة على المكلفين وقال علي بن ابراهيم القمي : القول الثقيل : قيام الليل وهو قوله : [ان ناشئة الليل الآية] . وقيل : النفس التي تنشأ من مضجعها للعبادة - أي تنهض - وقيل : العبادة التي تنشأ بالليل . - أي تحدث - . وفي المجمع عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام انهما قالا : [هي القيام في آخر الليل الى صلاة الليل] .

ومعنى -- هي اشد وطأ -- : أي اكثر ثقلا ، وابلغ مشقة ، لان الليل وقت الراحة ، والعمل يشق فيه .

ومن قرأ - وطاء بالمـد - فمعناه أشــد مواطاة للسمع والبصر للقلب ، واجتماعها كلها على التوجه الى الله لعدم شغل القلب بامور الدنيا لجهة الخلوة بالله عز وجل . -- واقوم قيلا -- : أي اسد صوابا واصوب لفراغ البال .

وقد روى عمر بن اذينــة (٤) قال : سمعت ابا عبد الله (ع)

(١) الزمر : ١٢

(٢) الفتح : ٢٩

(٣) المزمل : ٦

(٤) منهاج البراعة ج ١١

يقول : [ان في الليل ساعة ما يوافق فيها عبد مؤمن يصلي ويدعو الله فيها الا استجاب له . قلت اصلحك الله : وأي ساعات الليل هي قال : اذا مضى نصف الليل ، وبقي السدس الاول من النصف الثاني .

واما الثلث الأخير من الليل فالاخبار في فضل القيام فيه واستجابة الدعاء متواترة (١) قال صلى الله عليه وآله : [اذا كان آخر الليل يقول الله سبحانه وتعالى : هل من داع فاجيبه ، هل من سائل فاعطيه سؤاله ، هل من مستغفر فاغفر له ، هل من تائب فاتوب عليه] .

وما رواه في الفقيه عن جابر بن اسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام : ان رجلا سأل علي بن أبي طالب (ع) عن قيام الليل بالقرآن . فقال : [إبشر من صلى من الليل عشر ليله مخلصاً ابتغاء ثواب الله قال الله لملائكته : اكتبوا لعبدي هذا من الحسنات ما أنبت في الليل من حبة وورقة ، وشجرة ، وعدد كل قصبة ، وخوص ، ومرعى .

ومن صلى تسع ليله اعطاه الله عشر دعوات مستجابات واعطاه الله كتابه بيمينه .

ومن صلى ثمن ليله اعطاه الله اجر شهيد صابر صادق النية وشفع في أهل بيته .

ومن صلى سبع ليله خرج من قبره يوم يبعث ووجهه كالقمر ليلة البدر حتى يمر على الصراط مع الآمنين .

ومن صلى سدس ليله كتب من الاوابين وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر .

ومن صلى خمس ليله زاحم ابراهيم خليل الرحمان في قبته .

ومن صلى ربع ليله كان في اول الفائزين حتى يمر على الصراط

---

(١) منهاج البراعة ج ١١ ص ٢١٠

كالريح العاصف ويدخل الجنة بغير حساب .

ومن صلى ثلث ليله لم يلق ملكاً الا غبطه لمنزلته من الله ، وقيل : ادخل من أي ابواب الجنة شئت .

ومن صلى نصف ليله فلو اعطي ملأ الارض ذهبا سبعين الف مرة لم يعدل جزاؤه وكان له بذلك عند الله افضل من سبعين رقبة يعتقها من ولد اسماعيل .

ومن صلى ثلثي ليله كان له من الحسنات قدر رمل عالج أدناها حسنة اثقل من جبل - احد - عشر مرات .

ومن صلى ليله تالياً لكتاب الله راكعاً وساجداً وذاكراً ، أعطي من الثواب : ما ادناه : يخرج من الذنوب كيوم ولدته امه ، ويكتب له عدد ما خلق الله من الحسنات ، ومثلها درجات ، ويثبت النور في قبره ، وينزع الاثم والحسد من قلبه ، ويجار من عذاب القبر ، ويعطى براءة من النار ، ويبعث من الآمنين ، ويقول الرب لملائكته : انظروا الى عبدي أحيا ليله ابتغاء مرضاتي اسكنوه الفردوس ، وله فيها مائة الف مدينة ، في كل مدينة جميع ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ولم يخطر على بال ، سوى ما اعددت له من الكرامة ، والمزيد ، والقربة .

وأخيراً : فطوبى لعبد يتجافى جنبه عن مضجعه ومهاده ، ويشتغل بمناجاة خالقه في غلس الظلام ، والناس نيام ، مستحضراً ذنوبه وخطاياه نصب عينيه ، ويرفع يد المسكنة بالتضرع والابتهال الى الملك المتعال . وان من الشعر لحكمة .

طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا

وجئت اشكو الى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كـل نائبـة
ومن عليـه بكشف الضر اعتمـد
اشكو اليـك امـوراً انت تعلمها
مالي على حملهـا صبر ولا جلـد
وقـد مددت يدي بالـذل خاضعة
اليك يا خير من مدت اليـه يد
فـلا تردنها يا رب خـائبـة
فبحر جودك يروي كل من يرد
يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا
ارحم عبيداً أتوا بالذل قـد نكدوا

• • •

وقد اقتصرنا في الموضوع خوف الاطالة ، والا فهو من اوسع المقامات السلوكية ونختمها بدعاء الامام سيد الساجدين علي بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجادية الكاملة من فقرات كان يدعو بها بعد الفراغ من صلاة الليل مخاطباً ربه : وتعديت عن مقامات حدودك الى حرمات انتهكتها ، وكبائر ذنوب اجترحتها ، كانت عافيتك لي من فضايحها ستراً ، . . الى ان قال : [اللهم واذ سترتني بعفوك ، وتغمدتني بفضلك في دار الفناء بحضرة الاكفاء ، فاجرني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الاشهاد من الملائكة المقربين ، والرسل المكرمين ، والشهداء والصالحين ، من جار كنت أكاتمه سيئاتي ، ومن ذي رحم كنت احتشم منه في سريراتي ، لم أثق رب بهم في الستر علي ، ووثقت بك رب في

المغفرة لي ، وانت اولى من وثق به ، واعطى من رغب اليه ، وأرأف من استرحم ، فارحمني] .

عودة لبيان معنى الآية

في كامل الايمان

وامام مشهد المجرمين البائس الذليل ، ومشهد المؤمنين الناعم الكريم ، يعقب بتلخيص مبدأ الجزاء العادل : الذي يفرق بين المسيئين والمحسنين في الدنيا والآخرة . والذي يعلق الجزاء بالعمل على اساس العدل الدقيق فيقول : [افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون] وقد نزلت الاية في علي بن ابي طالب عليه السلام ـ قدوة المتقين ـ والوليد بن عقبة ـ مثال الفاسقين ـ (١) حينما قال لعلي عليه السلام : انا أبسط منك لسانا ، واحد منك سنانا . فقال علي (ع) : ليس كما تقول يا فاسق . وقال قتادة : لا والله ما استووا لا في الدنيا ، ولا عند الموت ولا في الآخرة .

نعم ان المؤمنين والفاسقين لا يستوون في طبيعة ، ولا في شعور ، ولا فى سلوك . حتى يستووا في الجزاء في الدنيا والآخرة . لان المؤمنين مستقيموا الفطرة ، متجهون الى الله ، عاملون على منهاجه القويم . والفاسقين منحرفون ، شاردون ، جاحدون ، مفسدون في الأرض ، لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع منهج الله للحياة ، وقانونه الأصيل .

فلا عجب اذن ان يختلف طريق المؤمنين والفاسقين في الآخرة .

---

(١) مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣٢

وان يلقى كل منهما الجزاء المناسب لرصيده وما قدمت يداه - اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى التي تؤيهم وتضمهم - نزلاً - ينزلون فيه وهو معد لهم - جزاء بما كانوا يعملون - واما الذين فسقوا فمأواهم النار -- يصيرون اليها ويأوون . ويا سوئه من مأوى -- كلما ارادوا ان يخرجوا منها أعيدوا فيها -- وهو مشهد فيه حركة المحاولة للفرار والتخلص من ألم النار ، لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم ، وتضيق عليهم ، حين ليس لها مخرج . ردوا اليها بالمقامع . واضافة الى ردهم : قيل لهم : -- ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون -- تقريع وتأنيب زيادة على الدفع والتعذيب . ذلك مصير الفاسقين في الآخرة . وليسوا مع هـذا متروكين الى ذلك الموعد فالله يتوعدهم بالعذاب في عاجل هذه الدنيا قبل آجل عذاب الآخرة . ولنذيقهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر أما العذاب الاكبر فهو عذاب جهنم في الآخرة . واما العذاب الأدنى فقيل (١) انه المصائب والمحن في الأنفس والاموال في الدنيا . وقيل هو القتل يوم بدر بالسيف (٢) . وقيل هو ما ابتلوا به من الجوع سبع سنين بمكة حتى اكلوا الجيف والكلاب (٣) وقيل هو الحدود (٤) . وقيل : هو عذاب القبر (٥) .

---

(١) عن ابي كعب وابن عباس وابي العالية والحسن

(٢) عن ابن مسعود وقتادة والسدي

(٣) عن مقاتل

(٤) عن عكرمة وابن عباس

(٥) عن مجاهد . وروي ايضاً عن ابي عبد الله عليه السلام . والاكثر في الرواية عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام : ان العذاب الأدنى : الدابة والدجال .

رحمة الله وسعت كل شيء

ولكن مع هذا كله فظلال رحمته يترأى من وراء هذا العـذاب الادنى . فانه تعالى لا يحب ان يعذب عباده اذا لم يصروا على موجبات العذاب ، ولم يستمروا على فعل اسبابه . فهو يوعدهم بالعذاب في الارض - لعلهم يرجعون - وتستيقظ فطرتهم ويردهم ألم العذاب . وما يشاهدونه من عجزهـم لرد المصاب الى الصواب . ولو فعلوا وندموا وتابوا لما صاروا الى مصير الفاسقين الذي رأيناه في مشهدهم الاليم .

فاما اذا ذكروا بآيات ربهم فاعرضوا عنها ، وجاءهم العـذاب الادنى فلم يرجعوا ولم يعتبروا فانهم إذن ظالمون - ومن اظلم ممن ذكر بايات ربه فاعرض عنها - وانهم إذن يستحقون الانتقام في الدنيا والاخرة - انا من المجرمين منتقمون - ومـا اعظمه وأشد هوله من تهديد ، والجبار المتكبر هو الذي يتوعـد هؤلاء الضعاف المساكين بالانتقام الرعيب الرهيب .

والى هنا تنتهي هذه الظاهرة والمسيرة مع مصائر المجرمين والصالحين وعواقب المؤمنين والفاسقين ، ومشاهد هؤلاء ، وهؤلاء . في اليوم الذي يشكون فيه ويستريبون ، ولا يعملون لـه ويهملون . بينما ان غيرهم كانوا به يصدقون وله ينتظرون . وفى تعبيد طريقهم اليه يشتغلون ، وعلى ربهم فى كل امورهم يتوكلون ، الا وهم المؤمنون .

الايمان يستلزم التقوى

كثيراً ما يشيد القرآن بالايمان والمؤمنين ، ويوصيهم مؤكداً بملازمة التقوى ، حيث ان الايمان : القاعدة كما اسلفنا والتقوى : الرقيب السري لملاحقة ما يعترض تلك القاعدة لاضعافها ، ثم انهيارها فهي تكاد ان تكون وسيلة اعلام للمؤمن بحدوث ما يهدد ايمانه كي يأخذ الحذر والاستعداد للمجابهة قال تعالى (١) : [يا ايها الذين آمنوا إتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون] .

وعلى ضوء هـذا التركيز يتولد .. الجامع .. بين المؤمنين المتقين .. او القاسم المشترك .. الاخوة .. وبهذا الجامع والسلاح الفتاك ، والقيادة الموحدة ينتقل بهم الى .. الخط الحربي .. : مصارعة الشرك والالحاد ، والمشركين والمنافقين . فيتابع مطلع الآية القرآنية بقوله : [واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم : اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين إبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون . .

---

(١) آل عمران : ١٠٢

انهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي دورها الشاق العظيم ، فاذا إنهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هناك دور لها تؤديه ، وحق لله توفيه .

ـ الركيزة الأولى -- هي ركيزة الايمان والتقوى . التقوى التي تبلغ ان توفي بحق الله الجليل . . التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر -- يا ايها الذين آمنوا إتقوا الله حق تقاته ، كما يحق له ان يتقى ، وهي هكذا بدون تحديد ، كي تدع القلب مجتهداً في بلوغها ، وكلما اوغل القلب في طريق بلوغها تكشفت له آفاق ، وجددت له اشواق وكلما اقترب بتقواه من الله تيقظ شوقه الى مقام ارفع مما بلغ ، والى مرتبة وراء ما ارتقى . وتطلع الى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام -- ولا تموتن الا وانتم مسلمون -- والموت غيب لا يدري متى يدركه . فمن اراد ان لا يموت الا مسلما فسبيله ان يكون منـذ اللحظة مسلما وان يكون في كل لحظة مسلما -- وهو الاستمرار -- . وذكر الاسلام بعد التقوى يشير الى معناه الواسع : الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاما الى كتابه .

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها . اذ بدونها يكون كل تجمع تجمعاً جاهليا : لا يكون على منهج الله ، ولا تكون قيادة راشدة في الارض للبشرية .

-- واما الركيزة الثانية -- فهي ركيزة الاخوة . . الاخوة في الله على منهج الله ، ولتحقيق منج الله . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعـداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ـ فهي اخوة تنبثق من التقوى والاسلام . .

من الركيزة الأولى. اساسها الاعتصام بحبل الله : أي عهده (١) ونهجه ودينه . وليست الاخوة المطلوبة بمجرد تجمع على أي هدف آخر . ولا بواسطة

(١) قال في الجمع ج ٢ ص ٤٨٢ : قيل في معنى حبل الله اقوال ـ احدها ـ انه القرآن . . ـ ثانيها ـ الاسلام . . ـ ثالثها ـ ماروواه ابان بن تغلب عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال : نحن حبل الله الذي قال : واعتصموا بحبل جميعا .

والاولى حمله على الجميع والذي يؤيده مارواه ابو سعيد الخدري عن النبي (ص) : انه قال : [ايها الناس اني قد تركت فيكم حبلين ان اخذتم بهما لن تضلوا بعدي احدهما اكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، وعترتي اهل بيتي الا وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . .

وقال في ـ الميزان ـ ج ٣ ص ٤١٧ وفي الدر المنثور في قوله تعالى : [واعتصموا بحبل الله جميعاً الآية : اخرج ابن ابي شيبة ، وابن جرير عن ابي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : [كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء الى الارض . . وفي تفسير العياشي عن الباقر (ع) : آل محمد هم حبل الله الذي امر بالاعتصام به فقال : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

وفي الدر المنثور اخرج الطبراني عن زيد بن ارقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اني لكم فرط ، واتكم واردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل : وما الثقلان يارسول الله قال : الاكبر كتاب الله عزوجل سبب طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزالوا ولن تضلوا ، والاصغر عترتي ، وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، وسألت لهما ذلك ربي فلا تتقدموهما فتهلكوا ، ولا =

حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة - واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا - وهذه ألاخوة المعتصمة بحبل الله هي نعمة يمتن الله بها على

تعلموهما فانهما اعلم منكم .

وقد ذكرنا آنفاً : ان حديث الثقلين من المتواترات وان بعض العلماء أنهى رواته من الصحابة الى خمس وثلاثين راوياً .

وفي الدر المنثور -- للسيوطي -- ايضاً : اخرج ابن ماجة ، وابن جرير ، وابن ابي حاتم عن أنس قال قال رسول الله (ص) : [افترقت بنو اسرائيل على احدى وسبعين فرقة ، وان أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار الا واحدة . قالوا : يا رسول الله ومن هذه الواحدة قال : الجماعة . ثم قال : واعتصموا بحبل الله جميعاً . وعلى مجراها روايات أخر .

ولا يخفى على المتأمل : ما اراد صلى الله عليه وآله من لفظ الجماعة : وانهم الذين جمعوا بين القرآن والعترة ، واجتمعوا عليهما ويؤيده قوله (ص) على اثر ذلك : واعتصموا بحبل الله جميعاً ومعلوم ان الاعتصام بالقرآن وحده دون العترة لا يجدي بدلالة أحاديث الثقلين المتواترة .

وفي الدر المنثور اخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله (ص) يأتي على امتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان فيهم من نكح امه علانية كان فى امتي مثله ، ان بني اسرائيل افترقوا على احدى وسبعين فرقة -- ملة -- وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار الا ملة واحدة . فقيل له : ما الواحدة قال : ما أنا عليه اليوم واصحابي .

وفي الصحيحين عن انس : ان رسول الله (ص) قال : ليردن =

الجماعة المسلمة ، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده ، ويتوفق لها من اخلص في تقواه واعتصامه .

= علي الحوض رجال ممن صاحبني حتى اذا رفعوا اختلجوا دوني . فلأقولن : أي رب اصحابي فليقالن : انك لا تدري ما احدثوا بعدك .

ومثله عن ابي هريرة ايضاً غير ان فيه : رهط من اصحابي بدل - رجال - وقد روى ذلك ابن مسعود ، وانس ، وسهل ، وابو هريرة ايضاً وابو سعيد ، وعائشة ، وام سلمة ، واسماء بنت ابي بكر وغيرهم .

وفي الدر المنثور بسنده الى ابن ابي عمر : ان رسول الله (ص) قال : [من مات وليس عليه امام جماعة فان موتته ميتة جاهلية] . وفي آخر : من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية .

وهذه الاخبار تعطي بصراحة ان الناجين من الامة القليل ، وان الهالكين هم الكثير . ويؤيده ايضاً ماعن جامع الاصول من الترمذي ، وسنن ابي داود عن النبي (ص) : [لا تزال طائفة من أمتي على الحق] ومعلوم ان الطائفة هي القليلة بنسبة غيرها .

ومن هذا يفهم ما اشرنا اليه سابقاً من ان المراد من الجماعة الواردة كثيراً في الاحاديث النبوية : من اجتمعوا على التمسك بالقرآن والعترة معاً وجمعوا بالاخذ منها كليهما ، وان القرآن هو الحبل الممدود والعترة هم المبينون له والموضحون لمعانيه . لا الجماعة بمعنى الكثرة . والا لعارض الاحاديث القائلة : كلهم في النار الا فرقة واحدة . .

ووراء هذا كله مافي كتاب - الطرف - عن كتاب الوصية - ونقله في البحار ج ٢٢ : ان رسول الله (ص) لما حضرته الوفاة دعا الانصار وقال : يا معشر الانصار قد حان الفراق وقد دعيت وانا مجيب الداع ثم مدحهم على مواساتهم . الى ان قال : وقد بقيت واحدة وهي =

وهنا يذكرهم سبحانه كيف كانوا في الجاهليـــة ـ اعداء ـ . . وما كان اعدى من الآوس والخزرج في المدينة احد . وهما الحيان العربيان في يثرب . يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة ، وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعاً . .

ومن هنا تجد اليهود مجالها الذي لا تعمل الا فيه ، ولا تعيش إلا معه . فألف الله بين قلوب الحيين من العرب ـ بالاسلام ـ وما كان الا

= تمام الامر وخاتمة العمل ، قالوا : يارسول الله فأبن لنا بمعرفتها . . فقال رسول الله (ص) لهم : كتـاب الله واهل بيتي ، العمل مع كل واحد منهما مقرون بأخرى ، اني ارى ان لا افتراق بينهما جميعاً ، لو قيس بينهما بشعره ماانقاست ، من أتى بواحدة وترك الاخرى كان جاحداً للأولى ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا ـ أي لا يقبل الله منه عملا لا مستحبا ولا واجبا ـ . .

الى ان قال : ايها الناس افهمتم ، الله الله في اهل بيتي مصابيح الظلم . . قال ثم جمع المهاجرين وقال لهم : ايها الناس اني قد دعيت وانا مجيب دعوة الداع . . واني اعلمكم اني قد اوصيت الى وصيي ، ولم اهملكم اهمال البهائم ، ولم اترك من امور كم شيئاً . . الى ان التفت الناس وهو مغضب فقال : ايها الناس اسمعوا وصيتي من آمن بي وصدقني بالنبوة ، واني رسول الله ، فأوصيه بولاية علي بن ابي طالب ، وطاعته والتصديق له ، فان ولايته ولايتي وولاية ربي .

لقد ابلغتكم فليبلغ الشاهد الغائب ان علي بن ابي طالب هو العلم فمن قصر دون العلم فقـد ضل ، ومن تقدمه تقـدم الى النـار ، ومن تأخر عن العلم يميناً هلك ، ومن اخذ يساراً فقد غوى وما توفيقي إلا بالله فهل سمعتم ، قالوا : نعم .

الاسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة . وما يمكن ان يجمع القلوب بحيث تذوب الى جانبها الاحقاد التاريخية الا الاخوة في الله ، والا الاعتصام بحبل الله ، والا التجمع تحت لواء الله الكبير الجامع وغير المفرق - واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا - ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في انقاذهم من النار التي كانوا على وشك الوقوع فيها - وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها - هذه هي الركيزة الثانية .

والنص القراني بأدبه وبلاغته يعمد الى قعر المشاعر والروابط - القلب - فلا يقول : فألف بينكم . انما ينفذ الى المكمن العميق : فألف بين قلوبكم . وقد ذكر محمد بن اسحاق (١) وغيره : ان هذه الآية نزلت في شأن الآوس والخزرج . وذلك ان رجلاً من اليهود مر بملاء من الآوس والخزرج فساءه ماهم عليه من الاتفاق والألفة فبعث رجلا معه وامره ان يجلس بينهم ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم - بعاث - ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوسهم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم ، وطلبوا اسلحتهم ، وتوعدوا الى - الحرة - . فبلغ النبي (ص) ذلك فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول ، - أبدعوى الجاهلية وانا بين ظهركم - وتلا عليهم هذه الآية . فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح . وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه في الآية : - كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون - .

فهذه صورة من جهد اليهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه لقيادة البشرية فى طريقه . .

---

(١) في السيرة .

هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده اليهود للجماعة المسلمة كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله . على ان مدلول الآية اوسع مدى من هذه الحادثة . فهي تشيء مع ما قبلها في السياق ومابعدها بانه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق الصف المسلم في المدينة وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل .

والتحذيرات القرآنية المتوالية من اهل الكتاب ، ومن الاستماع الى كيدهم ودسهم ومن التفرق كما تفرقوا هم . . تشير الى ان دأبهم ذلك في كل زمان ، وهو عملهم اليوم ، وغداً في الصف المسلم في كل مكان . هذا ما تتركز عليه الجماعة المسلمة .

اما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على هاتين الركيزتين لكي تنهض بها . هذه الوظيفة الضرورية لاقامة منهج الله في الارض ، ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر . . هـذه الوظيفة التي انشئت الجماعة المسلمة لاجلها بيد الله وعلى منهجه : فهي التي تقرها الآية التالية : ـ ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ـ . . فلابد من جماعة تدعو الى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . لابد من سلطة في الارض تدعو الى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . والذي يقرر انه لابد من سلطة هو مدلول النص القرءاني ذاته فهنالك ـ دعوة الى الخير ـ وهذا مما يمكن ان يقوم به غير ذي سلطان ولكن هناك ايضاً امر ، بالمعروف ونهي عن المنكر وهما لا يقوم بهما الا ذو سلطان .

هـذا هو تصور الاسلام للمسألة . . انه لابد من سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله ، وحبل الاخوة في الله . . سلطة تقوم على

هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر ، وتحقيق هذا المنهج يقتضي ـ دعوة الخير ـ يعرف منها الناس هذا المنهج . ويقتضي سلطة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتطاع . . والله يقول : [وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله] . فمنهج الله في الارض ليس مجرد وعظ وارشاد وبيان ، وانما هو شطر ، ومقدمة هي صغرى .

اما الشطر الآخر والمقدمة الكبرى التي بضمها الى الصغرى ينتج المطلوب ، فهو القيام بسلطة الامر والنهي على تحقيق المعروف وايجاده ونفي المنكر واعدامه من الحياة البشرية ، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من ان يعبث بها كل ذي هوى ، وكل ذي شهوة ، وكل ذي مصلحة . وضمانة هذه التقاليد الصالحة من ان يقول فيها كل امرء برأيه وتصوره زاعماً ان هذا هو الخير والمعروف ، والصواب .

الاماميه والامامة

وهذه السلطة العادلة الحاكمة المنفذة هي ما يعنيها ـ الامامية ـ : من ضرورة وجود امام عادل في كل زمان مستندين في ذلك اضافة لما قدمناه من حكم الضرورة الطبيعية ، الى احاديث عديدة ومفصلة في محالها (١) وان الله لا يخلي الارض من حجة . وانها لو خليت قلبت .

---

(١) جاء في الحديث النبوي قوله (ص) [في كل خلف من أمتي عدول من اهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ألا ان أئمتكم وفدكم الى الله فانظروا من توفدون] . في الصواعق المحرقة ص ٩٠ ذخائر العقبي ص ١٧ ينابيع المودة للقندوزي ص ٢٩٧ . الصواعق المحرقة ايضاً ص ١٤١ . هذا =

وما الى ذلك . غير ان الذي يدعم تلك السلطة همـا الركيزتان فاذا عدمتا : وذاب الايمان ، وتبدلت الاخوة بالفرقة والنفاق والعداء ، تغيب تلك الحجـــة - الامـام - المعصوم والتبعـة تكون على من سبب غيبته .

ومن ثم فان الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف ليس بالسهل ولا اليسير اذا ما نظرنا الى طبيعته ، والى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم ، وكبريائهم . وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود ، وفيهم المسترخي الـذي يكره الاشتداد ، وفيهم المنحل الذي يكره الجد ، وفيهم الظالم الذي يكره العـــدل ، وفيهم المنحرف الـذي يكره الاستقامة ، وفيهم وفيهم . . ولا تفلح الأمة والبشرية الا ان يسود الخير ، والا ان يكون المعروف حقاً والمنكر منكراً

= من طرق السنة . وامـا من طرق الشيعة فكثير وممن رواه الشيخ الصدوق في كتابه - كمال الدين - ج ١ ص ٣٣٠ عن ابي عبد الله (ع) عن آبائه ان النبي (ص) قال : [ان في كل خلف من امتي عدلاً . بدل - عدول - من اهل بيتي ينفي عن هـذا الدين تحريف الغالين . بدل - الضالين - وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وان أئمتكم وفودكم بدل - وفدكم - الى الله فانظروا من تقتدون . بدل - من توفدون - في صلاتكم ودينكم . ويعجبني قول - الغزالي - في موضوع الأئمة الاثني عشر عليهم السلام : ان الشريعة اصل والملك حارس ، ومالا اصل له فمهدوم ومالا حارس له فضائع . وملوك الشريعة وحراسها بعـد النبي (ص) هم الائمة الاثنا عشر عليهم السلام . في كتـاب - النظام السياسي في الاسلام ص ١١ .

وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع .

فاذن لابد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين : الايمان بالله والاخوة في الله . لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الايمان والتقوى ثم بقوة الحب والالفة . وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة ، وكلفها به هذا التكليف ، وجعل القيام به شريطة الفلاح ، فقال عن الذين ينهضون به : [اولئك هم المفلحون] . هذا ما يخص الجزء الايجابي .

واما ما يخص الجزء السلبي وهو التفرقة فيعود السياق ويحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف ، وينذرها عاقبة الذين حملوا امانة منهج الله قبلها من اهل الكتاب ثم تفرقوا واختلفوا فنزع الله الراية منهم وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية . . فوق ما ينتظرهم من العذاب . ـ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فقال سبحانه : [ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون] .

فيرسم لنا مشهداً من المشاهد الحيوية الحقيقية يتمثل في آدميين احياء في وجوه وسمات . هذه وجوه قد اشرقت بالنور وفاضت بالبشر فابيضت من البشر والبشاشة وهذه وجوه كمدت من الحزن واغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة . وليست مع هذا متروكة الى ماهي فيه . ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب : [أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون] . هكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار على طريقة

القرآن بفنه الوحيد ، وبأدبه الفريد ، وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من التفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الالهية الخالدة الكريمة بالايمان والأئتلاف .

البرهان الفنى لمصاديق الايمان

ثم يعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين بما يتمشى مع خطوط السورة العريضة ، والذي يتضمن صدق الوحي والرسالة . وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة . والعدل المطلق في حكم الله في الدنيا والآخرة . وملكية الله المفردة لما في السموات وما في الارض ، ورجعة الامر اليه في كل حال : [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً للعالمين ، ولله ما في السماوات وما في الارض ، والى الله ترجع الامور] . .

وانما يريد الله بترتيب الجزاء على الاعمال : ان يحق الحق ، وان يجري العدل ، وان تمضي الأمور بالجد اللائق بجلال الله . . لا الظلم للعالمين ، وكما يدعي اهل الكتاب : انهم لن تمسهم النار إلا اياماً معدودات .

كرامة هذه الامة

من ربها لو احتفظت بها

بعد هذا يصف سبحانه الامــة المسلمة لنفسها ، ليعرفها مكانها وقيمتها ، لئلا تجهل قدرها ، وتتسامح في اداء مهمتها ، فيقول : [كنتم خير امة اخرجت للناس] . ولا يخفى مافي التعبير - با خرجت - بالبناء للمجهول من إلفات الانظار الى ظلمات الغيب ، وما وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ماوراءه الا الله ، وانكم اخرجتم من ذلك العلم الغيبي الازلي ، وان لكم دوراً خاصاً ، وحساباً خاصاً ، ومقاماً خاصاً وانكم من الذخائر المعدة من الازل : [كنتم خير امة اخرجت للناس] للقيام بهذه المهمة : [تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله] مبيناً العلة وسبب الاختصاص والخيرية .

وهذا ما ينبغي ان تدركه الامة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف انها اخرجت لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة بما انها خير أمة ، والله يريد ان تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الارض .

ومن ثم لا ينبغي لها ان تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية والضلال انما ينبغي لها ان تتلقى من كتابها وهي التي تعطي غيرها بما لديها من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح والعلم الصحيح .

هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها ، ومقامها ، وتحتمه عليها غاية وجودها . واجبها ان تكون في الطليعة دائماً وهي المتبوعة لا التابعة وان تكون هي في مركز القيادة . ولهذا المركز تبعاته ، فهو لا يؤخذ

إدعاء ولا يسلم لها به الا ان تكون هي اهلا له . . وهي بتصورها الاعتقادي ، وبنظامها الاجتماعي اهل له . فيبقى عليها ان تكون بتقدمها العلمي ، وبعمارتها للأرض قياما بحق الخلافة اهلاً له كذلك . .

ومن هذا قد تبين ان المنهج الذي تقوم عليه هـذه الامة يطالبها بالشيء الكثير ، ويدفعها الى السبق في كل مجال . . لو انها تتبعـه وتلتزم به ، وتدرك مقتضياته وتكاليفه . وفي اول مقتضيات هذه الوظيفة ان تقوم على صيـانة الحياة من الشر والفساد . . وان تكون لها القوة التي تمكنها من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وهذا وان استعصى عليها احياناً وتعذر عليها القيام به ازماناً فهي ليست معذورة تحليلياً لانها هي التي سببت ذلك . . بذوبان الايمان من قلوبها ، وايجاد الفرقة بين افرادها .

ولو التزمت الركيزتين : الايمان والتقوى والاخوة والمحبة فيما بينها لتأتت لها قوة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولسارت الحياة كما اراد الله للعباد .

وقد سبق في السياق : الامر التكليفي للجماعة المسلمة ان ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة الى الخير ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر - ولتكن منكم امة الآية . . اما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها على نحو الاخبار ، لا الانشاء - كنتم خير امة اخرجت للناس الآية . . - ليدلها على انها لا توجد وجوداً حقيقياً الا ان تتوافر فيها هذه السمة الاساسية التي تعرف بها في المجتمع الانساني . فامـا ان تقوم بالدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الايمان بالله - فهي موجودة ومسلمة ، واما ان لا تقوم بشيء من هذا فهي غير

موجودة وغير متحققة فيها صفه الاسلام (١) .

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة . .. منها .. قوله تعالى : [قالوا آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا] . (٢) وفي السنة كذلك طائفة مقبولة الاسانيد من اوامر الرسول (ص) وتوجيهاته نقتطف بعضها : فعن ابي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان (٣) وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : [لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم عليهم السلام] ثم جلس وكان متكأ فقال : [لا والذي نفسي بيده حتى تطأروهم على الحق طأراً] . أي تعطفوهم وتردوهم (٤) وعن حذيفة قال : قال رسول الله (ص) : والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، او ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعون فلا يستجيب لكم] (٥) وعن عرس بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله (ص) [اذا عملت الخطيئة في الارض كان من

---

(١) أي ان وجود هذه الأمة بدون صفتها كعدم وجودها لان المراد من وجودها : الوجود الحقيقي لا المجازي .

(٢) الحجرات : ١٤

(٣) اخرجه مسلم

(٤) اخرجه ابو داود والترمذي

(٥) اخرجه الترمذي

شهدها فانكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها] (١) وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : [ان اعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر] (٢) وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : [سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام الى سلطان جائر فامره ونهاه ، فقتله) (٣) وكلها تقرر اصالة هذه السمه في المجتمع المسلم ، وتقرر ضرورتها ايضاً . وهي الى جانب النصوص القرءانية ، زاد ، نحن عنه غافلون عن قيمته ، وعن حقيقته (٤) .

وفي نهاية هذا الدرس من توجيه الجماعة المسلمة للنهوض بتكاليفها وعدم السلوك بمسالك اهل الكتاب من الاختلاف والتفرق والانحراف يجيء التحذير في صورة شاملة خالدة كقاعدة ، ما نزال نرى مصداقها في كل وقت ، وفي كل ارض صورة رسمها هذا القرآن الحي ، مصدر العلوم والتعاليم فغفل عنها اهل هـذا القرآن . فاصابهم من غفلتهم ، وما يزال يصيبهم الشر والاذى والمهانة . . ما داموا غير متحذرين مما حذروا . بجيء التحذير -- بقوله تعالى : [يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم قـد بدت البغضاء من افواههم ، وما تخفي صدوركم اكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون] . . الآية .

انها صورة كاملة السمـات ، ناطقة بدخـائل النفوس ، وشواهد

---

(١) اخرجه الترمذي

(٢) اخرجه ابو داود والترمذي

(٣) رواه الحاكم ، والضياء عن جابر

(٤) يراجع في هذا الموضوع بتوسع كتاب ـ قبسات من الرسول ـ لمحمد قطب . فصل : [قبل ان تدعوا فلا اجيب] .

الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة ، والانفعالات الظاهرة ، التي ينخدع بها ضعاف المسلمين ، او ضعاف الايمان واليقين . فالكائدون وان تظاهروا بالمحبة والمودة خداعاً فهم لا يريدون الا الاعنات ، ونثر الشوك في الطريق ، والدس بمعسول الكلام . فالحذر كل الحذر من امثال هؤلاء .

علي (ع) والقرآن

القرآن نزل على نبينا محمد (ص) مباشرة ، وبدون وسيط من البشر فهو العالم بكل خصائصه ، ومهام مواضيعه ، فقد اخذ ذلك من ربه بواسطة امين الوحي - جبرئيل -- وقد ثبت انه (ص) قال : [ماعلمني ربي شيئاً الا وقد علمته علياً . . فهو خزانة علم النبي (ص) . ولذا ترى كلامه بجاريا للقرآن . وحتى قيل فيه : ان كلامه (ع) تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . وقيل فيه : انه القرآن الثاني .

وحيث ان التقوى كانت بهذه المثابة ، وكانت العناية القرآنية بها بهذا المقدار ، كانت وصاياه (ع) بها على نفس المجرى في فقرات خطبه (ع) -- منها -- قوله (١) : [فان تقوى الله مفتاح سداد ، وذخيرة معاد . .] فان التقوى لما كانت شرعاً عبارة عن اتخاذ الوقاية من العقوبات ، والحذر من الموبقات . وبها يحصل التجنب من المعاصي ، والاتيان بالواجبات المتصفة بالصلاح والسداد لا جرم استعار لها المفتاح الذي يوصل الى مافي البيت . قال تعالى : [يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا ، يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن

(١) منهاج البراعة ج ١٤ ص ٤١٤

يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً] (١) فامر سبحانه اهل الايمان والتوحيد بالتقوى باجتناب معاصيه ، وفعل واجباته ، وبالقول السديد وهو الخالص من شوائب الكذب الموافق ظاهره لباطنه ، وبريئاً من الفساد والازدواج .

ثم قال عليه السلام : [ونجاة من كل هلكة] أي سبب للنجاة من المهلكات الدنيوية لأدائها الى الاستقامة في كل الامور والاحوال . قال الصادق عليه السلام : [من اخرجه الله من ذل المعصية الى عز التقوى اغناه الله بلا مال ، واعزه بلا عشيرة ، وآنسه بلا بشر (٢) وسبب للنجاة من المهلكات الآخروية ايضاً . فقد قال تعالى : [مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها انهار من ماء غير آسن ، وانهار من ماء لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . . الآية] (٣) وذلك لعدم فعله الحرام وعدم تركه الواجب . قال تعالى : [ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب (٤) أي مخرجاً من كل كرب في الدنيا والآخرة . وعن النبي (ص) (٥) انه قرأها وقال (ص) : مخرجا من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، وشدائد الآخرة .

وقال (ص) : من اتقى الله عاش قويا ، وصار في بلاد عدوه آمناً .

وقال عليه السلام في وصف التقوى ايضا : [بها ينجح الطالب]

(١) الاحزاب ٧٠

(٢) أي من غير انيس من البشر ، لأن الله تعالى مؤنسه

(٣) محمد : ١٧

(٤) الطلاق : ٢

(٥) منهاج البراعة ج ١٧ ص ١٢٧

أي يفوز بمطلبه . قال تعالى : [ان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب] (١) وقال رسول الله (ص) : [خصلة من لزمها اطاعته الدنيا والآخرة ، وربح الفوز بالجنة . قيل وما هي يارسول الله قال : التقوى . من اراد ان يكون اعز الناس فليتق الله عز وجل ثم تلا : [ومن يتق الله . . الآية] وقال عليه السلام (٢) من فقرات خطبة له : [عباد الله ان تقوى الله حمت اولياء الله محارمه ، والزمت قلوبهم مخافته ، حتى اسهرت لياليهم ، واظمأت هواجرهم ، فاخذوا الراحة بالنصب ، والري بالظمأ ، واستقربوا الأجل ، فبادروا العمل ، وكذبوا الامل فلاحظوا الاجل] .

تعريف التقوى

التقوى ، والمتقي ، في الشرع : هو الذي يتقي بصالح اعماله عذاب الله . وعن النبي (ص) انه قال : [انما سمي المتقون . لتركهم مالا بأس به حذراً من الوقوع فيما به بأس] (٣) . وسئل الامام الصادق عليه السلام عن التقوى بعد ما جرى اختلاف في معناها فقال : [ان لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث امرك] . وقال عمر ابن عبد العزيز : التقي ملجم ، كالمحرم في الحرم . وسأل عمر بن الخطاب كعب الاحبار عن التقوى فقال : هل اخذت طريقا ذا شوك فقال : نعم . قال : ما عملت قال : حذرت وشمرت . فقال كعب

---

(١) المصدر السابق ص : ٥٠

(٢) منهاج البراعة ج ٨ ص ٥١

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٦ ص ٢٣٠

الاحبار : ذلك التقوى . ونظمه بعض الشعراء فقال :

خل الذنوب صغيرها　　وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق ار　　ض الشوك يحذر مايرى
لا تحقرن صغيرة　　ان الجبال من الحصى

الايمان والعلم

وحيث قد علم من مدخل الكتاب : اساسية الايمان ، والتقوى لكل عمل اسلامي او نظامي ، وان الفضائل ، كل الفضائل المكامل منه وان المصداق الاول والرئيسي له هو الايمان بالله جل شأنه . وذلك متوقف على العلم به تعالى ، وبصفاته اولا ، وباحكامه وحدوده ثانياً .

فالعلم اذن مساوق للايمان ان لم يكن سابقه ، وهو المحصل لكامله . ولهذا لزم ان نجعل مبحث العلم ثاني مواضيع كتابنا هذا .

وقد ذكرنا نبذة من مدارك فضل العلم وآثاره ، والحث على طلبه وان طلبه فريضة . . في كتابنا .. الآيات الساطعة (١) .

ولنذكر ما يحصل به التيمن من الآثار في ذلك ، ثم نعرج على ماوضعنا كتابنا له : من بيان علوم القرآن ، ومعارفه بذكر بعض الآيات المتضمنة لزوم طلب العلم وتحليلها وفق سلوكنا فيه .

فعن النبي (ص) عندما سئل عن افضل الاعمال انه قال : [العلم بالله ، والفقه في دينه] . وكررها مراراً . فقال السائل : يا رسول الله اسألك عن العمل فتخبرني عن العلم . فقال (ص) : [ان العلم ينفعك

---

(١) الجزء الثاني ص ٣٦٢ ط ـ النجف ـ .

معه قليل العمل ، وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل] (١) . وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال : [لو يعلم الناس مافي طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج ، وخوض اللجج ، ان الله اوحى الى دنيال : ان أمقت عبيدي الى الجاهل المستخف بأهل العلم التارك للاقتداء بهم وان احب عبيدي الي التقى الطالب للثواب الجزيل ، اللازم للعلماء ، التابع للحكماء ، القائل عن الحكماء . وعن ابي حمزة الثمالي بسنده الى امير المؤمنين عليه السلام انه قال : [اعلموا ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وان طلب العلم اوجب عليكم من طلب المال فان المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم وقد ضمنه وسيفي لكم والعلم مخزون عند اهله وقد امرتم بطلبه فاطلبوه] . وقال (ع) : اقل الناس قيمة اقلهم علماً (٢) .

قال تعالى : [والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون] (٣) وقال تعالى : [وهو الذي انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون] (٤) .

وقال تعالى : [ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلاً ما تشكرون] (٥) . وقال تعالى : [وجعلنا لهم سمعا وابصاراً وافئدة] (٦) .

---

(١) الجزء الثاني ص ٣٧٢

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٠

(٣) النحل : ٨١

(٤) المؤمنون : ٨١

(٥) السجدة : ٩

(٦) الاحقاف : ٢٦

نجد ان الآيات تهدف الى معان متقاربة تلتقي في معنى رئيسي : هو منته جل شأنه على العباد بموهبة وسائل الادراك . رغم تكرارها في عدة من السور . مما يعطينا ظاهرة عن ان الله سبحانه اراد إلفات انظارنا الى عظيم هـذه النعم ، وجليل فوائدها ، وسعة آثارها ، وانها الاخذة بيد الانسان الى مرحلة الكمال ، والمنتهية به الى اسمى الرتب وارفع الدرجات ، لو انه استخدمها فيما خلقت لأجله ، واستعملها بما وضعت له .

فالتأكيد منه تعالى على تفضله بهذه النعم ، والحث على لزوم شكرها مع انه مبدأ الفيض لعديد النعم مما سواها ، والمتوحد في هبتها . هو التلميح الى أهميتها ، وانها من اصول النعم ، ومقومات الحياة ، وبها يتسع مجال فعالية الانسان بالنسبة الى ما هو محروم من كمالها من سائر الكائنات . إتساعاً لا يتقدر بقدر ، كما هو المشاهد من التقدم الفكري يوماً بعـد يوم ، فيدرك خيره وشره ، ونافعه وضاره ، وعلى الأخص - نعمة العقل - فبه يرقي الانسان الى مافوق المحسوسات ، ويغور مفكراً في النظريات ، وينفذ بسلطان التدبر في اقطار الارض والسماوات .

وانما خص سبحانه هذه الحواس بالذكر مع انعامه بسائر الحواس الأخرى : كالشامة ، والذائقة ، واللامسة ، وكالحواس الباطنية . لانها الاصول لبقية الحواس ، والاسس لمعظم الفوائد كما اسلفنا .

وحيث ان -- قرآن العلوم -- يهدف بتركيب واحد الى عدة امور . قال في بيان ذلك : -- اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً -- أي انكم في هذه المرحلة من الايجاد كنتم على ابسط شيء كالحيوانات لا تعلمون ولا تدركون أي امر من الامور .

وان العلم الذي يدعيه الانسان ويتطاول به ، ويريد ان يختبر به

أمر الغيب ، هو علم حادث مكتسب حيث ان مولد كل عالم وكل باحث مهما بلغ في علمه ، فمخرجه من بطن أمه كان على حال لا يعلم شيئاً ، وما كسبه بعد ذلك من علم وادراك انما هو من مواهب الله تعالى بالقدر الذي اراده للبشر ، وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب الارضي في المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود ، بعد ان كانوا في سر الحياة المكنون في بطون الارحام .

.. هذا اولا .. و .. ثانيا .. لتعلموا انكم فيما بينكم بهذه المرحلة متساوون غير متفاضلين ، لا ميزة بينكم ، ولا فارق لبعضكم عن بعض ثم قال عظمت قدرته : .. وجعـــل لكم السمع والابصار والافئده .. والمراد بالافئدة ، وكذلك القلوب حيث عبر بهما : هو مجموع مدارك الانسان الواعية المعبر عنها بالعقول .

وان كان الفؤاد هو القلب ، ومخزن وحوض توزيعه . لكن العرب يومئذ تعني بالفؤاد : العقل ، فجريا على لغتهم عبر عن العقول بالأفئدة وذلك في القرآن كثير .

والمعنى انه تعالى اوجـد لكم اسباب التمييز والانفصال عن الحيوانات .. اولا .. وما به التمايز في الفضيلة فيما بينكم .. ثانيا .. ولا يخفى مافي ذلك من البعث على طلب العلم . فمن عمل بتلك المواهب حق عملها ، وأدى بها تمام وظائفها ، وقام بكامل شكرها ، وعلى الاخص موهبة العقل .

كان مثال الانسانية الحقة ، ومنظار الملكوتية ، وحاز على الفضيلة ومن كان على العكس من ذلك صار مثال الحيوانية ، ونموذج البهيمية واتصف بالرذيلة .

هذا مايعطيه قوله تعالى : .. وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة ـ .

واما علاقة قوله : .. قليلا ما تشكرون - وقوله : .. لعلكم تشكرون .. بما تقدمها . فانها تعطي ان على هذه الجوارح .. ضريبة .. ينبغي ان تؤدى . واداؤها هو شكر معطيها . وليس الشكر القولي فقط . فانه وان كثر لا يجدي . مالم يقترن بالشكر العملي : باستخدام السمع فيما يرضي الله واستخدامه فيما يقرب الى الله زلفى : من الانصات الى تلاوة القرآن الكريم ، بتدبر . والاحاديث الشريفة بتفهم .

والمواعظ الموجهة الصادرة من اهلها بتطبيق وعمل ، وما الى ذلك من مكاسب السمع الرفيعة . وكذلك البصر فيكفه عن المحرمات .. اولا .. ويبصر به عجائب مخلوقات الله المتناسقة مع طبيعة هذا الكون - ثانياً .. ثم يأخذ العبرة لنفسه من بديع تكوينه ، وبليغ صنعه ، ودقيق نظمه ، وأحكامه . وفي مقدمة ذلك : رؤيته لجرم نفسه ، وما اودع فيه . [ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم] (١) وقد ورد : [ان من عرف نفسه فقد عرف ربه] .

واما العقل وهو الموهبة العظمى ، والنعمة الكبرى . لانه منبع العلم ، ومصدر الادراك والفهم ، ولولاه لما ميز الانسان عن الحيوان كما اسلفنا . فشكر نعمته باستخدامه في طلب العلم ، وأكتساب المعارف الالهية ، ودقائق الحكمة الربانية .

ثم الاستدلال بتلك الطاقات والمدارك ، على الحق ووجود الخالق وتوحده في ايجاده ، وتفرده في ابداعه ، واتصافه بكل صفات الكمال ونزاهته عن كل مالا يليق بشأنه سبحانه وتعالى . وعلى اثر ذلك يلتزم بواجب طاعته ، وعدم الخروج عن حدوده ، وينطبع على شكر نعمته .

ثم ان العلم قد يستفاد من طريق العقل المجرد ، دون تدخل

---

(١) التين : ٥

الحواس ومعاونتها له في ذلك . كالعلم بحسن الطاعة وقبح المعصية ، وكامتناع اجتماع النقيضين ، ونظائرها من المستقلات العقلية . وقد يستفاد من طريق الحواس كالتجربيات وامثالها . غير ان الحواس في استنباطها لتلك المعلومات لابد لها وان تستوحي من العقل ، ولا مناص لها عن مراجعته واستفتائه . فهي كوسائل وآلات تشترك مع العقل في الحصول على تلك المعلومات . فالنسبة بين الحواس والعقل في مقام الادراك هي العموم والخصوص المطلق في اصطلاح المناطقة اذ كل ما تدركه الحواس فالعقل شريكها فيه ، وليس كل ما يدركه العقـــل تشاركه هي فيه . لانفراده عنها بالنظريات المجردة .

والخلاصة ان الانسان اذا جرد من العقل عاد حيوانا كما كان قبل موهبة العقل له ، بل هو من ابسط الحيوانات ، اذ يضعف عن مقاومة أبسطها واصغرها فان الخلية اذا دخلت في جسمه قتلته . وكما قال تعالى عنه : [يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقدوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز] (١) .

وقد ورد : ان المنصور الدوانيقي سأل الامام الصادق (ع) يوماً عن حكمة خلق الذباب على اثر تضجره منه . فقال (ع) : ليرغم به أنوف الجبابرة .

ولذا قد مثل امير المؤمنين عليه السلام الانسان للانسان ، واعطاه حقيقة ذاته ، وواقع نفسه ، ومنتهى ضعفه باوجز لفـظ وأوفى معنى فقال : [تؤلمه البقة ، وتنتنه العرقة ، وتقتله الشرقة] .

(١) الحج : ٧٣

أتراه عليه السلام قد بالغ في ذلك ، ام قد اعطانا واقعنا ، وما نحن فيه بالعيان ، فهل قصر هذا او ذاك من أعنتنا ، او اضعف شيئاً من جماحنا ، وازال عنا بعض غرورنا ، أم نحن ، نحن ، وانما هي ألفاظ ضمن اصوات تدخل في اذن وتخرج من اخرى . ولكن سيأتي يوم الندم حيث لا ينفع الندم . . [ويوم يعض الظالم على يديه] (١) يوم يقول المذنب : [رب ارجعون لعلي اعمل صالحاً فيما تركت] (٢) ويكون جوابه : [كلا] .

عودة على بيان

بعض معاني الآية من علوم القرآن

[اخرجكم من بطون أمهاتكم] فقد أكد سبحانه على ان تكوينكم وايجادكم خارجاً كان باخراجكم من بطون الامهات رغم انه القادر على الايجاد من دون ذلك كما خلق آدم (ع) من التراب ، وبقوله : [كن فيكون] نعم كان ذلك بهذا النحو من الايجاد لأمور .

فوائد ايجاد الانسان بطريق الولادة

ـ احداها ـ : بيان الاسباب وانه تعالى اوجد الاشياء بأسبابها وهيأ لكل موجود معداته ، وان كان سبحانه العلة الاولى لكل ذلك من المسببات واسبابها . تعليماً للعباد كي يتوخوا ذلك في اعمالهم .

---

(١) الفرقان : ٢٩

(٢) المؤمنون : ١٠٢

.. ثانيتها .. تكوين الاسرة ، وتشكيل البيوت والقبلية ، لفائدة التعاون ، والتآلف ، والتعاطف بمالا يتأتى لو لم يكن الايجاد بذلك النحو : من التزاوج ، واللقاح ، والحمل ، والولادة ، والرضاع ، والحضانة ، وسائر وسائل التربية . وتسبيب الاسرة والبيت للتربية الصحيحة لانحصارها وضيق دائرتها .

واذا تربت الاسرة بنحو كامل ساعدت على صحة التربية العامة ، لاجتماع الاسر بعضها ببعض ، واخذ البعض من الآخر فيصلح النظام وهو مطلوب الملك العلام . وبعكسه فيما اذا تربت الاسرة او البيت على النقص والفساد . ومن هنا قيل : ان البيت .. مملكة صغيرة .. وباصلاحها تصلح .. المملكة الكبيرة .. .

.. ثالثتها .. بيان تعب الام في حملها ووضعها وتحمل المشاق في سبيل ذلك ، لغرض دفع الانسان الى البر بها والعطف عليها ، وشكرها . وقد قرن سبحانه شكر الوالدين بواجب شكره فقال : [ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير] (١) وهي مقدمة صغرى لكبرى ، حيث اذا تمرن الانسان على اعطاء حقوق الوالدين فقط انطبع على اداء حقوق الاسرة مادياً وجوهرياً . ثم يتمشى بانطباعه على طول خط المعاشرة مع سائر افراد مجتمعه . وبذلك ينتظم امر عموم الخليقة .

فالآية تشير بصدرها ، وبذيلها الى تأسيس نظام الكون ببواطنها والا فلو اقتصر في المراد منها على ظاهرها : ـ الخروج من بطون الامهات ـ فقط لكان تعبيراً ساذجاً ، لان كل احد يعرف : انه خرج من بطن امه . . [والله اخرجكم من بطون امهاتكم] جعلنا الله من المتدبرين

---

(١) لقمان : ٤١

لمعاني القرآن ، عاملين بما فيه ، غير مقتصرين منه على جودة اللحن في قرائته ، ونغمة الترتم في تلاوته ، كما انا نبتهل اليه جل شأنه بان يجعلنا ممن تفهم نعمه ، وطبق احكامه ، وادى شكره ، انه سميع مجيب .

القرآن يرمى الى اكثر من هدف

القرآن يدفع بالانسان الى طلب العلم ، ويرغبه في المسابقة عليه من طريق ما انطبع عليه من حب الذات ، ورغبة التقدم ، وهو في ضمن ذلك يرمي الى اكثر من هدف واحد كما هو اسلوبه ، فيقول : [أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر اولو الالباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار ، والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ، الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع] (١) .

ان الآيات تعرض امامنا طبيعتين متناقضتين . -- احداهما -- تتدافع في الارتقاء بصاحبها الى الأعلى ، والارتفاع به الى المقام الأسمى . -- وثانيتهما -- تنحدر وتنخفض به الى الاسفل والى الحضيض . يعرضهما

(١) الرعد : ١٩

سبحانه معرض الاستفهام الانكاري ليهيء من المخاطبين الجواب الفطري بما يكونون ملزمين به بحجة الاقرار والاعتراف . جريا على سنن بلاغة القرآن العزيز .

وقد عبر عن الاولى منهما .. بمن يعلم ان المنزل عليك يا محمد من ربك هو الحق .. حيث ان المؤمنين مبصرون ، والمبصرون عالمون ، فالتعبير يكون رمزاً الى ان العلم هو مصدر الايمان . ففيه حث على طلبه والزام لما فيه من الاخراج عن حال العمى بالجهل الى حال .. البصير .. وكان على هذا بمقتضى المقابلة التعبير عن الطبيعة الثانية .. طبيعة الكفر .. بمثل قوله : كمن .. لا يعلم .. والحال انه عبر عنها بقوله : .. كمن هو أعمى .. إلماحاً الى ان الكفر ناجم عن عدم الابصار وعن العمى واذا كانوا عميا فهم لا يعلمون . ولا مبالغة في ذلك . إذ المراد بالعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطماس قبس المعرفة في الارواح ، وانفصالها عن مصدر الاشعاع .

ولما كان هذا العرض والتخيير في الجواب بمنتهى الوضوح فلربما شكل سؤالا : وانه من يختار العمى والجهالة والكفر على البصيرة والعلم والايمان ، مع هذه المذكرات ، والبيانات فاتبع سبحانه الآية بقوله : [انما يتذكر اولوا الالباب] الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه الى دلائله فتتفكر ، لا العقول التي قد جمدت كل قواها على طلب المادة فقط ، عابدة لشهواتها الحيوانية ، منسلخة عن عن معنى الانسانية .

ثم اخذ تعالى في توصيف المؤمنين بما يكرمهم به ، وبما يشوق الفريق الثاني للالتحاق بركبهم ، والانتظام بصفهم ـ سيرة القرآن في توجيهاته ـ سلباً عن الشر وايجاباً للخير فيقول مبيناً ركيزة الايمان

والقاعدة الضخمة التي يقوم عليها بنيان الحياة السعيدة : [الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق] وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق ، والعهد الاكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الايمان ، والميثاق الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا لايمان .

وعهد الايمان على قسمين : الاول ـ القديم ـ وهو العهد العقلي ، العهد الروحي ، العهد الذري . قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله الصادرة عن الارادة الربانية ، والمأخوذ على الذرية في ظهور بني آدم المبين في قوله تعالى : [وأذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين (١) وهو المعبر عنه في كثير من الاخبار ـ بالخلق الذري ـ وقد ذكرنا نبذاً من ذلك في كتابنا ـ الآيات الساطعة ـ (٢) .

القسم الثاني ـ الجديد ـ وهو العهد الشرعي الذي اعطوه على انفسهم للأنبياء بالطاعة . المنزل على الرسل الذين بعثهم الله تعالى لا لينشئوا عهد الايمان ، لأنه منشأ من قبل الايجاد ، ولكن ليجددوه ، ويذكروا به ، ويفصلوه ، ويبينوا لهم كيفية السلوك القويم لمتطلبات ذلك العهد الى الله تعالى ، والاتصال به سبحانه .

ثم ثنى بتوصيفهم فقال : [والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل] . والمراد به أما مطلق ما أمر الله به ان يوصل من الطاعات والقربات . ـ على قول ـ واما خصوص آل بيت محمد صلى الله عليه وعليهم ولعله اولى : لان بصلتهم يوصل جميع ما أراد الله صلته . حيث ان

(١) الاعراف : ١٧٢

(٢) ج ٣

المراد بصلتهم هو اتباعهم ، والاخذ عنهم ، وتطبيق تعاليمهم -- اوامرهم ونواهيهم -- وامتثالها ، والسير على سنتهم المقتبسة من سيرة جدهم ، دون انحراف والتواء .

وقد ذكرت اخبار : ان ذلك هو جزء الميثاق والعهد الذي المأخوذ على الناس . وقيل : صلة الرحم . وقيل : صلة المؤمنين ، وصلة الرحم داخلة فيها . وعن ابي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله (ص) [بر الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب ثم تلا هذه الآية . .

وروى اصحابنا : ان أبا عبد الله عليه السلام لما حضرته الوفاة قال : [أعطوا الحسن بن الحسين ، وهو -- الافطس -- سبعين ديناراً . فقالت له أم ولد : أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة . فقال لها : ويحك اما تقرأين قوله تعالى : [والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل] .

وروى الوليد بن ابان عن الرضا عليه السلام قال : قلت له : هل على الرجـل في ماله سوى الزكاة . قال : نعم اين ماقال الله : والذين يصلون الآية . .

ثم قال تعالى في توصيفهم : [ويخشون ربهم] في مخالفتهم لعهده المأخوذ عليهم [ويخافون سوء الحساب] حيث ايقنوا برجوعهم اليه جل شأنه بعد الموت ، وآمنوا بمثولهم بين يديه يوم القيامة ، وعلموا انهم مسئولون عن الكبيرة ، والصغيرة ، وهم الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب . واخذوا بارشاد امامهم امير المؤمنين (ع) :

[حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا] .

وهم الموصوفون بقوله (ع) : [فكأنهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون ، وكأنهم والجنة كمن رأها فهم فيها منعمون] . وقيل ان المراد

بسوء الحساب : المداقة فيه ، والاستقصاء لكل صغيرة ، ولكل خلل في الحسنة .

ولقد قال الصادق عليه السلام لبعض شيعته عندما استقصى ديناً له على أخيه : اخبرني عن قول الله : .. ويخافون سوء الحساب .. أتراهم خافوا ان يجور الله عليهم ، او يظلمهم ، لا والله خافوا الاستقصاء والمداقة (١) .

والظاهر ان الفرق بين الخشية والخوف : ان الخشية : تأثر القلب من اقبال الشر أو مابحكمه . والخوف هو التأثر عملاً . بمعنى الاقدام على تهيئة ما يتقى به المحذور وان لم يتأثر القلب .

ولذا قال سبحانه في صفة أنبيائه [ولا يخشون أحداً إلا الله] (٢) فنفى عنهم الحسية من غيره . والحال انه جل شأنه قد اثبت لهم الخوف من غيره في مواضع من كلامه قال تعالى : [فاوجس في نفسه خيفة موسى] (٣) وقال تعالى : [واما تخافن من قوم خيانة . .] (٤) ولعله اليه يرجع ما ذكره الراغب في الفرق بينهما : ان الخشية خوف يشوبه تعظيم . واكثر ما يكون ذلك عن علم .

ولذا خص العلماء بها في قوله تعالى : [إنما يخشى الله من عباده العلماء] (٥) . وكذا قول بعضهم في الفرق بينهما : ان الخوف يتعلق بالمكروه وبمنزلة ان يقال : خفت المرض ، وخفت زيدا ،

(١) في تفسير العياشي
(٢) الاحزاب : ٣٩
(٣) طه : ٦٧
(٤) الانفال : ٥٣
(٥) فاطر : ٢٥

بخلاف الخشية فانها تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه يقال : خشيت الله . وكذا قول بعضهم في الفرق : ان الخشية أشد الخوف لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ، أي يابسة .

التوصيف الثالث بصفة الصبر

وقد ثلث عز إسمه في توصيفهم فقال : [والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم] مادحالهم بذلك لعلمه تعالى بما سيلاقون في سبيل ثباتهم على دينهم ، والوفاء بعهدهم لربهم ، والالتزام بوصايا نبيهم .

وللصبر مقتضيات .. صبر على تكاليف الميثاق ، من عمل وجهاد ودعوة .. وصبر على النعماء والبأساء ، وقل من يصبر على النعمة ويؤدي شكرها فلا يبطر ولا يكفر .. وصبر على حماقات الناس ، وما ينتابه منهم لضروري الاجتماع بهم . والصبر في الآية مطلق يشمل جميع شعبه وقد يجمعها ماورد : الصبر ثلاث .. صبر على طاعة الله . وصبر عن معصية الله . وصبر على المصائب والشدائد .

ولكن مع هذا الاطلاق فهو مقيد بقوله : .. ابتغاء وجه الله .. فصفتهم التي يمدحون بها : صبرهم لوجه الله ، وطلبا لمرضاته ، ومزيد اجره . لا عجبا بالنفس ، ولمدح الناس لهم . ثم قال تعالى : [وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم] منبها جل شأنه على قيامهم بهذين التكليفين رغم دخولهما في عموم اخذ الميثاق كبقية التكاليف . لما لهما من الأهمية لان الصلاة هي الركن الاول لهذا الوفاء بالعهد من الطاعات البدنية ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله تعالى ، ودليل الاعتراف له بالعبودية ، ولانها الصلة بين العبد وربه .

والانفاق بشتى انواعه هو الركن الثاني من الطاعات الماليه ، وبه تكون الصلة بين عباد الله ، والنفقـــة هي التي تجمعهم في الله وهم في نطاق الحيـاة في المجتمع المسلم ، لائقة بالبشر المتعاونين المتضـامنين الكرام على الله .

تنويع النفقة

وقد قسم النفقة الى قسمين فقال : [سراً وعلانية] تعميما لنوعيها ولبيان ان كلا منهما مرغوب ومحبوب حسب مقتضيات الاحوال . فالسر منها حفظاً لخلوص النية من شوب الرياء ، وصونا عن حب السمعة . والعلن منها لدفع شبهة البخل عن النفس ، ومنع حقوق معوزي المجتمع المفروضة لهم من قبل الله سبحانه .

التوصيف بحسن الخلق

ثم قال تعالى في وصفهم : [ويدرأون بالحسنة السيئة] أي يقابلون ما يلاقونه من سيئات المجتمع اليهم وحماقات الناس في التعاملات معهم بالحسنة والصفح .

قال الحسن : اذا حرموا أعطوا ، واذا ظلموا عفوا ، واذا قطعوا وصلوا . واذا انطبع الانسان على ذلك تنكسر فيه صولة النفس ، وتنطفي عنه جذوة الشر ، ويرد نزع الشيطان ، فتندفع النفس الى عمل الخير وفعل الحسنة ، فيكون معنى ـ الدرء ـ على هذا : ما يؤل الى ذلك . وهذا بناء على عدم القول ـ بالاحباط ـ كما هو رأي فريق من المسلمين .

واما بناء على القول به فمعنى الآية : انهم اذا عملوا سيئة تداركوها بعمل حسنة لتقابلها في الميزان ، ولا يكون هناك خسران . ويؤيده الحديث انه (ص) قال لمعاذ بن جبل : [اذا عملت سيئة فاجهد ان تجعل الى جنبها حسنة تمحها] .

ولا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص باحد المعنيين فهو أعم منهما . ولا مانع من التعميم فتشمل الآية حينئذ السيئة من النفس ومن الغير والتوبة ايضاً . حيث قد ذكر : ان معنى ـ الدرء ـ : انهم يدفعون معرة الذنب بالتوبة .

تنبيه لادب القرآن

فقد كان التعبير عن صفات المؤمنين بصيغة المضارع . كقوله : ـ الذين يوفون ، ولا ينقضون ، ويصلون ، ويخشون ويخافون ، ثم عدل الى التعبير بصيغة الماضي بقوله : والذين صبروا ، وأقاموا ، وانفقوا . دون أن يمضي السياق على نسق واحد فيقول : ـ ويصبرون ، ويقيمون ، وينفقون ـ مثلاً .

ولعل الاول كان لقصد الاستمرار على تلك الصفات : من الوفاء وعدم النقص ، والصلة ، والخشية ، والخوف .

واما صفة الصبر لما كانت مما يتوقف على تحققها وثبوتها : التلبس بتلك الصفات . اعتنى بشأنه فعبر عنه بلفظ الماضي الدال على تحققه وكذا الكلام في الصلاة ، والانفاق . اعتناء بشأنهما . لركنيتهما كما أسلفنا .

اما العودة الى التعبير بالمضارع ثانياً بقوله : ـ ويدرؤن ـ فلعله اشارة الى ان الصفات الأولى السابقة على الدرء : وهي : صبروا ،

واقاموا ، وانفقوا . كان المطلوب فيها : العمل الصالح . وهو مقصود أصلي ، والمطلوب بالدرء هو تدارك الخلل الواقع في العمل وهو مقصود بالتبع ، كالمتمم للنقيصة .

ثم يشير سبحانه الى هؤلاء الذين تميزوا بهذه الصفات ، وحازوا على هذه السمات ، فيعطيهم الخلود في الجنات بقوله : [اولئك لهم عقبي الدار] أي يكونون في مقامهم العالي مفسراً له بقوله : [جنات عدن] دار الاقامة والقرار والخلد . وقيل هي الدرجة العليا ، وسكانها الشهداء والصديقون ، وقيل هي مدينه في الجنة فيها الأنبياء والأئمة والشهداء . وقيل قصر من ذهب لا يدخله الا نبي او شهيد او حاكم عدل . [يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم] واكمالاً لسرورهم واتماما للذتهم في هذه الجنات ، يؤلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وازواجهم وذرياتهم .

وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم ، ولكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقي احبابهم . وهي لذة الشعور والارواح في الجنة اضافة الى لذة التطعم في المادة .

او انهم يكرمون بشفاعتهم لهؤلاء ، ومعنى صلاحهم حينئذ : احراز الايمان والعمل بالاركان ولكن مع ارتكابهم لبعض السيئات - خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم] (١) برحمته اولاً وبشفاعة المؤمنين لهم ثانياً . وهذا بناء على ثبوت الشفاعة للمؤمن .

ثم يتابع نعمه عليهم فيقول : (والملائكة يدخلون عليهم] وفي هذا الجو من التجمع والتلاقي تشترك معهم الملائكة في التأهيل والتكريم في حركة رائحة وغادية كما هي عادة اهل الدنيا من التجمع على ابواب

---

(١) التوبة : ١٠٣

العظماء . او ان الملائكة تدخل عليهم لأداء تحية ربهم التي حملوها عنه سبحانه اليهم تكريماً لهم وتقديراً لخالص أعمالهم .

وقوله : [من كل باب] يشير اولاً الى سعة منازل هؤلاء المؤمنين وان لها ابواباً عديدة ، وكثيرة . وثانياً الى كثرة الملائكة فلا يسع دخولهم باب او بابان بل يدخلون من كل باب : [سلام عليكم] التحية منهم او من ربهم : أي سلمكم الله من الاهوال والمكاره بصبركم على شدائد الدنيا ومحنها في طاعة الله : [بما صبرتم] مشير بذلك الى سبب استحقاق هذه النعم المادية والروحية ، وانه هو صبركم . فانه وان شق عليكم لمرارته . وحتى قيل : -- الصبر اشد من القتل -- . فجزاؤه ايضاً عظيم ، واجره جسيم . ولعل تعدد الابواب لتعدد ابواب الصبر ، وانواع الطاعة منهم في الدنيا .

وقد ورد في اجر الصبر ومدح الصابرين : مالا يحصى ، وذكر ذلك في نيف وسبعين موضعاً من القرآن الكريم -- منها -- قوله تعالى : [وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا] (١) فاستحقوا أن يكونوا أئمة ومحل اقتداء للخلق بصبرهم .

- ومنها - قوله : [انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب] (٢) فجعل تعالى اجرهم بغير عد وحساب وذلك لانهم صابرون . وقوله تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) (٣) ومما ورد فيه عن الصادق عليه السلام انه قال : [الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فكما اذا ذهب الرأس ذهب الجسد فكذا اذا ذهب

---

(١) السجدة : ٢٤

(٢) الزمر : ١٣

(٣) الاعراف : ١٣٣

الصبر ذهب الايمان] . وقد فصلنا القول في موضوع الصبر في كتابنا -- الآيات الساطعة -- (١) .

ثم عبر تعالى عن حال غير المؤمنين بطريق المقابلة فقال : [والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمرهم الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض] وقد قابل جميع صفات المؤمنين الباقية : من الصلة ، والخشية ، والخوف والصبر واقامة الصلاة والانفاق والدرء بقوله : ويفسدون في الأرض . وفيه إيماء الى ان تلك الأعمال الصالحة هي التي تضمن صلاح الارض وعمارة الدار على نحو يؤدي الى سعادة النوع الانساني ، ورشد المجتمع البشري فهي ليست لاصلاح الفرد وحده .

وقد بين تعالى جزاء عملهم وعاقبة امرهم بقوله : [اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار] واللعن هو الابعاد من الرحمة ، والطرد من كل كرامة ، وليس ذلك الا لانكبابهم على الباطل ، ورفضهم الحق النازل من الله وليس للباطل الا البوار . ومن هنا قيل : -- دار الظالم بوار -- [وسوء الدار] أي عذاب النار والخلود فيها .

ثم عرج سبحانه على بيان السبب لهذا العمى والجهل ، والباعث على اختيار هذا الشق ، والانخراط في صف هذا الفريق -- فريق العمى -- وانه سبب وهمي لا واقع له ، ولا تأثير له فيما يطلبون ، ويرومون من حب الرئاسة ، والتنافس في الدنيا . فقال تعالى : [الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر] فهو الذي يوسع ويضيق وفق ما يعلمه من صالح العبد فالأمر كله موكول اليه في الأولى والاخرة على السواء ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الارض وهو الذي اعطاهم اياه . ولكنهم فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل -- فرح بطر - فلم يتطلعوا الى الآخرة

(١) ج ٢ باب الصبر

ونعيمها المقيم اضافة الى استيفائهم ما قدر الله لهم من رزق في هذه الحياة [وما الحياة الدنيا الا متاع] أي ما نسبة هذه الى تلك الا قليل ذاهب فهي متاع لا خطر له ، ولا بقاء له . كالقدح ، والقصعة ، والقدر . يتمتع به زماناً ثم ينعدم .

وقد ذكر ذلك جل شأنه على وجه التعجيب . أي عجباً لهم ان فرحوا بالدنيا الفانية ، وتركوا النعيم الباقي .

العلم وأهله

لا زالت كلمات الأنبياء والأوصياء والحكماء والعلماء تتابع كلمات الله في بيان فضيلة العلم تشويقاً لطلبه وترغيباً للتحلي بمعارفه ، بألوان من البيان ، وأساليب من اقامة البرهان . . كقول النبي (ص) : [أنا مدينة العلم وعلي بابها] . مما يعطي نوع اعتزاز بما عنده وعند علي من السعة في ذلك .

وكذلك ما ورد عن ابن عباس (١) انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أعطاني الله تبارك وتعالى خمساً ، وأعطى علياً خمساً . ـ أعطاني جوامع الكلم ـ . وأعطى علياً جوامع العلم . ـ وجعلني نبيـاً ـ . وجعله وصياً . ـ وأعطاني الكوثر ـ . وأعطاه السلسبيل . ـ وأعطاني الوحي ـ . واعطاه الالهام . ـ وأسرى بي اليه ـ وفتح له أبواب السماء والحجب حتى نظر إلي ونظرت اليه .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام (٢) : [العلم وراثة ، والآداب

---

(١) منهاج البراعة ج ٧ ص ٢٦٧

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٧ ص ٩٠

حلل مجددة ، والفكر مرءات صافية .] وأراد (ع) ان كل عالم من البشر انما يكتسب علمه من استاذ يهذبه ويعلمه ، فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الولد المال عن أبيه . حتى قيل : عطية العالم شبيهة بمواهب الله عز وجل لانها لا تنفذ عند الجود ، بل تبقى بكاملها عند مفيدها ومعطيها . وكما قيل : العلم يزكو على النفقة . وكان يقال : الفوائد العلمية تشبه النخل ، بطيىء الثمرة ، بعيد الفساد . وكان يقال : ينبغي للعالم ان لا يترفع على الجاهل ، وان يتطامن له بمقدار ما رفعه الله عليه وينقله من الشك الى اليقين ، ومن الحيرة الى التبيين . لان مكافحته قسوة والصبر عليه وارشاده سياسة .

وقالت الحكماء : الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ، ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته . وكان يقال : لا حلة اجمل من حلة الأدب . لأن حلل الثياب تبلى ، وحلل الأدب تبقي . وحلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ويسرقها السارق . وحلل الاداب باقية مع جوهر النفس .

ومن كلام الحكماء : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يخمدها إلا تجد حطبا . وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ، ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه .

وقالوا : عليكم بالأدب فانه صاحب في السفر ، ومؤنس في الوحدة وجمال في المحفل ، وسبب الى طلب الحاجة .

وقال امير المؤمنين (ع) (١) : [قيمة كل امرىء ما يحسنه] .

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١ ص ٢٣٠

وقال (ع) : [اذا ارذل الله عبداً حظر عليه العلم] (١) وكان يقال : من علامة بغض الله تعالى للعبد : ان يبغض اليه العلم .

قال الشاعر

شكوت الى وكيع سوء حظي　　فأرشدني الى ترك المعاصي
وقال لأن حفظ العلم فضل　　وفضل الله لا يؤتيـه عاصي

ومن تعاليم

باب مدينة العلم لطلاب العلم

قال عليـه السلام (٢) لسائل سأله : [سل تفقها ولا تسأل تعنتا ، فان الجاهل المتعلم شبيه بالعالم ، وان العالم المتعنت شبيه الجاهل] .

وقال (ع) في كلام له : [من حق العالم ان لا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تضع له غامضات المسائل ، ولا تلح عليه اذا كسل ولا تأخـذ بثوبه اذا نهض ، ولا تفش له سراً ، ولا تغتابن عنده احداً ، ولا تنقلن اليه حديثاً ، ولا تطلبن عثرته ، وان زل قبلت معذرته ، وعليك ان توقره وتعظمه مادام حافظاً أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، واذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك الى خدمته] .

وقيل لانوشروان : ما بالكم لا تستفيدون من العلم شيئاً الا زادكم عليه حرصاً ، قال : لأنا لا نستفيد منه شيئا إلا ازددنا به رفعة وعزاً .

وقيل له : ما بالكم لا تأنفون من التعلم من كل احد ، قال : لعلمنا بأن العلم نافع من حيث أخذ .

---

(١) ابن أبي الحديد ج ١٩ ص ١٨٢

(٢) شرح ابن أبي الحديد ج ١٨ ص ٢٣٠

وقيل لبزرجمهر : بم ادركت ما ادركت من العلم ، قال : ببكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار . وقيل له : العلم افضل او المال ، فقال : العلم . قيل له : فما بالنا نرى اهل العلم على ابواب اهل المال اكثر مما نرى اصحاب الأموال على ابواب العلماء ، قال : ذلك ايضاً عائد الى العلم والجهل ، وانما كان كما رأيتم لعلم العلماء بالحاجة الى المال ، وجهل أصحاب الأموال بفضيلة العلم .

قال الشاعر

تعــلم فليس المرء يخلق عالماً ... وليس اخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنـده ... صغير اذا التفت عليه المحافل

وقال امير المؤمنين عليه السلام (١) : [العلم مصباح الله في الأرض فمن أراد الله به خيراً اقتبس منه] . وقال (ع) (٢) . [اذا وضع الميت في قبره اعتورته نيران اربع . فتجيىء الصلاة فتطفىء واحدة ، ويجيىء الصوم فيطفىء واحدة ، وتجيىء الصدقة فتطفىء واحدة ، ويجيىء العلم فيطفىء الرابعة ، ويقول لو أدركتهن لأطفأتهن كلهن] .

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢٠ ص ٣٢٦
(٢) نفس المصدر ص ٣٤٧

ما قيل في تحمل الأذى

في سبيل ذلك

قال أمير المؤمنين عليه السلام (١) : [الناس أعداء ما جهلوا] .

وقيل لافلاطون : لم يبغض الجاهل العالم ، ولا يبغض العالم الجاهل . فقال : لان الجاهل يستشعر النقص في نفسه ويظن ان العالم يحتقره ويزدريه فيبغضه ، والعالم لانقص عنده ولا يظن ان الجاهل يحتقره فليس عنده سبب لبغض الجاهل .

قال الشاعر

جهلت امرأ فابديت النكير له والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقال آخر

اذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابتك السكوت

سكت عن السفيه فظن أني عييت عن الجواب وما عييت

وقال عليه السلام (٢) : [من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه] .

قال بعضهم دخلت على ابن منارة .. وبين يديه كتاب قد صنفه . فقلت : ما هذا . قال : كتاب عملته مدخلاً الى التوراة . فقلت : ان الناس ينكرون هذا ، فلو قطعت الوقت بغيره قال الناس جهال قلت : وانت ضدهم قال : نعم . قلت : فينبغي ان يكون ضدهم جاهلاً عندهم . قال : هو كذلك . قلت : فقد بقيت انت جاهلاً باجماع الناس ، والناس جهال بقولك وحدك . . وبهذا المعنى يقول الشاعر :

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢٠ ص ٨٦

(٢) نفس المصدر ص ١٠٠

اذا كنت تقضي ان عقلك كامل وان بني حواء غيرك جاهل
وان مفيض العلم صدرك كله فمن ذا الذي يدري بأنك عاقل

وقال آخر :

أرى كل انسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه ويبدو له الغيب الذي بأخيه

وقال عليه السلام (١) : [ما مات من أحيا علما ، ولا افتقر من ملك فهماً] .

وقال عليه السلام : [العلم صبغ النفس ، وليس يفوق صبغ الشيء حتى ينظف من كل دنس] .

وقال عليه السلام : [الاشرار يتتبعون مساوىء الناس ، ويتركون محاسنهم ، كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة] .

وقال عليه السلام : [ينبغي لمن ولي امر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته ، وإلا كان بمنزله من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود] .

وقال عليه السلام : [ذك قلبك بالأدب كما تذكي النار بالحطب] .

وقال عليه السلام : (٢) [مكارم الأخلاق عشر خصال : السخاء والحياء ، والصدق ، واداء الامانة ، والتواضع ، والغيرة ، والشجاعة ، والحلم ، والصبر ، والشكر] .

وقال عليه السلام : [الروح حياة البدن ، والعقل حياة الروح]

وقال عليه السلام (٣) : [فضّل العقل على الهوى ، لان العقل

(١) شرح ابن أبي الحديد ص ٢٦٨

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٥

(٣) نفس المصدر ص

يملك الزمان ، والهوى يستبعدك للزمان] .

وقال عليه السلام : [الكلمة اذا خرجت من القلب دخلت الى القلب واذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان] .

وقال عليه السلام (١) : [اشرف الاشياء العلم ، والله تعالى يحب كل عالم] .

وقال عليه السلام : [ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم بل أي شيء فات من ادرك العلم] .

وقال (ع) : [اذا كان الآباء هم السبب في الحياة فمعلموا الحكمة والدين هم السبب في جودتها] .

وقال (ع) : [ليس المؤسر من كان يساره باقياً عنده زماناً يسيراً وكان يمكن ان يغتصبه منه غاصب ، ولكن اليسار على الحقيقة هو الباقي عند مالكه ولا يمكن ان يؤخذ منه ، ويبقى له بعد موته . وذلك هو الحكمة] .

وقال (ع) : [السعيد من وعظ بغيره . والشقي من وعظ به غيره] .

وقال عليه السلام : [كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فانه يتسع به] .

ولعله (ع) : يشير الى النفس الناطقة . وان قوتها تغاير سائر القوى الجسمانية لتجردها .

وقال (ع) : [ان لم تكن حليما فتحلم . فانه قل من تشبه بقوم إلا او شك ان يكون منهم] .

نعم فان التشبه بذوي الكمالات ، والتطبع باخلاقهم وآدابهم يكسب تلك الأخلاق . حتى أن الاعرابي الجلف الجافي اذا دخل المدن

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ص ٢٨٨

وخالط أهلها وطال مكثه فيهم انتقل بمرور الزمن عن خلق الاعراب الذي أنشأ عليه . وعلى هذا المعنى ورد -- أأعرابي بعد هجرة -- بل حتى بعض الحيوانات بترويضها تكتسب بعض أخلاق الانسان تاركة لسبعيتها الطبيعيه .

وقد نسب اليه عليه السلام هذا الشعر :

صاحب أخا ثقة تحظى بصحبته والطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخـذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وقد قيل في الصديق السوء عكس ذلك :

احـذر عـدوك مرة واحذر صديقك الف مرة
فلربما انقلب الصـد يق فكان اعرف بالمضرة

وقال آخر :

احذر مودة مائق (١) شاب المرارة بالحلاوة
يحصي الذنوب عليـ ك أيام الصداقة للعداوة

وعلى هذا المعنى قال عليه السلام : [حسد الصديق من سقم المودة] . أي اذا حسدك صديقك على نعمة لم تكن صداقته صحيحة فان الصديق يجري مجرى نفسك ، ويتابع ارادتك .

• • •

وقد ذكرنا هذه الكلمات الحكمية لنعلم منها قيمة العلم اولا ، كما هو موضوع بحثنا ، ولنعرف شرائط تحمله وتحميله ثانياً ، لئلا تذهب علينا ثمار جهدنا في دراساتنا .

ونعود الى توجيهات قرآننا ونجد انه كيف يركز الحياة العلمية على العلم ، نابذ غيره ، وان المسؤولية بذلك تشمل حتى الحواس مع

---

(١) المائق من يخلط الود بغيره

رئيسها - القلب - ويضرب في ضمن ذلك على اكثر من - وتر - كما هي سنته وسيرته .

قال تعالى (١) : [ولا تقف ماليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش في الأرض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم إلا نفورا] . .

وحيث ان الاسلام يحقق دائماً اهداف الحياة العلمية ، ولأن العقيدة الاسلامية هي عقيدة الوضوح ، والاستقامة ، والنصاعة ، فلا يرتضي أن يقوم شيء على الظن ، او الوهم ، او الشبهة . فأعطى النظام المطلوب في هذا الموضوع بقوله : - ولا تقف ما ليس لك به علم الآية . .

انها كلمات على قلتها ، وبالرغم من ايجاز ألفاظها فهي تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً : من وجوب اتباع العلم ، والمنع عن اتباع غيره .

فالانسان بفطرته الموهوبة له لا يريد في مسير حياته باعتقاده ، أو عمله الا اصابة الواقع . فالقرآن يرشده الى الطريق الكافل لما تتطلبه فطرته ، وتقتضيه طبيعته ، ولا يكلفه وراء ذلك .

ثم يضيف اليه لزوم استقامة القلب ، ومراقبة الله تعالى ، وهي ميزة الاسلام على المناهج الجافة ، والقوانين الوضعية الناقصة ، ولو انها كملت في نظم البشر ، لما احتاج الحاكمون بها الى - التجسس - وما يسمى - بالاستعلامات - والاستخبارات - بل انهم لا يرون قياماً لحكمهم

(١) الاسراء : ٣٥

إلا بها على حد زعمهم . بينما نجد الاسلام قد جعل الرقابة على البشر : حواس البشر وانه المسئول عنها ، وهي الشاهدة عليه . قال تعالى : حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم ، وجلودهم بما كانوا يعملون .. وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيراً مما تعلمون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (١) وغيرها من آيات شهادة الحواس والاعضاء .

ثم جعل سبحانه : رئيسها الفؤاد والقلب . وفرض عليه مراقبة الرب ، فالتثبت من كل خير ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الاسلام القويم . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج ، وبتبعهما الحواس لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للاحكام السطحية ، والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والامانة العلمية التي يشيد بها الناس في الحديث ليست سوى طرف من الامانة العقلية القلبية التي يعلن عنها القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الانسان مسئولا عن سمعه وبصره وفؤاده امام واهب السمع والبصر والفؤاد .

انها امانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، امانة يسئل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً .

امانة يرتعش لها الوجدان لدقتها وجسامتها ـ دقتها الجسمية ـ ـ وجسامها الاثرية .. كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الانسان رواية ، وكلما اصدر حكماً على شخص ، او امر ، او حادثة : .. ولا

(١) السجدة : ٢٠

تقف ما ليس لك به علم .. أي ولا تتبع مالم تعلمه علم اليقين ، ومالم تتثبت من صحته ، من قول يقال ، ورواية تروى ، ومن ظاهرة تفسر او واقعة تعلل ومن حكم شرعي ، او قضية اعتقادية ، وما الى ذلك .

وفي الحديث : [إياكم والظن فان الظن اكذب الحديث] . وفي حديث آخر : [ان أفرى الفرى ان يري الرجل عينية مالم تريا] .

ومما ورد في مسئولية السمع : ان رجلاً قال لأبي عبد الله (ع) : بأبي أنت اني ادخل كنيفاً لي ولي جيران وعندهم جوار يغنين ويضربن بالعود فربما اطيل الجلوس استماعاً مني لهن .

فقال عليه السلام : لا تفعل . فقال الرجل : والله ما آتيهن انما هو سماع أسمعه بأذني . فقال : له اما سمعت الله يقول : .. ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا ـ قال : بلى والله كأني لم أسمع هذه الآية قط من كتاب الله من عجمي ولا عربي ، لا جرم اني لا أعود ان شاء الله ، واني استغفر الله .

فقال (ع) : قم واغتسل وصل مابدا لك ، فانك كنت مقيماً على أمر عظيم ، ما كان اسوأ حالك لو مت على ذلك ، احمد الله وأسأله التوبة من كل ما يكره ، فانه لا يكره إلا كل قبيح ، دعه لأهله ، فان لكل اهلاً (١) .

ثم يختتم سبحانه هذه التعاليم المرتبطة بعقيدة التوحيد المذكورة في سابق الآيات من هذا المقطع : بالنهي عن الكبر الفارغ ، والخيلاء الكاذبة : [ولا تمش في الارض مرحاً ، افك لن تخرق الارض ولن

---

(١) اذن فلنفهم ما نحن عليه . وعلى الاخص من التزموا بأوقات إذاعة الغناء ، ونظائره من أنواع اللهو والطرب وما يكرهه الله . ما أسوأ حالنا لو متنا على هذا .

تبلغ الجبال طولا] .

والانسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده ، تأخذه الخيلاء بما يبلغه ويناله من ثراء او سلطان او قوة ، او جمال وسؤدد ، ولو تذكر أن مابه من نعمة فمن الله ، وانه ضعيف امام حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هوناً ، لا تيهاً ولا مرحا .

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بالحجة الدامغة ، وبالبرهان القطعي المحسوس ، يجبهه بضعفه وعجزه ، وضألته : - انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا - .

فالانسان بجسمه ضئيل هزيل لا يبلغ شيئاً من الاجسام الضخمة التي خلقها الله والتي هي أقوى منه ، كالارض التي لا يمكنه اختراقها بقدميه - انك لن تخرق الارض - وكالجبال التي لا يبلغها طوله ، إنما هو قوي بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه ليتصل به ، ويراقبه ، ولا ينساه ، ذلك التطامن والتواضع الذي يدعو اليه القرآن ، بترذيل المرح والخيلاء ، هو أدب مع الله وأدب مع الناس أدب نفسي ، وأدب اجتماعي ، وما يترك هذا الأدب ذاهباً الى الخيلاء والعجب الا فارغ ، صغير القلب ، صغير الهمة ، حقير النفس ، يكرهه الله لبطره ، ونسيان نعمته ، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه .

وفي الحديث : [من تواضع لله رفعه الله ، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله ، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو ابغض اليهم من الكلب والخنزير] .

قال أمير المؤمنين عليه السلام (١) : [مالا بن آدم والفخر ، اوله

(١) ابن أبي الحديد ج ٢٠ ص ١٥٠ .

نطفة ، وآخره جيفة ، لا يرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه] .

قال الشاعر :

ما بال من أوله نطفة وجيفـة آخره يفخـر
يصبح ما يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

وقال آخر في التعريض بمن يفخر بالدنيا .

انما الدنيا كرؤيا فرحت من رآها ساعة ثم انقضت

ولا معنى للفخر بزينتها لانها ليست له واذا كان لابد من الفخر فليفخر الانسان بعلمه وبشريف خلقه .

وقال عليـه السلام (١) : [لا ينبغي للعبد ان يثق بخصلتين : العافية ، والغنى ، بينما تراه معافى اذ سقم ، وبينما تراه غنياً اذا افتقر .

قال الشاعر في ذلك :

ورب غني عظيم الثراء أمسى مقلاً عديماً فقيراً
وكم من مترف في القصور فعوض في الصبح عنها القبورا

وقال (ع) (٢) : [اذكروا انقطاع اللذات ، وبقاء التبعات] .

وقال الشاعر في ذلك :

تفنى اللذاذات ممن نال بغيته من الحرام ويبقى الاثم والعار
تبقى عواقبِ سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها نار

ثم يذيل الآية سبحانه بكراهته تلك الصفات فيقول : [كل ذلك كان سيئه عنـد ربك مكروها] أي يكرهها تعالى ولا يريدها ولا يرضاها . وفي ذلك دلالة على بطلان قول ـ المجبرة ـ : بأن معاصي العباد بارادته وانهم مجبورون على فعلها .

---

(١) ابن ابي الحديد ج ٢٠ ص ٧١

(٢) نفس المصدر ص ٣٩

وجه البطلان : انه سبحانه قد صرح بأنه يكره المعاصي والسيئات فكيف يريدها ، فان من المحال أن يكون الشيء الواحد مراداً مكروهاً عنده لانه جمع بين المتنافيين . نعم انه تعالى يعلمها ويعلم انهم يفعلونها باختيارهم رغم نهيه سبحانه عنها وهذا غير الجبر .

وليكن معلوماً ان المراد بوجوب اتباع العلم هو الاعم من تحصيل العلم لمطلوبه بنفسه وانكشاف الواقع لديه فيما اذا تيسر له ذلك ، او بالرجوع الى من حصل له العلم بذلك ، وثوقاً بخبرته ، وايماناً بعلمه كرجوع المريض الى الطبيب وعند ذلك فيكون قد اخذ بالدليل العلمي الذي حتم عليه الرجوع الى ذوي الخبرة ، ويعد اتباعهم في ذلك اتباعاً للعلم ايضاً ، ووزانه وزان من حصل على العلم بنفسه في صحة العمل وترتب الأثر .

وعلى هذا فلا وقع لما اورده ـ الرازي في تفسيره الكبير ـ : من أن الآية دلالتها بالظهور وهو طريق ظني ، فلو دلت الآية على ان التمسك بالظن غير جائز ولابد من اتباع العلم فقط لدلت على ان التمسك بها نفسها غير جائز لأنها ظنية الدلالة .

فنقول لا وقع لذلك بما ذكرناه من تعميم العلم المطلوب ، فالآية وان كانت دلالتها بالظهور ، ولكن حيث قام الدليل القطعي على حجية الظهور فاتباعه اتباع لدليل حجيته ، فهو وان لم يكن علماً لكنه علمي .

وقال سبحانه : [كل اولئك كان عنه مسئولا] أي السمع والبصر والفؤاد . وانما أشار اليها بأولئك مع انها لمن لا يعقل ، لأن المراد أربابها .

وذكر الطبرسي (١) بسنده الى أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : [لا تزول قدم عبد يوم القيامة بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن اربع خصال : عمرك فيما افنيته وجسدك فيما أبليته ، ومالك من أين اكتسبته واين وضعته ، وعن حبنا أهل البيت .

ثم قال سبحانه : [ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا] أي أقسم لقد كررنا الدلائل ، وفصلنا المعاني والامثال وردنا معهم الكلام في أمر التوحيد ونفي الشريك من وجه الى وجه وحولناه من لحن الى لحن في هذا القرآن فأوردناه بمختلف العبارات وبيناه بمنوع البيانات ليتذكروا ، ويتبين لهم الحق ، فما يزيدهم التصريف الا انزعاجاً من العقيدة التي جاء بها ، ونفورا من القرآن ذاته ، خيفة ان يغلبهم على عقائدهم الباطلة ، التي يتمسكون بها .

وقال تعالى : - ليذكروا . اشارة الى أن التوحيد لا يحتاج الى أكثر من التذكير والرجوع الى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلالتها ، ولكنهم كلما جيىء ببيان جديد أورثهم نفرة جديدة .

وفي الآيات إلتفات من الخطاب الى الغيبة تنبيهاً على انهم غير صالحين للخطاب والتكليم بعد ما كان حالهم هذا الحال .

ولو قيل اذا كان معلوماً له تعالى يزدادون نفرة عند انزال القرآن فما معنى انزاله وما وجه الحكمة فيه . فيقال في جوابه : ان الحكمة فيه هي إلزام الحجة وقطع المعاذير عليهم باظهار الدلائل - أولا - وانه يصلح عند انزاله جماعة أخرى ما كانوا يصلحون لولا نزوله -- ثانياً - وليعتبر من يجيىء بعدهم بذلك - ثالثاً - .

---

(١) في مجمع البيان ج ٦ ص ٤١٦

فمن الواجب في الحكمة أن تتم الحجة ثم يزيد في تمامها حتى يظهر من الشقي كل ما في وسعه من الشقاء . ويتخذ السعداء بمختلف مساعيهم رفيع الوسامات وكامل الدرجات . حيث قد أبى الله تعالى أن يعامل عباده بعلمه ، بل قضى ان يعاملهم بأعمالهم . وقد قال سبحانه : [وهديناه النجدين (١) . وقال : [وكلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا] (٢) .

ثم قال تعالى : [ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم مدحورا] وحيث قد ابتدأ هذا المقطع من الآيات بالنهي عن الشرك ، وباعلان قضاء الله بعبادته وحده في قوله : ـ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد ملوماً مخذولا ، وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه ـ وضعاً للقاعدة ، واقامة للاساس .

ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف مركزة عليها : بر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى والمسكين ، وابن السبيل من غير اسراف ولا تبذير وتحريم قتل الذرية خشية الاملاق ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والتثبيت من الحق ، ثم النهي عن الخيلاء والكبر .

فينهي المقطع بمثل ما ابتدأه به ، ويختمه بالتحذير من الشرك في قوله : ـ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم مدحورا ـ فاذا الاوامر والنواهي والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه مشدودة الى عقيدة التوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة ، معبراً عن كل ذلك بأنه وحي سماوي لا يداخله شك ، منوط بالحكمة لا يمازجه عبث ، ـ ذلك

(١) البلد : ١٠

(٢) الاسراء : ٢١

بما أوحى اليك ربك من الحكمة - .

فنحن نبتهل اليه جل شأنه ، متوسلين اليه بأحب خلقه اليه وأكرمهم عليه ، محمد وآله عليهم السلام : أن يجعلنا ممن علم الحق وعمل به ، وازداد نوراً وايماناً من كتاب ربه ، مستقياً مفصلاته من نمير علم نبيه ، ومن طريق اهل بيته - الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً - ليجمعنا بلطفه معهم في مستقر رحمته ، وفسيح جنته ونعيم خلده ، انه سميع مجيب .

مصداق القرآن

- وما يزيدهم إلا نفورا - في هذا القرآن

تأكيداً لما يقوله القرآن : من أن تصريفه بأنواع البيانات ، وتكراره بواضح الدلالات لا يزيد من انطبع على الباطل ، وقصد التفلت من الحق والواقع - إلا نفوراً - وانزعاجاً وهزيمة ، بل وسخرية بمن انصاع للواقع بدلائل القرآن .

يؤكد ذلك ما نجده في زماننا المسمى - عصر النور - وعصر العلم - و - عصر الثقافة - و - عصر التقدم و - عصر الاكتشاف - و - عصر الفضاء - . . فان غالب أهله ومنهم المكتشفون أنفسهم لا يعتقدون صدق القرآن .

ومن يعتقد ذلك لا يطبق مناهجه . ومنهم المتنفر منه وهو ممن يعتنقه . رغم مالديهم مشاهداً من انطباقه على ما يفخرون بـه من المكتشفات الفضائية والارضية ، وتصريحه بما يوافق لسان اليوم ، وتلويحه بلحاظ فهم السالفين بما يقرره العلم الحديث في امور كان على

عكسها تقرير العلم القديم . فهو اذن سابقها بقرون . وكأنهم لنفرتهم منه لا يسمعون ذلك ، بل لا يشعرون .

فلا غرابة اذن : من ازدياد أهل زمان نزوله - نفورا - لتأخرهم علمياً وتقدمنا . ولعدم انكشاف مصاديق بياناته لهم ، وانكشافها لنا فنحن ألزم بالحجة . وأولى بالاعتراف منهم وسنذكر نماذج من علوم القرآن فيما يخص جديد المعلومات ، وبديع المكتشفات ، ليتم البرهان .

مقادير الله تعالى للموجودات

قال تعالى : [وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال] (١) .

وهذا كما عليه العلم الحديث في - الكمياء - من أنواع المعادلات والتفاعلات ، فانها كلها تحت مقادير معينة ، وشروط محددة لعطائها نتاجها ، وصحة مفعولها . ولو اختلفت تلك المقادير المقررة لها تفسد وتُفسِد .

وقد كان التوصل الى شريطة التحديد والتقدير في عطائها النتاج بعد جهود ، وجهود ، وزمان بعد زمان . وتجربة بعد أخرى . والقرآن الكريم ينادي فيما هي مسبوقة به بقرون ! - وكل شيء عنده بمقدار - لانه تعالى شأنه عالم بنتائج الكائنات قبل تكوينها . فهو قد أوجدها بحدود ومقادير يعلم مقدار عطائها فيه في حال عدمها وغيبها ، كما يعلم ذلك منها في حال وجودها وشهودها . فترى حجم الشمس وتقدير سيرها ومقدار بعدها عن الارض وعن الكواكب الاخرى السابحة حولها ،

(١) الرعد : ٩

ومقدار الجاذبية ، كل ذلك بمقدار يتناسب مع حياة ما على ظهر الكرة الارضية ، ومع استقامة سائر الكواكب الفضائية في سيرها الدائم المستمر دون أي فتور وعلى مر الدهور ، والى يوم ينفخ في الصور .

وعلى مجرى الآية آيات أخرى كلها هي منبع للعلوم الحديثة في المقادير والمعادلات كقوله تعالى : [وان من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم] (١) وقوله تعالى : [قد جعل لكل شيء قدراً] (٢) وقوله تعالى : [وكان أمر الله قدراً مقدوراً] (٣) وقوله تعالى : [وخلق كل شيء فقدره تقديرا] (٤) وقوله تعالى : [والذي قدر فهدى] (٥) وقوله تعالى : [وانزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون] (٦) وقوله تعالى : (أنا كل شيء خلقناه بقدر) (٧) .

فهذا التأكيد منه عز اسمه مما يعطي الاهمية للتقدير ، والمعادلات ولولاه لاختلت الفصول الاربعة ، وذهبت ثمارها لهذه الحياة ، ولاختلت الحياة نفسها ولم تستقم ، وتؤول الى الهلاك . اما احتراقا وذوبانا ، واما انجماداً وتحجراً .

كما انه تعالى قد أكد على وجود الجاذبية بنحو خاص ولعله اعدم

---

(١) الحجر : ٢١

(٢) الطلاق : ٣

(٣) الاحزاب : ٣٨

(٤) الفرقان : ٢٠

(٥) الاعلى : ٣١

(٦) المؤمنون : ١٨

(٧) القمر : ٤٩

كونها مرئية ومشاهدة . قال تعالى : [خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الارض رواسي ان تميد بكم] (١) وقال تعالى : [ان الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليماً غفورا] (٢) ولا يخفي ما في التعبير والاحالة في استقامة السماوات والارض على مسكه تعالى لهما ، وقدرته العامة مما يناسب ادراك المخاطبين يومئذ . وعطاء نفس التعبير بنصه لمعنى الجاذبية وانها الماسكة بتقديره بما يناسب فهم اليوم .

وعلى هذا الاساس يرد في حق القرآن : [انه غض جديد] . .

وقال تعالى ايضاً : [الم تران الله سخر لكم مافي الارض والفلك تجري في البحر بامره ويمسك السماء ان تقع على الارض إلا باذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم] (٣) فالكواكب تسير في مداراتها ، وتتباعد عن بعضها بمسافات معينة حسب مقررات الجاذبية ، وهي مسخرة في حركاتها ، وجذبها ، وانجذابها ، بأمره تعالى وفق قانون الجذب العام الى يوم ينفخ في الصور .

يوم قال فيه سبحانه : [واذا الشمس كورت ، واذا الكواكب انتثرت واذا البحار سجرت . .) (٤) .

---

(١) لقمان : ١٠

(٢) فاطر : ٤١

(٣) الحج : ٦٥

(٤) سورة التكوير : ١

علم القرآن في عمقه

والعلم الحديث في سطحه

كثيراً ما قيل أو يقال : ان الدين الاسلامي يتنافى مع العلم الحديث . وإنه تحديد وتقييد .

وان ذلك لخطأ أو تلبيس . وضلال أو تضليل . بل لا تعارض أصلاً بين قوانين الدين الاسلامي والعلم الحديث . وذلك لان الاسلام فطري يدرك بالفطرة مصالح ومفاسد الواجبات ، والمحرمات . كحسن البر والطاعة ، والعدل ، والوفاء ، و . .

وكقبح الظلم ، والغدر ، والنفاق ، والخيانة . . والفطرة انما هي من معطيات العقل . والعلوم الحديثة كلها من معطيات العقل ايضاً فاذن لا يتصور التنافي بينهما ، لانهما من منبع واحد ، ومن نسب واحد ولكن فيما اذا حافظ العلم الحديث على صفاء منبعه ـ العقل ـ من التلويث بالشبهات ، والخيالات . ومن كل نقص لان الدين من الله ، والله كامل على الاطلاق ، والكامل لا يريد أن يُري فيما خلق شيئاً ناقصاً . الناقص لا يصدر الا عن الناقص ، والكامل لا يُصدر الا كاملاً .

فما يشاهد أحياناً من التنافي بين العلم الحديث والدين فهو ناشىء من نقص ذلك العلم . ولو كمل بكمال نفس صاحبه ، وتجرد بتجرد ذات حامله لكان طبق الدين ، لانهما من منبع واحد ـ العقل ـ كما أسلفنا .

ومن أمثلة ذلك ما كان عليه علماء الفلك الى زمن غير بعيد : من أن الشمس ثابتة ، والأرض متحركة حولها . وهذا مما يتنافى مع الدين

حيث يقول سبحانه : [والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم] (١) وسبب التنافي نقصان العلم الحديث ، وخطأه في النتيجة حيث لم يهيء لها القياس الصحيح . ولهذا لما تكامل العلم الفلكي بتكامل المجاهر ، وبتقدم الرياضيات العالية بما فيها - الميكانيك الرياضي - اعترف العلم الحديث بحركة الشمس حيث قد صح القياس وصحت النتيجة . وقال : ان الشمس تجري بسرعة اثنين وسبعين الف كيلومتر في الساعة الواحدة على شكل - حلزوني - نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع . . ولذلك يتغير مدار الارض من وقت لآخر في الفضاء . وان المحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع .

لماح أمير المؤمنين (ع)

كاشعار كلام رب العالمين

قال عليه السلام : [وما الذي نرى من خلقك ، ونعجب له من قدرتك] (٢) . لأن الغائب عنا من خلقه وقدرته أعظم من الحاضر المشاهد . فانا نرى جرم الشمس وهو اعظم من جرم الأرض مائة وستين مره ، والحال انه لا نسبة لجرم الشمس على عظمه الى فلكها المائل . ولا نسبة لفلكها المائل الى فلكها الممثل .

وفلك تدوير المريخ الذي فوقها اعظم من ممثل الشمس . ولا نسبة ايضاً لفلك تدوير المريخ الى فلكه الممثل .

وكذلك فلك تدوير المشتري اعظم من ممثل المريخ . ولا نسبة لفلك

(١) يسين : ٣٦

(٢) شرح ابن أبي الحديد ج ٩ ص ٢٢٥

تدوير المشتري الى فلكه الممثل .

وكذلك فلك تدوير زحل اعظم من ممثل المشتري . ولا نسبة لفلك تدوير زحل الى فلكه الممثل . ولا نسبة لممثل زحل الى كرة الثوابت . ولا نسبة لكرة الثوابت الى الفلك الاطلس الأقصى .

فانظر اذن أي نسبة تكون للارض بكليتها على هـذا الترتيب الى الفلك الاطلس . وهذا مما تقصر العقول عن فهمه ، وتحول سواتر الغيوب بينها وبينه كما قال عليه السلام : [وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك] .

وقـد جاء الحديث منضاراً الى مجمل ذلك . وقـد ذكرناه في ـ الآيات الساطعة ـ : من أن موسى الكليم (ع) قال : يا رب انك قلت للسماوات والارض إئتيا طوعاً او كرها قالتا أتينا طائعين . فاذا كانتا لم يأتيا ما كنت صانعاً بهما . قال تعالى : [كنت اسلّط عليهما دابة من دوابي تبتلعهما] . قال يا رب واين تلك الدابة . قال : [هي في مرج من مروجي] . قال : يا رب حق لمن عرفك ان يعبدك .

وذلك مما يعطينا درساً عن سعة خلق الله تعالى شأنه . وظاهرة عن تعدد العوالم في ملكه ـ الحمد لله رب العالمين ـ .

ومثال آخر : هو ما اعترف به العلم الحديث : من ان ليس هناك ساكن . وان الثوابت من النجوم بالرغم مما اصطلح عليه : من انها ثوابت فهي متحركة في الفضاء بسرعة معينة . وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات في الثانية . ولبعدها الشاسع عنا لا نرى لها حركة كما نرى للقريب منا .

وهذا التبدل في العلم مما يثبت تأخر العلوم الطبيعية ، والرياضية عن ادراك الحقائق القرآنية . حيث هي سطحية صادرة عن ناقص . وهو

عميق صادر عن كامل . فالقرآن يخبر من قبل اربعة عشر قرنا تقريبا بخلاصة العلم الحديث رغم بذل الجهود الجبارة في التوصل الى نتائجه كما اسلفنا .

ومثال آخر هو ما بحثوه في علم النبات والحيوان ، وطبقات الأرض والفيزياء ، والكيمياء ، والرياضيات ، وغيرها . وما بنوه على التجارب والمختبرات كيف ينتقلون من نظرية بعد الجزم بها الى نظرية أخرى وابطال الأولى .

وعلى طول الخط رغم التحقيق وتوفر الوسائل . والقرآن يقول من قبل قرون : [ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا] (١) .

سهولة كلمة الحق على ذي الحق

وصعوبتها على ذي الباطل

فنقول : اذا انكشف مطابقة بعض فقرات آي القرآن لما توصل اليه العلم الحديث أخيراً ، فلم لانسلم لفقراتها الأخرى التي لم نفهمها ونتهم علمنا بالنقص والقصور عن ادراكها بالوقت الحاضر كما كان قاصرا زمنا طويلا عما ادركنا اخيراً . فما هو الا صرف عناد ، ومكابرة ، وفرار عن مقررات العقل السليم الى متطلبات الشهوة السقيمة .

---

(١) سورة نوح : ١٤

علوم القرآن زاخرة

والآيات بها متواترة

قال تعالى : [فلا اقسم بما تبصرون ومالا تبصرون] (١) وعلى الاختصار فان الآية من الشواهد على غزارة القرآن في علومه ، وانها غير متناهية . وانها لا تنافي العلم الحديث مهما توسع وتنوع اذا كان صحيحاً كما ذكرنا . فقد دلت الآية بوقت نزولها على وجود امور غير مبصرة للانسان .

ودل العلم الحديث على وجود نجوم لم تكن مبصرة قبل زمان ، والآن صارت مبصرة بالآلات . فاذن بعد هذه التجربة ما المانع ان تكون امور اخرى هناك أيضاً هي بعد غير مبصرة : ـ العرش ، الكرسي الملك ، الجن ، و . . امتداداً للآية في منطوقها مع الزمان . . ولم نقابل ذلك بالانكار او التشكيك . ولم لا نتهم انفسنا بالنقص بدل ان نتهم القرآن رغم تصريحه بها . وما هو الا الجهل .

السر في جهل الانسان مهما علم

وانه لا يزال يلاقي المجهول : هو ان المادي لا يمكنه ان يعلم ما وراء المادة . فما دامت الروح ـ النفس ـ مرتبطة بالبدن ، فعلمها محدود بما هو من المادة .

نعم اذا تجردت من البدن ، ورجعت الى الشفافية والجوهرية عند

(١) الحاقة : ٣٩

اذن يمكنها الوصول الى ما وراء الطبيعة لخلوصها عما يثقلها ويهبط بها -- البدن -- المادة -- ولعل الى ذلك يشير الحديث : [الناس نيام فاذا ماتوا إنتبهوا] . لتجرد ارواحهم عند ذاك . حيث لا يمكن قياس ماهو غير مادي بمقاييس مادية .

وعلى هذا ربما تنزل اخبار عالم -- البرزخ -- واطلاع الارواح على ما يكون عند اهاليها في الدنيا وقد ذكرنا موسعات من ذلك في كتابنا -- الآيات الساطعة -- الجزء الثالث فليراجع .

كشف القرآن

سابق كشف هذا الزمان

قال تعالى : [الذي جعل لكم الأرض مهداً] (١) تأمل كيف تشير الآية الى حركة الارض اشارة اجمالية لم تتضح الا بعد قرون وكيف تستعير للارض لفظ المهد الذي يعمل للرضيع يهتز بنعومة لينام فيه مستريحاً هادئاً (٢) وكذلك الارض مهد للبشر وملائمة لهم من جهة حركتها الوضعية والانتقالية .

وكما ان تحرك المهد لغاية تربية الطفل ، واستراحته فكذلك الأرض فان حركتها اليومية ، والسنوية لغاية تربيـــة الانسان ، بل وجميع ما عليها من الحيوان والجماد والنبات .

تشير الآية الى حركة الارض اشارة جميلة وان لم تصرح بها ، لانها نزلت في زمان اجمعت فيه عقول البشر على سكونها حتى انه كان

(١) طه : ٢٠ : ٥٣ : الزخرف : ٤٣ : ١٠

(٢) البيان لآية الله الخوئي ص ٥٥

يُعد من الضروريات التي لا تقبل التشكيك . واجترأ الحكيم .. غاليلة .. (١) بعد الالف الهجري فأثبت الحركتين ـ الوضعية .. والانتقالية .. للارض فأهانوه ، واضطهدوه حتى قارب الهلكة . ثم سجن طويلا مع جلالته وحقوقه العلمية ، فصار حكماء الافرنج يكتمون مكتشفاتهم الانيقة المخالفة للمخرافات العتيقة خوفاً من الكنيسة الرومية .

كشف القران عن وجود قارة

ومن الاسرار التي كشف عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً : وجود قارة أخرى حيث قال سبحانه : [رب المشرقين ورب المغربين] (٢) وهذه الآية قد شغلت أذهان المفسرين قروناً عديدة وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى . فقال بعضهم : المراد مشرق الشمس ، ومشرق القمر ، ومغربهما . وحمله بعضهم على مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما .

ولكن الظاهر ان المراد بها الاشارة الى وجود قارة أخرى تكون على السطح الآخر للارض يلازم شروق الشمس عليها غروبها عنا . وذلك بدليل قوله تعالى : [ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين] (٣) فان الظاهر من هذه الآية : ان البعد بين المشرقين هو اطول مسافة محسوسة . فلا يمكن حملها على مشرقي الشمس والقمر ، وعلى مشرقي الصيف والشتاء . لان المسافة بين ذلك ليست اطول مسافة محسوسة . فلابد ان يراد بها : المسافة التي ما بين المشرق والمغرب .

(١) المصدر الهيئة والاسلام ص ٦٢

(١) الرحمان : ١٧

(٢) الزخرف : ٣٨

ومعنى ذلك ان يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضية ليصح هذا التعبير .

فالآية تدل على وجود هذا الجزء الذي لم يكتشف الا بعد مئات من السنين من نزول القرآن .

وعلى ما تقدم فالآيات التي ذكرت المشرق والمغرب بلفظ المفرد كقوله تعالى : [ولله المشرق والمغرب] (١) يراد منها .. النوع .. والآيات التي ذكرت ذلك بلفظ التثنية يراد بها الاشارة الى القارة الموجودة على السطح الآخر من الارض والآيات التي ذكرت ذلك بلفظ الجمع يراد منها : المشارق والمغارب باعتبار اجزاء الكرة الارضية .

القرآن وكروية الارض

قال تعالى (٢) : [واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها] وقال تعالى : [رب السماوات والارض وما بينهما ورب المشارق] (٣) وقال تعالى : [فلا اقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون] (٤) ففي هـذه الآيات الكريمة دلالة على تعدد مطالع الشمس ومغاربها ، وفيها اشارة الى كروية الارض . فان طلوع الشمس على أي جزء من اجزاء الكرة الارضية يلازم غروبها عن جزء آخر فيكون تعدد المشارق والمغارب واضحا لا تكلف فيه ولا تعسف .

---

(١) البقرة : ١١٥

(٢) الاعراف : ١٣٧

(٣) الصافات : ٥

(٤) المعارج : ٤٠

وقد حمل القرطبي وغيره .. المشارق والمغارب .. على مطالع الشمس ومغاربها باختلاف ايام السنة ، لكنه تكلف لا ينبغي ان يُصارَ اليه . لان الشمس لم يكن لها مطالع معينة ليقع الحلف بها ، بل تختلف تلك باختلاف الاراضي . فلابد من ان يراد بها .. المشارق والمغارب التي تتجد شيئاً فشيئاً باعتبار كروية الارض وحركتها .

وفي أخبار أئمة الهدى من اهل البيت عليهم السلام ، وادعيتهم وخطبتهم : ما يدل على كروية الارض . ومن ذلك ما روى عن الامام الصادق عليه السلام قال : صحبني رجل كان يمسي بالمغرب ، ويغلس بالفجر وكنت أنا اصلي المغرب اذا غربت الشمس ، واصلي الفجر اذا استبان الفجر . فقال لي الرجل : ما يمنعك ان تصنع مثل ما اصنع ، فان الشمس تطلع على قوم قبلنا وتغرب عنا وهي طالعة على قوم آخرين بعدُ . فقلت : انما علينا ان نصلي اذا وجبت الشمس عنا ، واذا طلع الفجر عندنا ، وعلى اولئك ان يصلوا اذا غربت الشمس عنهم (١) .

فيستدل الرجل على مراده باختلاف المشرق والمغرب الناشيء عن استدارة الارض . ويقره الامام على ذلك ، ولكن ينبهه على وظيفته الدينيــة . ومثله قول الامام في خبر آخر : [انما عليك مشرقك ومغربك] .

ومن ذلك ما ورد عن الامام زين العابدين عليه السلام في دعائه عند الصباح والمساء : [وجعل لكل واحد منهما حداً محدوداً ، وأمداً ممدودا يولج كل واحد منهما في صاحبه ، بتقدير منه للعباد] (٢) .

أراد عليه السلام بهذا البيان البديع : التعريف بما لم تدركه

(١) الوسائل ج ١ ص ٢٣٧

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة

العقول في تلك العصور . وهو كروية الارض .

وحيث ان هذا المعنى كان بعيداً عن أفهام الناس لانصراف العقول عن ادراك ذلك . تلطف الامام (ع) بأساليب البيان بالاشارة الى ذلك على وجه بليغ فانه لو كان بصدد بيان ما يشاهده عامة الناس : من ان الليل ينقص تارة فتضاف من ساعاته الى النهار ، وينقص النهار تاره أخرى فتضاف من ساعاته الى الليل لاقتصر على الجملة الأولى - يولج كل واحد منهما في صاحبه - ولما احتاج الى ذكر الجملة الثانية - ويولج صاحبه فيه - .

اذن فذكر الجملة الثانية انما هو للدلالة على ان ايلاج كل من الليل والنهار في صاحبه يكون في حال ايلاج صاحبه فيه . لان ظاهر الكلام : ان الجملة الثانية حالية .

ففي هـذا دلالة على كروية الارض وان ايلاج الليل في النهار - مثلاً - عندنا يلازم ايلاج النهار في الليل عنـد قوم آخرين . ولو لم تكن مهمة الامام الاشارة الى هذه النكتة العظيمة لم تكن لهذه الجملة الاخيرة فائدة ، ولكانت تكراراً معنوياً للجملة الأولى (١) .

توسع الاكوان من علوم القرآن

قال تعالى : [والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون] (٢) . ان الآيات الكونية : سبعمائة وخمسون آية . و - منها - هذه الآية وهي من سورة - والذاريات - ولما في السورة من دلائل التكوين الغريبة

---

(١) البيان للخوئي ص ٥٨

(٢) والذاريات

التي هي خلاصة العلم الحديث . ولما فيها من ـ الوصفات ـ لداء الانسان وانتشاله مما يعيقه عن الشفاء باستعمال الدواء . عزمنا على الاتيان على مضامينها من أولها الى آخرها ـ تقوية للبرهان على علوم القرآن ـ وانه كيف يعالج مشاكل الانسان . وليكون ذلك مرئياً بالعيان .

بسم الله الرحمن الرحيم

[والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يُسرا ، فالمقسمات أمرا ، ان ما توعدون لصادق ، وان الدين لواقع ، والسماء ذات الحبك انكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك] (١) .

تبدأ السورة بذكر قوى أربع هي من أمر الله تعالى ، في لفظ مبهم الدلالة ، يوقع في الحس لأول وهلة . انه أمام امور ذات سر يقسم الله تعالى بها على امر . فهي فذلكة لبيان تثبيت ذلك الأمر . وانه على يقين من الوقوع ـ والذاريات ـ والحاملات ـ والجاريات ـ والمقسمات [ان ما توعدون] به من الجزاء على الأعمال ـ الخير بالخير ـ والشر بالشر ـ وانكم لم تخلقوا عبثاً : [لصادق] لا شك فيه [وان الدين لواقع] ولعل المراد به يوم القيامة . او انه كناية عن الحق . او ان الحق مهما زاحمه الباطل فهو غالب وواقع سواء في الدنيا او في الآخرة وان وعد الله لابد ان يتحقق .

وما كاد ان ينتهي القسم الاول حتى يعقبه قسم آخر بالسماء . . [والسماء ذات الحبك] يقسم الله تعالى بها على أمر : [انكم لفي

(١) يؤفك : أي يُدفع ـ والحبك ـ : أي ذات الطرائق الحسنة ولكن لبعدها عنا لا نراها .

قول مختلف) لا استقرار له ، ولا تناسق فيه ، قائم على التخرصات والظنون لا على العلم واليقين . فهو مضطرب وكذلك الباطل هـذا شأنه كأرض مرجوجة مهتزة ، لا يجتمع عليه اهله ، دون ان يختلفوا ويتفرقوا بعد حين . لعدم تركزه على ميزان دقيق ، فيدب بينهم الشقاق والعداء .

وقد اجمع الفريقان على أن علي بن أبي طالب عليه السلام صعد منبر الكوفة فقال : [لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله الا انبأتكم بذلك] . فقام ابن الكواء ، فقال : ياامير المؤمنين مامعنى قوله تعالى : [والذاريات ذروا] قال علي عليه السلام : الريح . قال : [فالحاملات وقراً] . قال : السحاب قال : [فالجاريات يسراً] . قال (ع) : السفن . قال : [فالمقسمات امراً] قال (ع) : الملائكة .

اقسم سبحانه بالرياح التي تذروا ما تذره من غبار ، وحبوب لقاح ، وسحب ، وغيرها مما يعلم الانسان وما يجهل . وبالسحاب الحاملات وقرا ـ وثقلا ـ من الماء يسوقه الله تعالى به الى حيث يشاء .

وبالسفن الجاريات في يسر وانطباع على سطح الماء بقدرته وبما اودع السفن ، واودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان السهل . ثم بالملائكة المقسمات امراً ـ تحمل اوامر الله وتوزعها وفق مشيئته فتفصل في الشئون المختصة بها ، وتقسم الامور في الكون بحسبها .

والريح والسحاب والسفن والملائكة هي خلق من خلق الله يتخذها أداة لقدرته ، وستاراً لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله في كونه وفي عباده .

وهو يقسم بها للتعظيم من شأنها ، ولتوجيه القلوب اليها ، لتتدبر ماوراءها من الأدلة ، ولرؤية يد الله وهي تنشئها وتصرفها وتتحقق بها

قدر الله المرسوم من الأزل .

وذكرها بهذه الصورة ، وعلى الصفة الخاصة يوجـــه القلب الى اسرارها المكنونة ، ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها . ولعل لها صلة بموضوع الرزق الذي يعني هـذه السورة . وقد سيقت لبيـان حقيقته كما سيأتي .

فالرياح ، والسحب ، والسفن ، ظاهرة الصلة بالرزق ووسـائله وأسبابه . . اما الملائكة وتقسيمها للامر . فان الرزق احد هذه القسم .

ومن ثم تتضح الصلة بين هذا الافتتاح وموضوع بارز تعالجه السورة في مواضع شتى منها .

وان السورة بافتتاحها على هذا النحو . ثم بسياقها كله ، تستهدف امراً واضحاً : هو ربط القلب البشري بالسمـاء ، وتعليقه بغيب الله المكنون ، وتخليصه من اوهاق الارض ، واطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق اليه جملة ، والفرار اليه كلية إستجابة لقوله في السورة : [ففروا الى الله] . . وتحقيقاً لارادته في عباده : [وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون] .

ولما كان الانشغال بالرزق ، وما يخبئه القدر : هو اكثف العوائق واشدها ، فقد عنى في هذه السورة باطلاق الحس من أساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسماء في شأنه . لا بالارض واسبابها القريبة . فانها آلات ليس بيدها المنع او العطاء .

وقد تكررت الاشارة الى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة ـ منها ـ بالتصريح كقوله : [وفي السماء رزقكم وما توعدون] . . وكقوله : [وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين] .

- ومنها - بالتعريض كوصفه لعبـاده المتقين وحالهم مع المال . كقوله : [وفي اموالهم حق للسائل والمحروم] حيث قـد خلصت قلوبهم من اوهاق الشح ، واثقال البخل ، وعوائق الانشغال بالرزق . وعلموا : انه مكفول من الله القدير .

لذا فقد جعلوا في اموالهم نصيباً مفروضاً للسائل الذي يسأل . وللمحروم الـذي يسكت ويتعفف . ويحسبه النـاس غنياً فلا يُعطي . فيُحرم . وهم متطوعون في ذلك .

وكوصفه تعالى لجود ابراهيم عليه السلام وسخـائه ، وهو يقري ضيوفه القلائل - ثلاثة - بعجل سمين . يسارع به اليهم عقب وفودهم اليه وبمجرد إلقاء السلام عليه . بما يكفي عشرات من الاكلين .

فتخليص القلب من اوهاق الارض ، واطلاقه من أسار الرزق وتعليقه بالسماء ، ترف اشواقه حولها ، ويتطلع الى خالقها في علاه ، بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن الفرار الى الله : هو محور السورة بكل موضوعاتها ، وقضاياها . التي تطرقها .

ومن ثم كان هذا الافتتاح الغامض في اولها ، وكان القسم بعدها بالسماء لانها من ابرز مظاهر قدرة الله تعالى . وفي هـذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة : [ان المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالاسحار هم يستغفرون ، وفي اموالهم حق للسـائل والمحروم] فهي صورة التطلع الى الله ، والتجرد له ، والقيام في عبادته بالليل ، والتوجه اليه في الاسحار ، مع ارخاص المال ، والتخلص من ضغطه ، وجعل نصيب السائل والمحروم حقاً فيه .

وفي نفس الموضوع للسورة والغرض منها : كان التوجيـــه إلى

آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء في شأن الرزق لا بالارض وما فيها . وانما هي وسائل فقال : [وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم افلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وماتوعدون فورب السماء والارض انه لحق ، مثلما انكم تنطقون] وهي لفتة الى آيات الله في الارض وفي الانفس ، وتوجيه الى السماء في شأن الرزق المكتوب ، والحظ المقدور . يختمها بقسم عظيم ، قسم بذاته ، وبوصفه على صدق هذا الحديث : وان رزقهم في السماء ، وكونهم ينطقون حقيقة حسية بين ايديهم ، لا يجادلون فيها ولا يمارون ، فكذلك كون رزقهم في السماء . والمقصود منها : ذاته العلية .

واما الارض فسبب ربما يعطي وربما يمنع . وقد روى الاصمعي نادرة (١) قال اقبلت من جامع البصر فطلع أعرابي على قعود لـه . فقال : ممن الرجل . قلت : من بني اصمع . قال : من اين اقبلت . قلت من موضع يُتلى فيه كلام الرحمان . فقال : أتلُ عليّ . فتلوت : [والذاريات] فلما بلغت قوله تعالى : [وفي السماء رزقكم وما توعدون] قال : حسبك . فقام الى ناقته فنحرها ووزعها على من اقبل وادبر ، وعمد الى قوسه وسيفه فكسرهما وولى . فلما حججت مع الرشيد طفقت اطوف فاذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق . فالتفت فاذا انا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلّم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هـذا . فقرأت : [فورب السماء والارض انه لحق] . فصاح وقال : ياسبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى الجؤه الى اليمين قالها ثلاثا وخرجت نفسه .

---

(١) ذكرها الزمخشري في تفسيره ـ الكشاف ـ

امير المؤمنين (ع)

يتابع القرآن لبيان واقع الرزق

قال عليه السلام (١) [يا ابن آدم الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فان لم تأته أتاك ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك كفاك كل يوم مافيه ، فان كانت السنة من عمرك فان الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك ، وان لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهم فيما ليس لك ، ولم يسبقك الى رزقك طالب ، ولم يغلبك عليه غالب ، ولن يبطىء عنك ما قدر لك] .

وقال عليه السلام (٢) : [واعجبا ممن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بغير عمل ، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها الا بالعمل] .

وقال عليه السلام : [ما استغنى احد بالله الا افتقر الناس اليه] .

وقال (ع) : [لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض] :

وقال عليه السلام (٣) : [قد تكفل لكم بالرزق ، وأمرتم بالعمل ، فلا يكونن المضمون لكم طلبه اولى بكم من المفروض عليكم عمله ، مع انه والله لقد اعترض الشك ودخل اليقين (٤) حتى كان الذي

---

(١) ابن ابي الحديد ج ١٩ ص ٣١٩

(٢) نفس المصدر

(٣) منهاج البراعة ج ٨ ص ٥١

(٤) أي اعترض الشك في المضمون والمفروض . وتزلزل اليقين بضمان المضمون ، وبفرض المفروض .

ضمن لكم قد فرض عليكم (١) وكان الذي فرض عليكم قد وضع عنكم (٢) فبادروا العمل ، وخافوا بغتة الأجل ، فانه لا يُرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق ، مافات اليوم من الرزق رُجي غداً زيادته ، وما فات أمس من العمر لم يُرج رجعته ، الرجاء مع الجائي ، واليأس مع الماضي ، فاتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وانتم مسلمون] .

وقد ذكر شراح هذه الخطبة عدة معان - لحق التُقى - : منها انه تعالى يطاع ولا يعصى . - ومنها - إتقاء جميع معاصيه - ومنها - المجاهدة في الله وان لا تأخذه فيه لومة لائم . - ومنها - ان يُقام له سبحانه في الخوف والأمن . ويجمع ذلك كله : استفراغ الوسع في القيام بالواجبات ، والاجتناب عن المحرمات .

وختم سلام الله عليه هذه الخطبة بقوله : ولا تموتن الا وانتم مسلمون . ومراده : أي لا تتركوا الاسلام لحظة واحدة وكونوا عليه دائماً حتى اذا ورد عليكم الموت صادفكم عليه .

وروي عن ابي عبد الله عليه السلام : وانتم مسلّمون بالتشديد . ومعناه مستسلمون لما أتى به النبي صلى الله عليه وآله منقادون له .

وفي شرح النهج (٣) من كلام عيسى عليه السلام في التوكل على الرازق بالرزق : [إتخذوا البيوت منازل ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بقل البرية ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام لعمري انقطعتم الى غير الله فما ضيعكم ، افتخافون الضيعة اذا

---

(١) فبالغتم في تحصيله وطلبه والجد له

(٢) فتوانيتم فيه وتساهلتم عنه ولم تبالوا به

(٣) ج ٣ ص ١٥٥

انقطعتم اليه] .

وبما اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام (١) : [قل لعبادي المتسخطين لرزقي اياكم ان اغضب فابسط عليكم الدنيا] ،

وفي الحديث الصحيح عن النبي (ص) (٢) : [ان روح القدس نفث في روعي : انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاجملوا في الطلب] . وفيـه (٣) : [اوحى الله الى بعض أنبيـائه : أتدري لمَ رزقت الاحمق . قال : لا . قال : ليعلم العاقل : ان طلب الرزق ليس بالاحتيال] . وفيه ايضاً (٤) : انه وجـد مكتوباً على صخرة عادية (٥) : ياابن آدم لست ببالغ املك ، ولا سابق اجلك ، ولا مغلوب على رزقك ، ولا مرزوق ما ليس لك ، فعلام تقتل نفسك .

وفيها ايضاً : دخل علي عليه السلام المسجد وقال لرجل إمسك علي بلغتي ، فخلع الرجل لجامها وذهب به . فخرج علي (ع) بعد ماقضى صلاته وبيده درهمان ليدفعهما اليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُطلا ، فدفع الى احد غلمانه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق قد باعه الرجل بدرهمين . فأخذه الغلام بالدرهمين وعاد الى مولاه . فقال عليه السلام : ان العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له .

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٦

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر ص ١٥٨

(٤) نفس المصدر ص ١٦٠

(٥) أي قديمة

وفي شرح النهج (١) : انه قيل لعلي عليه السلام : لو سُدّ على رجل باب بيت وترك فيه : من اين كان يأتيه رزقه .

قال : من حيث كان يأتيه اجله .

قال الشاعر في ذلك .

صبرت النفس لا اجزع من حادثة الدهر
رأيت الرزق لا يكسب بالعرف ولا النكر
ولا بالسلف الأمثل اهل الفضل والذكر
ولا بالسمر اللدن ولا بالخُذُم البُترِ
ولا بالعقل والدين ولا الجاه ولا القدر
ولا يدرك بالطيش ولا الجهل ولا الهذر
ولكن قِسَمٌ تجري بما ندري ولا ندري

* * *

قيل لحاتم الأصم (٢) : علامَ بنيت امرك . قال : على أربع خصال : علمت ان رزقي لا يأكله غيري فلم اهتم به . وعلمت ان عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به . وعلمت ان الموت يأتيني بغتة فأنا ابادره . وعلمت اني بعين الله تعالى في كل حال فاستحييت منه .

وفيه (٣) قال المنصور لعمرو بن عبيد : عظني . قال : بما رأيت أم بما سمعت . قال : بما رأيت . قال : رأيت عمر بن عبد العزيز وقد مات فخلف احد عشر إبناً وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً .

(١) لابن أبي الحديد ج ٣ ص ١٦٢

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٧

كُفِنَّ منها بخمسة دنانير واشترى موضع قبره بدينارين . وأصاب كل واحد من ولده دون الدينار . ثم رأيت هشام بن عبد الملك وقد مات وخلف عشرة ذكور فأصاب كل واحد من ولده الف الف دينار . ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلا من ولد هشام يسأل الناس ليتصدقوا عليه .

قال بعض الشعراء في التحذير من الدنيا .

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركم حسن ابتسامي فقولي مضحك والفعل مبكي

* * *

وقال آخر :

انما الدنيا عوار والعواري مستردة
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

وقال عليه السلام : [لا يثلمه العطاء ، ولا ينقصه الحباء] (١) . وفي الحديث (٢) عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ان الله عز وجل يقول : فلو ان اهل سماواتي واهل أرضي أمّلوا جميعاً ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه ، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني .

---

(١) منهاج البراعة ج ١٢ ص ٩١

(٢) في الكافي

قال الشاعر (١) :

لا تحرصن على الحطام فانما يأتيك رزقك حين يؤذن فيه
سبق القضاء بقدره وزمانه وبانه يأتيك أو تأتيه

* * *

عودة على هدف السورة

من دلائل التكوين

وحيث ان الله قد أراد لعبده الاتصال به عز اسمه فيما يخص رزقه فأراد ان يبرهن له على قدرته على ذلك بما هو لديه من المحسوس فقال : [وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم افلا تبصرون] هذا الكوكب الذي نعيش عليه هو - معرض - هائل لآيات الله وعجائب صنعه ، معرض لم نستوضح منه حتى الآن الا القليل من بدائعه ، ونحن نكشف في كل يوم جديداً منه .

ومثل هذا المعرض - معرض آخر - مكنون فينا نحن . . النفس الانسانية . . الخفية الاسرار التي تنطوي فيها اسرار هذا الوجود كله لا اسرار هذا الكوكب الارضي وحده .

اتحسب انك جسم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

والى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الاشارة الموجزة التي تفتح ابواب المعرضين على مصاريعهما لمن يريد ان يبصر ، ولمن يريد ان يستيقن ، ولمن يريد ان يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة

(١) ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٩٥

وبالعبرة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة التي ترفع القلوب ، وتضاعف الاعمار .

وكلما اطلع الانسان على اسرار الكون ، واسرار النفس ارتقى نصيبه . وتضخم رصيده ، وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن .

هذه الارض ، هذا الكوكب المعد للحياة المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه .

ومحيط هذا الكون الحافل بالنجوم ، والكواكب السيارة التي يبلغ عـدد المعروف منها فقط - والمعروف - نسبة لا تكاد تذكر في حقيقة الكون : مئات الملايين من المجرات التي تحتوي الواحدة منها مئات الملايين من النجوم والكواكب التي هي توابع هذه النجوم . كما ذكرنا مفصل ذلك عن قريب .

ومع هذه الاعداد التي لا تحصى فان الارض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته . ولو اختلت خصيصة واحدة من خصائص الارض الكثيرة جدا لتعذر وجود هذا النوع من الحيـاة عليها . . لو تغير حجمها صغراً او كبرا . لو تغير وضعها من الشمس قربا او بعـدا . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الارض على محورها هنا او هنا . لو تغيرت حركتها حول نفسها او حول الشمس سرعة او بطئاً . لو تغير حجم القمر - تابعها - او بعده عنها لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة او نقصاً . . لو . لو . الى آلاف الموافقات المعروفة والمجهوله التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة والحضانة . أليست هذه آية او آيات معروضة في هذا المعرض الالهي .

ثم هذه انواع القوت المذخورة في الارض للاحياء التي تسكنها .

تسكن سطحها ، او تسبح في اجوائها ، او تمخر ماءها ، او تختبىء في مغاورها وكهوفها ، او تختفي في مساربها واجوافها .

هذه الاقوات الجاهزة المركبة والبسيطة ، والقابلة للوجود في شتى الاشكال والانواع . كل هذه لتلبي حاجة هذه الاحياء التي لا تحصى ، ولاتحصى انواع غذائها ايضاً . هذه الاقوات الكامنة في جوفها ، والساربة في مجاريها والسابحة في هوائها والنابتة على سطحها والقادمة اليها من الشمس ومن عوالم أخرى . بعضها معروف ، وبعضها مجهول ، ولكنها تتدفق وفق المشية المدبرة التي خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة وجهزته بكل ما يلزم للانواع الكثيرة التي لا تحصى .

وتُنَوعُ مشاهد هذه الارض ومناظرها حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم وعجائب هذه المشاهد التي لاتنفذ : من وهاد ، وبطاح ، ووديان وجبال ، وبحار ، وبحيرات ، وانهار ، وغدران ، وقطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزروع . صنوان وغير صنوان . . وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الابداع والتغيير الدائبة التي لاتفتر عن الابداع والتغيير .

ويمر به الانسان وهو ممحل فاذا هو مشهد ، ويمر به وهو ممرع فاذا هو مشهد آخر . ويراه وهو نبت اخضر فهو مشهد ، ويراه أبان الحصاد حين يهيج ويصفر فاذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعا ولا ذراعا في المكان الواحد وتعتريه تلك التغييرات والمشاهد .

والخلائق التي تعمر هذه الارض من الاحياء . نباتا ، وحيوانا ، وطيراً وسمكاً ، وزواحف ، وحشرات . . فقط الانسان من بينها يفرده القرآن بنص خاص .

هذه الخلائق التي لم يعرف عدد انواعها واجناسها بعدُ ـ فضلا ـ عن احصاء اعدادها ، وافرادها وهو مستحيل . وكل خليقة منها أمة ،

وكل فرد منها عجيبة ، كل حيوان ، كل طائر . كل زاحفة ، كل حشرة . كل نبتة . لا بل كل جناح في يرقة . وكل ورقة في زهرة . وكل قصبة في ورقة .

كل هذا في ذلك المعرض الالهي العجيب الذي لا تنقضي عجائبه ولو مضى الانسان بل لو مضى الاناسي جميعاً يتأملون هكذا ويشيرون بجرد اشارة الى مافي الارض من عجائب ، والى ما تشير اليه هذه العجائب من آيات . ما انتهى لهم قول ولا اشارة .

والنص القرآني ما يزيد على ان يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر ، واستجلاب العجائب في هذا المعرض الهائل طوال الرحلة على هذا الكوكب ، والمتعة بما في هذا الاستجلاء من مسرة ، طوال الرحلة . غير انه لا يدرك هذه العجائب ، ولا يستمتع بالرحلة هذا المتاع الا القلب العامر باليقين : [وفي الارض آيات للموقنين] فلسفة اليقين هي التي تحمي القلب فيرى ويدرك ، وتحيا مشاهد الارض فتنطق للقلب باسرارها ، المكنونة ، وتحدثه عما ورائها من تدبير وابداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة ، جوفاء لا تنطق للقلب البشري بشيء ولا تتجاوب معه بشيء .

وكثيرون يمرون بالمعرض الالهي مغمضي العيون والقلوب لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ، لان لمسة اليقين لم تحي قلوبهم ، ولم تثبت الحياة فيما حولهم ، وقد يكون منهم علماء : [يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا] (١) اما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم ، فالقلوب لا تفتح لحقيقة الوجود الا بمفتاح الايمان ، ولا تراها العيون الا بنور اليقين .

---

(١) الروم : ٦

وقد استطردنا بعض آثار اليقين آنفاً . وعلمنا انه الركيزة لتدبر الآيات والبراهين ، وبدونه فهي تمر مرور عابر دون أي تأثير ـ ومنها ـ ما ذكره في الكافي : الايمان فوق الاسلام بدرجة . والتقوى فوق الايمان بدرجة . واليقين فوق التقوى بدرجة . ولم يقسم بين العباد شيء أقل من اليقين .

وقال تعالى : [واعبد ربك حتى يأتيك اليقين] (١) أي استمر على عبادة ربك ودراسة معرفته حتى يأتيك اليقين . وان ذكر المفسرون ايضاً ان اليقين هنا : الموت .

ومن فقرات كتاب امير المؤمنين الى ولده الحسن عليهما السلام من صفين (٢) : [فاني أوصيك بتقوى الله أي بني ولزوم امره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأي سبب اوثق من سبب بينك وبين الله ان انت اخذت به ، أحيي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوة اليقين .

الظاهرة الثانية

بعد ان ذكر سبحانه الظاهرة الأولى ، والبرهان المشهود على عظيم قدرته : [وفي الارض آيات للموقنين] يبدأ في الظاهرة الثانية : [وفي انفسكم أفلا تبصرون] . وهذا المخلوق الانساني هو العجيبة الكبرى في هذه الارض ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن اسراره الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الايمان ، وحين يُحرم نعمة اليقين .

---

(١) الحجر : ٩٩

(٢) ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٦٢

انه عجيبة في تكوينه الجسماني : في اسرار هذا الجسد عجيبة في تكوينه الروحي : في اسرار هـــذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره . وعجيبة في باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون واسراره وخفاياه .

وتزعم انك جسم صغير　　　وفيك انطوى العالم الاكبر

وحيثما وقف الانسان يتأمل عجائب نفسه ، إلتقى باسرار تدهش وتحير : تكوين اعضائه وتوزيعها وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف عملية الهضم والامتصـاص . عملية التنفس والاحتراق . دورة الدم في القلب والعروق . الجهاز العصبي وتركيبه وادارته للجسم . الغـــدد وافرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الاجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق .

وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب . وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الالباب . واسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة . . ادراكه للمدركات وطريقة ادراكها ، وحفظها ، وتذكرها هذه المعلومات والصور المخترعة . اين وكيف هذه الصور ، والرؤى ، والمشاهد كيف انطبعت ، واين وكيف تُستدعى فتجيء . . وذلك كله في الجانب المعلوم من هذه القوى . فاما المجهول منها فهو اكبر واكثر تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات واشراقات تدل على ماوراء الظاهر من المغيب المجهول .

ثم اسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه . خليـة واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص . وتحمل معها خصائص الابوين والاجداد القريبين . فاين تكون هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة وكيف تهتدي بذاتها الى طريقها التاريخي الطويل ، فتمثله أدق تمثيل وتنتهي الى إعادة هذا الكائن الانساني العجيب .

وان وقفة امام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الارض ، وهو ينفصل عن أمه ، ويعتمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة .

ان وقفة امام هذه اللحظة وامام هـذه الحركة لتدهش العقول ، وتحير الألباب ، وتغمر النفس بفيض من الدهش ، وفيض من الايمان لا يقف له قلب ، ولا يتماسك له وجدان .

وان وقفة أخرى امام هذه اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات . بل امام النطق ذاته : نطق هـــذا اللسان . وتصويت تلك الحنجرة . انها عجيبة . عجيبة تفقد وقعها . لانها تمر بنا كثيراً . ولكن الوقوف امامها ، لحظة في تدبر يجدد وقعها . انها خارقة . خارقة مذهلة تنبىء عن القدرة التي لا تكون الا لله .

وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقفنا امام خارقة من الخوارق لا ينقضي منها العجب : [وفي انفسكم أفلا تبصرون] . وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومرآت ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر ابداً على مدار الدهر .

ولا نظير له بين ابناء جنسه لا فى شكله وملامحه ، ولا في عقله ومداركه ، ولا في روحه ومشاعره ، ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره .

ففي هذا المتحف العجيب الذي يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبيعة فريدة لا تتكرر . يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر كما لا توجد بصمة اصابع مماثلة لبصمة اصابع اخرى في هذه الارض في جميع العصور .

وكثير من عجائب الجنس البشري ، مكشوفة للبصر ، تراه العيون : [وفي انفسكم أفلا تبصرون] : وما تراه العيون من عجائبه يشير الى المغيب المكنون . وهذه العجائب لا يحصرها كتاب . فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله الى مجلدات . والمجهول منها مايزال اكثر من المعلوم والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها . ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الالهي المعروض للابصار والبصائر . وليقض رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر ، وفي متاع رفيع ، بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن في ذاته ـ نفسه ـ وهو عنه غافل مشغول.

وانها للحظات ممتعة حقاً ، تلك التي يقضيها الانسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم ، وحركاتهم ، وعاداتهم . بعين العابد السائح الذي يجول في متحف من ابداع احسن الخالقين . فكيف بمن يقضي عمره كله في هذا المتاع الرفيع .

ان القرآن بمثل هذه اللمسة يخلق الانسان خلقاً جديداً ، بحس جديد ، ويمتعه بحياة جديدة ، ويهبه متاعا لا نظير له ، في كل مايتصوره في الارض من متاع . وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والادراك يريد القرآن الناس .

والايمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهيىء له هذا المتاع العلوي . وهو بعد في الارض ـ في عالم الطين ـ .

وبعد ان كانت اللفتة الأولى الى معرض الارض ، وكانت اللفتة الثانية الى معرض النفس ، ثم تلتهما في السورة لفتة الى معرض الغيب العلوي المطوي ، حيث الرزق المقسوم ، والحظ المرسوم : [وفي السماء رزقكم وما توعدون] وهي لفتة عجيبة ، فمع ان اسباب الرزق الظاهرة قائمة في الارض ، حيث يكد فيها الانسان ويجهد ، وينتظر

من ورائها الرزق والنصيب . فان هذا القرآن يرد بصر الانسان ، ونفسه الى السماء . الى الغيب . الى الله . ليتطلع هناك الى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . اما الارض وما فيها من اسباب الرزق الظاهرة فهي آيات للموقنين ، آيات ترد القلب الى الله ليتطلع الى الرزق من فضله ويتخلص من اثقال الارض ، واوهاق الحرص ، والاسباب الظاهرة للرزق فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع الى المصدر الاول الذي انشأ الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ، ويفهمها على وضعها ويعرف ان المقصود بها ليس هو اهمال الارض واسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها ، انما المقصود هو الا يعلق نفسه بها . وإلا يغفل عن الله في عمارتها . ليعمل في الارض وهو يتطلع الى السماء . وليأخذ بالاسباب وهو يستيقن انها ليست هي التي ترزقه ، فرزقه مقــدر في السماء ، وما وعده الله لابد ان يكون .

بذلك ينطلق قلبه من اسار الاسباب الظاهرة في الارض ، بل يرف باجنحة من هذه الاسباب الى ملكوت السماوات . حين يرى في الأسباب آيات تدله على خالق الاسباب ، ويعيش موصولا قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتتان على الأرض .

فهكذا يريد الله لهذا الانسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبله من الطين ، ونفخ فيه من روحه فاذا هو مفضل على كثير من العالمين .

والايمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الانسان في افضل حالاته ، لانه يكون حينئذ في الحالة التي انشأه الله لها . ـ فطرة الله التي فطر الناس عليها ـ قبل ان يتناولها الفساد والانحراف .

وبعد هذه اللمسات الثلاث : في الارض ، والنفس ، والسماء يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله : فورب السماء والارض انه لحق مثلما انكم تنطقون] . . . وكونهم ينطقون ، حقيقة بين ايديهم لا يجادلون فيها ولا يمارون ، ولا يرتابون فيها ولا يخرصون . وكذلك هذا الحديث كله ، والله اصدق القائلين . هذا هو المقطع الأول من السورة .

اما المقطع الثاني فيشمل تلك الاشارات الى قصص ابراهيم ولوط وموسى عليهم السلام ، وعاد ، وثمود ، وقوم صالح ، وقوم نوح (ع) وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبط كذلك بما بعده في سياق السورة . انها آية او آيات في تاريخ الرسالات ، كتلك الآيات التي اشار اليها في الارض والانفس ، وانها وعد او وعود تتحقق من تلك الوعود التي اشار اليها في المقطع السابق .

ثم يأتي المقطع الثالث في السورة : [والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ، والارض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر اني لكم منه نذير مبين] . انها عودة الى المعرض الكوني الذي افتتحت به السورة ، في صورة من صوره الكثيرة التي يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد في الاشارات الى آيات هنا وهناك يصل آية نوح بآية السماء وآية الارض ، وآية الخلائق . ثم يخلص بها الى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا الى الله موحدين متجردين :

[والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون] . والأيد - القوة - أي بقوتنا وقدرتنا . والقوة اوضح ما ينبىء عنها بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق بأي مدلول من مدلولات السماء . سواء كانت تعني مدارات

النجوم والكواكب . ام تعني مجموعة من المجموعات النجمية التي يطلق عليها اسم المجرة : وتحوي مئات الملايين من النجوم . ام تعني طبقة من طبقات هذا الفضاء الذي تتناثر فيه النجوم والكواكب . . ام غير هذا من مدلولات كلمة السماء .

واما معنى ـ السعه ـ (١) فكذلك ظاهر فهذه النجوم ذات الاحجام الهائلة والتي تُعد بالملايين كلها سابحة في هذا الفضاء ، وهي لا تعدوا ان تكون ذرات متناثرة فيه بسرعة سيرها ولا يلتقي احـدها بالآخر طوال هذا الدهر .

ولعل في الاشارة الى السعة إيحاء آخر الى مخازن الارزاق التي قال عنها من قبل : انها في السماء ، ولو أن السماء هناك مجرد رمز الى ما عند الله . ومثلها الاشارة الى الارض الممهودة المفروشة : [والارض فرشناها فنعم الماهدون] . وقـد هُيئت الارض لتكون محضنا ميسراً ممهداً كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : [فنعم الماهدون] .

وُذكِرَ ايضاً (٢) : ان معنى ـ موسعون ـ . قادرون على خلق هو اعظم من هذا . وقد حققه وكشف عنه العلم الحديث : من ان هـذا الفضاء آخذ في توسع مستمر . يقول علماء الفلك : ان مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون من النجوم او اكثر . وان مابين النجوم ممتلىء بالغازات ومواد مختلفة . خلاف ماكان يتصوره بعض الناس قبل ذلك من الفراغ .

وان التحليل الطيفي للنجوم البعيدة جداً قـد دل بصورة قطعية على وجود الغاز الكوني بين النجوم والمجرات بحالة تخلخل شديد جداً .

---

(١) كما في ظلال القرآن للسيد قطب

(٢) في ـ التكامل ـ ج ٣ ص ٦٥

- وثبت ان النجوم كلها متحركة - [كل يجري لاجل مسمى] (١) وان مواضعها بالنسبة لبعضها الآخر قد تغيرت .

وقد علم ان متوسط سرعة النجوم في حركتها الى جهات شتى : هو عشرون كيلومتر في الثانية والشمس مع سياراتها - عطارد - الزهرة -- الارض - - المريخ - المشتري - زحل - . . وتوابعها من اقمار تتحرك بالسرعة الهائلة سبعين الف كيلومتر في الساعة تقريباً على شكل - لولبي - نحو نجمة في السماء تسمى -- بالنسر الواقع -- او السماك الرامح - وتتحرك بسرعة اخرى في فلك حول مركز المجرة .

والمجرة : هي منطقة طويلة من النجوم تمتد فوق رؤسنا كالقوس ويمتد من افق الى افق وقد تركزت فيها النجوم اكثر تركز وتكثفت فيها بعضها فوق بعض اكثر تكثف . او هي كالطريق في السماء ازدحم بسالكيه ازدحاماً (٢) وان في السماء مثل هذه المجرة التي فوق رؤسنا مجرات لا تُعد ولا تُحصى .

وقد دلت الابحاث على ان نجوم كل مجموعة في المجرة ، فضلا عن دورانها في افلاك بعضها حول بعض تتحرك بحركة مشتركة حول المحور الاصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرة .

وان المجرات تتباعد بعضها عن بعض باستمرار سيرها وسرعته العظيمة التي تقدر بآلاف الأميال في الثانية الواحدة .

فعلم ان الفضاء يتمدد بين المجرات ويتسع باستمرار . وان هذا التمدد يُقدر بمائة وخمسة اميال في الثانية الواحدة . وعلم ان حجم

---

(١) الزمر : ٧

(٢) وحيث ان سالكيه : النجوم فيتحد التعريفان المذكوران - للمجرة - التعريف السطحي ، والتحليلي .

الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة امثال حجمه منذ بداية تمدده .

ولقد امكن باستعمال أجهزة خاصة - التعرف - الى نجوم قد ارسلت ضوءها منذ ملايين السنين ولكنه لم يصل الينا لحد الآن .

وقد دل الحساب الرياضي من المشاهدة الدقيقة : على ان ابعاد المجرات الخارجية عن مجرتنا مذهلة . اذ وجدوا ان اقربها منا ويدعى - سديم - يبعد ستمائة وثمانين الف سنة ضوئية . ثم تزيد ابعاد المجرات بعد ذلك الى ملايين ، ثم عشرات الملايين ، ومئات الملايين من السنين الضوئية .

فما اوسع فضاء هذا الكون ، وما اعظم خالقه ، فعلينا ان نتصور سعة الكون الذي خلقه الله وهو يتسع يوما بعد يوم .

وقد علم ايضاً ان في الفضاء منظومات شمسية تُعد بالملايين تشبه نظامنا الشمسي - أي أن كلاً منها سيارات فتقت منه ، وتدور حوله وتوابع ، واقمار - . . .

فتأمل كيف تتحقق الآية بمعناها الاستقبالي - موسعون -- وقد نزلت في زمان لم تكن فيه مراقب -- تلسكوبات -- ولم يكن احد يعلم ان هذه السماء تتوسع يوما بعد يوم بنظام خاص اودعه الله فيها وطاقات هائلة جهزها به .

فقد حدث انفجار في الشمس (١) قدرت الطاقة المنفصلة ، فكانت تعادل مائة مليون قنبلة -- هيدروجينية - مع العلم ان طاقة قنبلة -- هيدروجينية -- تعادل طاقة الف قنبلة ذرية والقنبلة الذرية -- لا تبقى ولا تذر -- فسبحان الذي خلق هذه الطاقات الهائلة ، وشكلها كما يشاء بحكمته ، واودع فيها من النُظم والقوانين والمعادلات

(١) سنة ١٩٥٦ م

كما اراد بتدبيره ، وهو القائل : [ما اشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق انفسهم] (١) .

وان الانسان ليندهش حين يرى : ان علياً عليه السلام يجيب عندما يسأله السائل عن المسافة بين السماء والارض بقوله : [دعاء مستجاب] .

ذلك حيث ليس هناك عدد يمكن ان يُعبر به عن هذه المسافة التي لا يعلم مداها الا الله سبحانه الا ان يقال : .. دعاء مستجاب .. فان الله لا يخلو منه مكان وهو القائل : [ونحن اقرب اليه من حبل الوريد] (٢) [ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم ، اين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم] (٣) .

حقيقة أخرى من حقائق القرآن

ثم يعود سبحانه ببيانه للانسان من علوم القرآن فيقول : [ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون] . . وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الارض ، وربما في هذا الكون ، فان كلمة شيء تشمل غير الأحياء ايضاً . والتعبير يقرر ان الاشياء كالاحياء مخلوقة على اساس الزوجية .

وحين نتذكر ان هذا النص عرفه البشر منذ اربعة عشر قرناً . وان فكرة الزوجية حتى فى الاحياء لم تكن معروفة حينذاك ، فضلاً عن

(١) الكهف : ٥٢

(٢) ق : ١٦

(٣) المجادلة : ٧

عموم الزوجية لكل شيء . .

حين نتذكر هذا نجدنا امام امر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الكونية في هـذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير ، وقبل أوانها . اذ انها من العليم الخبير . واذ بالبحوث العلمية سائرة في طريق الوصول الى هذه الحقيقة ، وهي تكاد تقرر : ان بناء الكون كله يرجع الى الذرة ، وان الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء . .. موجب وسالب .. فقد تكون البحوث اذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص القرآني العجيب .

وعلى اضواء هذه العجائب من اجواء السماء ، وآماد الارض ، واعماق الخـلائق يهتف بالبشر ليفروا الى خالق السماوات والارض والخلائق متجردين من كل ما يثقل ارواحهم ويقيدها موحدين الله الذي خلق هذا الكون ، وحده لا شريك له : [ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر اني لكم منه نذير مبين] . .

والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحي بالاثقال والقيود ، والاغلال ، والاوهاق ، التي تشد النفس البشرية الى هـذه الارض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها ، وتأسرها ، وتدعها في عقال . وبخاصة اوهاق الرزق والحرص والانشغال بالاسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجيىء الهتاف قويا للانطلاق والتملص ، والفرار الى الله من هذه الاثقال والقيود .

ولاجل تذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العـذر يكرر عليهم التنبيه في آيتين متجاورتين : [اني لكم منه نذير مبين] ايضاً [اني لكم منه نذير مبين] زيادة فى التنبيه والتحذير .

وبعد الاشارة الاستطرادية بأن الانكار للرسل دأب الخلق حتى من

الماضيين منهم بقوله تعالى : [كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون] فهي جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين [فتول عنهم فما انت بملوم] .

الايقاع الاخير في السورة

وهنا يجيء الايقاع الاخير في السورة ويتضح معنى الفرار الى الله والتخلص من الاثقال ، وليربط آخر السورة بأولها في هدفها المنشود منها فيقول : [وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين] . وان هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة هي من اضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الارض بدون إدراكها واستيقانها سواء كانت فردا ام جماعة ، ام حياة الانسانية كلها في جميع ادوارها واعصارها . وانه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة التي تُعد حجر الاساس الذي تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة : ان هنالك غاية معينة لوجود الجن والانس تتمثل في وظيفة . فمن قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ، ومن قصر فيها او نكل عنها فقد ابطل غاية وجوده ، واصبح بلا وظيفة . وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الاصيل الذي تستمد منه قيمتها الأولى .

وقد انفلت من الناموس الذي خرج به الى الوجود ، وانتهى الى الضياع المطلق الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود الذي

يربطه ويحفظه ، ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة التي تربط الجن والانس بناموس الوجود : هي العبادة لله . او هي العبودية لله . . ان يكون هناك عبد ورب . عبدٌ يَعبد . ورب يُعبد . وان تستقيم حياة العبد كلها على اساس هذا الاعتبار .

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين ان مدلول العبادة لابد وان يكون اوسع واشمل من مجرد إقامة الشعائر : وما نسميه عبادة : من صلاة وصيام وحج و . .

فالجن والانس لا يقضون حياتهم في ذلك . والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم .

وقد لا نعرف نحن الوان النشاط التي يكلفها الجن ، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الانسان ، نعرفها من القرآن ، من قوله تعالى : [واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة] (١) فهي الخلافة في الارض وهي تقتضي الوانا من النشاط الحيوي في عمارة الارض ، والتعرف الى قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق ارادة الله في استخدامها ، وتنميتها ، وترقية الحياة فيها ، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الارض ايضاً .

فحقيقة العبادة تتمثل فى امرين رئيسيين .. الاول .. استقرار معنى العبودية لله فى النفس ، ومظهرها : اقامة الشعائر . ـ الثاني .. التوجه الى الله والتوكل عليه بكل حركة فى الضمير والنيـــة ، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة .

بهذا يتحقق معنى العبادة ويصبح العمـــل كالشعائر ، والشعائر

(١) البقرة : ٢٨

كعمارة الارض وعمارة الارض كالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد ، والرضى بقدر الله . كلها عبادة ، وكلها تحقيق للوظيفة الاولى التي خلق الله الجن والانس لها ، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل فى عبودية كل شيء لله دون سواه .

ولعله لهذا فسر بعضهم قوله تعالى : [ليعبدون] بيعرفون . لان من جعل كل حركاته وسكناته لله ، واداء لاوامره ، وانتظم بالناموس العام ، فقد عرف ان الكائنات كلها تسير وفق ارادة الله ، وهو منها . وبذلك فقد عرف الله . وعند اذن يكون قد فر الى الله حقا ، وفر من جواذب الارض ومغرياتها ، ويكون قد تحرّر بهذا الفرار . واستقر فى الوضع الاصيل : عبداً لله وحده ، وحقق غاية وجوده .

فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة : ان يقوم بالخلافة فى الارض وينهض بتكاليفها ، ويحقق اقصى ثمراتها ، وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ، خالص القلب من جواذبها ، ومغرياتها .

ذلك انه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لقصد ذاته هو . ولا للذاتها هي . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها . وقد تحقق ذلك . اثمرت له ذاته ام لم تثمر . ثم الفرار منها الى الله . ومن مقتضياته كذلك : ان تصبح قيمة الاعمال في النفس مستمدة من بواعثها ، لامن نتائجها . فلتكن النتائج ماتكون . فالانسان غير معلق بهذه النتائج ، انما هو معلق باداء العبادة فى القيام بهذه الاعمال .

ولأن جزاءه ليس فى نتائجها ، انما جزاؤه فى العبادة التي أداها ومن ثم يتغير موقف الانسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف ، والاعمال . فينظر فيها كلها الى معنى العبادة الكامل فيها .

ومتى حقق هذا المعني انتهت مهمته ، وتحققت غايته . ولتكن

النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة فى واجبه ، ولا في حسابه ، وليست من شأنه . انما هو قدر الله ومشيئته . وهو ، وجهده ونيته ، وعمله ، ايضاً جانب من قدر الله ومشيئته .

ومتى نفض الانسان قلبه من نتائج العمل والجهد فلن تبق في قلبه حينئذ بقية من الاطماع التي تدعوا الى التكالب والتخاصم على اعراض هذه الحياة .

فهو من جانب يبذل اقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق باعراض هذه الارض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها . لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

تغذية القرآن لهذا الاحساس

والقرآن يغذي هذا الاحساس ويقويه باطلاق مشاعر الانسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس .

فالرزق في ذاته مكفول ، تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب اليهم بطبيعة الحال ان يطعموه سبحانه - او يرزقوه جل شأنه - حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه : [ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين] .

لا كما قال اليهود : ان الله يستقرضنا لعوز . عندما سمعوا قوله تعالى : [من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً] (١) .

واذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة : هو

---

(١) البقرة : ٢٤٦

الحرص على تحصيل الرزق ، بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة في الجهد ، طليقا من التعلق بنتائج الجهد . . وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ضوء هذا التصور الكريم .

واذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ، ولا تتذوقها ، فذلك لانها لم تعش - كما عاش جيل المسلمين الاول - في كنف القرآن ، ولم تستمد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الانسان الى هـذا الافق .. افق العبادة .. اوأفق العبودية .. ويستقر عليه فان نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة : هي نصر دعوة الله ، وامتثال امر الله . ومن جهة اخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ الغايات ، انما يعني نفسه باداء الواجبات تحقيقا لمعنى العبادة في الاداء .

اما الغايات فموكولة لله ، يأتي بها وفق قدره الذي يريده مقرونة بالصالح الذي يعلمه . ولا داعي لاعتساف الوسائل للوصول الى غاية أمرها الى الله ، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله ، بل ليست داخلة في مقدوره ايضاً .

ثم على اثر ذلك يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال في جميع الاحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها تحققت كما قدرها وأمّلها ، ام على عكس ماقدرها ، فهو قد أنهى عمله ، وضُمن جزاؤه ، عند تحقق معنى العبادة ، واستراح .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة ، التي تقررها آية واحدة قصيرة : [وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون] .. وهي كفيلة بأن تغير وجـه الحياة كلها عندما تستقر حقاً في الضمير . وعلى هـذا المعنى من العبادة يمكن ان ينزل قول الحسين عليه السلام

مخاطباً ربه جل شأنه :

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فيقال انه (ع) : لم يترك الخلق . فيقال في الجواب : انه (ع) قصد بمراجعة الخلق ومزاولتهم : امتثال أمر الله تعالى بذلك . فهي اذن عبادة ، واتصال بالله . - ورؤية جوهرية منه (ع) له جل شأنه - .

وقد ورد في الحديث (١) : تتجلى العبادة في خمسة أشياء : خلاء البطن . تلاوة القرآن . صلاة الليل . التضرع عند الصباح . البكاء من خشية الله . والكل يرمي الى الاتصال بالله .

وفي ضوء هذه الحقيقة ، وفي ختام السورة : ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ، واستعجلوا وعد الله وكذبوا : [فان للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب اصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون] . والذنوب - الدلو - وهو كناية عن ان لهم مثل ما اصاب من قبلهم من الظالمين .

ايضاح معنى العبد المنسوب

الى الله تعالى

قيل : ان معنى - العين منه - : علمه بالله - والباء منه - : بَوْنُه عن الخلق - والدال منه - : دُنُوهُ من الله بلا اشارة ولا كيف . ومعنى ذلك : ان العبد لا يكون كامل العبودية الا اذا كان عارفا بالله سبحانه قريبا منه بالقرب المعنوي ، وبايناً من الخلق : بأن يكون فيهم وليس منهم . وذلك مستلزم لاستغراقه في طاعة معبوده ، اذ لولاه لما حصل له

---

(١) التكامل في الاسلام : ج ٥ ص ٢٨ .

التقرب ، ولا يتحصل له معنى العبودية .

ومن هنا قيل : ان حقيقة العبودية : عنوان لثلاثة امور . ان لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكا . لان العبيد لا يكون لهم ملك ، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث امرهم الله . ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً . ويكون جملة اشتغاله فيما امره الله تعالى ونهاه عنه . فاذا لم ير العبد فيما خوله الله ملكاً هان عليه الانفاق . واذا فوض العبد نفسه الى مدبرها هانت عليه مصائب الدنيا . واذا اشتغل العبد فيما امره الله به ونهاه عنه لا يتفرغ منهما الى المراء والمباهات مع الناس . فاذا اكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا تفاخرا وتكاثراً ، ولا يطلب عند الناس عزاً وعلواً ، ولا يدع ايامه باطلة ، فيكون تاركا لدنياه ، وفارغا لطاعة مولاه . واذا وصل العبد الى هذا المقام انكشفت له الحجب الغيبية ، وادركته الالطاف الربانية ، ويحصل له معنى العبودية .

والى هذا المعنى ينظر الحديث القدسي : [ان عبدي ليتقرب الي بالنافلة حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، ان دعاني أجبته ، وان سألني أعطيته .

ولما كان هذا المعنى غاية الكمال وصف سبحانه جملة من اوليائه به مادحاً لهم بذلك فقال سبحانه : [سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام] (١) . وقال : [عبداً من عبادنا] وقال : [نعم العبد أنه أواب] (٢) مع ان الناس كلهم عباده . ذلك لان عبودية الناس

---

(١) الاسراء : ١

(٢) سورة ص : ٢٩

المعنى العام ، وعبودية الممدوحين بالمعنى الخاص ـ الكامل ـ .

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن ابليس : [لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين] مع الذين يغويهم أيضاً من عباده تعالى فلا يبقى معنى للاستثناء لولا المعنى المبين سالفاً : الاخلاص فنسأل المولى بكرمه ان يجعلنا من عباده المخلصين انه أكرم الأكرمين .

تتابع السور - لتوفير العبر

بسم الله الرحمن الرحيم

[والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ، عذراً أو نذراً ، : ان ما توعدون لواقع ، فاذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت وإذا الرسل أُقتت ، لأي يوم أُجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك مايوم الفصل ويل يومئذٍ للمكذبين . .]

وتأتي هذه السورة على حذو سورة ـ والذاريات ـ جارية مجراها في اثبات وتثبيت العقيدة بوقوع يوم البعث ، والوقوف في يوم القيامة . حيث انها الأساس لبقيـة العقائد ، والركيزة للانتظام ، والمحور لتطبيق الأحكام .

وقد أكد سبحانه في عدة مواضـع من القرآن الكريم على تقرير هذه العقيدة في نفوسهم على اصولها . لأنها حجر الأساس في تصور الحياة الانسانية ، وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم

في كل شأن من شؤونها جميعاً . ومن ثم اقتضت هـذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول .

فالسورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الايقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار ، وهي توقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات تنفذ إليـه كالسهام المسنونة .

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض تلفح القلب المذنب لفحة نار : [ويل يومئذٍ للمكذبين] ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات . وهي لازمة ومناسبة لملامح السورة الحادة ، ومطابقـة لمقتضى المقام . كما كان على عكسها في سورة ـ الرحمن ـ من تكرار : [فبأي آلاء ربكما تكذبان] من التنبيه على معدد نعم الله تعالى .

فهو سبحانه يقسم في مطلع هـذه السورة على ان الوعد بالآخرة واقع وصيغة القسم توحي ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب وقواه المكنونة المؤثرة في هذا الكون ، وفي حياة البشر .

وقد اختلف المفسرون في حقيقة مدلولها فقال بعضهم : هي الرياح اطلاقاً . وقال بعضهم : الملائكة اطلاقاً . وقال بعضهم : ان بعضها يعني الرياح ، وبعضها يعني الملائكة .

التفسير

(والمرسلات عرفاً) : الملائكة . والمعنى هو القسم بالملائكة المرسلة ارسالاً متوالية ، كأنها عرف الفرس في ارسالها وتتابعها . وهكذا قيل

في العاصفات ، والناشرات ، والفارقات ، والملقيات : انها الملائكة .

وعن ابن مسعود : [فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ، عذراً أو نذراً] يعني : الملائكة فانها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق وانذار.

وتوقف ابن جرير - الطبري - في المرسلات عرفاً . هل هي الملائكة أو الرياح ، وقطع بأن العاصفات هي الرياح . وكذلك الناشرات التي تنشر السحاب في آفاق السماء .

ونحن نلمح ان التهويل بالتجهيل ملحوظ مقصود في هذه الامور المقسم بها . كالشأن في - الذاريات ذروا - وفي النازعات غرقا - وان هذا الاختلاف من المفسرين دليل على ابهامها ، وان الابهام عنصر أصيل فيها في موضعها هذا . لأنه بذاته مما يحدث هزة شعورية ، وانتفاضة تطلعية ، وهما أليق شيء بموضوع السورة : التنبيه من السنة - قبل حلول الأجل .

ثم تتابعها المقاطع العشرة بهزاتها . كالذي يمسك بخناق أحد فيهزه هزاً ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن أي ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعد والتهديد : [ويل يومئذٍ للمكذبين] بعد كل فصل إلى أن يستوفي عشر مرات منها . [فاذا النجوم طمست] وذهب نورها . [وإذا السماء فرجت] أي شُقّت . [وإذا الجبال نسفت] فكانت هباء .

وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى من القرآن وكلها توحي بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، المنظوم انفراطاً مصحوباً بقرقعة ، ودوي ، وانفجارات هائلة . لا عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستهولونها ، ويُروّعون بها : من أمثال الزلازل والبراكين ، والصواعق . . وما إليها . فهذه أشبه شيء حين تُقاس

بأهوال يوم الفصل ـ بلعب الأطفال ـ التي يفرقعونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية ، والهيدروجينية . وليس هذا سوى مثل للتقريب وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو اكبر من التصور البشري .

وإلى جانب هذا الهول الشديد في مشاهد الكون تعرض السورة أمراً عظيماً آخر مؤجلاً إلى هـذا اليوم : [لأي يوم أُجّلت] . . فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال ، فالرسل قد أُقتتت لهذا اليوم ، وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السماوات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المتعلقة في الحياة الأرضية والقضاء بحكم الله فيها ، واعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون . وفي التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحي بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الادراك : [وإذا الرسل أقتت ، لأي يوم أُجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل] . . وظاهر من هذا الاسلوب انه يتحدث عن أمر هائل جليل .

فاذا وصل هذا الايقاع إلى الحس بروعته وهوله الذي يرجح هول النجوم المطموسة ، والسماء المشقوقة ، والجبال المنسوفة ، ألقى بالايقاع الرعيب ، والانذار المخيف : [ويل يومئذ للمكذبين] . وهذا الانذار من العزيز الجبار في مواجهة الهول السائد في الكون ، والجلال الماثل في مجلس الفصل بمحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير في الموعد المضروب لهم . . فله وزنه ، وله وقعه المزلزل الرهيب .

ويعود بهم من هـذه الجولة في أهوال يوم الفصل ، إلى جولة في مصارع الغابرين الأولين والآخرين ليأخذوا حذرهم : [ألم نهلك الأولين

ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذبين] . هكذا في ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود ، وفي ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تتبدى المصارع ، والاشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقاً بسنة الله في الوجود [كذلك نفعل بالمجرمين] فهي السنة الماضية التي لا تحيد . وهي ليست من الظالمين ببعيد .

وبينما المجرمون يتوقعون مصرعاً كمصارع الاولين والآخرين ، يجيء الدعاء بالهلاك ، ويجيء الوعيد بالثبور : [ويل يومئذ للمكذبين] .

ومن الجولة في المصارع والاشلاء إلى جولة في الانشاء والاحياء مع التقدير والتدبير للصغير والكبير : [ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين] . وهي رحلة مع النشأة الجنينية . طويلة وعجيبة يجعلها هنا على الاختصار ، في لمسات معدودة : ماء مهين . يودع في قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم . واجل مرسوم . وامام التقدير الواضح في تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يجيء التعقيب بالحكمة العليا التي تتولى كل شيء بقدره في إحكام مبارك جميل : [فقدرنا فنعم القادرون] . وامام هذا التقدير لا يفلت منه شيء يجيء الوعيد المعهود : [ويل يومئذ للمكذبين] . .

أمير المؤمنين (ع)

يجارى كلام رب العالمين

يوصف الجنين في بطن امه في بعض فقرات خطبتـه (١) : [أم هذا الذي انشأه في ظلمات الارحام وشغف الاستار (٢) نطفة دهاقا (٣) وعلقة محاقا (٤) وجنينا ، كما قال تعالى : [وإذ أنتم أجنة في بطون امهاتكم] (٥) وراضعا ، ووليداً ، ويافعاً ، ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، ليفهم معتبراً ، ويُقصر مزدجرا ، حتى إذا قام اعتداله ، واستوى مثاله . نفر مستكبراً ، وخبط سادراً (٦) ماتحاً في غرب هواه (٧) كادحاً سعياً لدنياه ، في لذات طربه ، وبدوات أربه ، لا يحتسب رزية (٨) ولا يخشع تقية ، فمات في فتنته غريراً . .] .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن عبد ربه ج ١ ص ١٤٠ الخطبة ٨٢ .

(٢) الشغف في الأصل اغلاف القلب استعاره للمشيمة .

(٣) دهاقا أي متتابعا . وقد تفسر : بالممتلئة ، أي ممتلئـة من جراثيم الحياة .

(٤) خفي فيها : أي ناقصة لم تتصور بعد بصورة الانسانية .

(٥) النجم : ٣٣ .

(٦) السادر : المتحير ، والذي لا يبالي ما صنع .

(٧) الغرب الدلو العظيمة : أي لا يستقي إلا من الهوى ، والماتح الذي ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو .

(٨) أي مغروراً .

وغرضه عليه السلام بذلك تحقير الانسان ببيان منتهى ضعفه في أطواره ، وعناية الباري في تكوينه ، وتهيئة رزقه ، حتى إذا اشتدت قوته ، وكمل عقله ، تمرد على ربه ، وظن به الظنون ، متبعاً لهواه ، كادحاً في دنياه ، ولم يعد ملتفتاً إلى مبدئه وأُولاه ، ولا مستعداً لنهايته وأُخراه ، بينما كان المطلوب منه عكس ذلك . وأن يدرك بكمال عقله نعمة ربه ، ويعبده حق عبادته ، ويشكره على عظيم منّته .

ثم يعود سبحانه بجولة في هذه الأرض ، وتقديره فيها لحياة البشر وايداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة : [ألم نجعل الأرض كفاتا أحياءً وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات ، وأسقيناكم ماء فراتا ، ويل يومئذ للمكذبين] . ألم نجعل الارض كفاتا (١) تحتضن بنيها أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسي شامخات : جبال ثابتات ، سامقات ، تتجمع على قممها السحب وتنحدر عنها مساقط الماء العذب ، أفيكون هذا إلا عن قدرة ، وتقدير ، وحكمه ، وتدبير . أفبعد هذا يكذب المكذبون : [ويل يومئذ للمكذبين] .

وبعد عرض تلك المشاهد ، وامتلاء الحس بالتأثرات التي تسكبها في المشاعر - ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء ، فتسمع الامر الرهيب للمجرمين المكذبين ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي كانوا به يكذبون ، في تأنيب مرير ، وإيلام عسير : [انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، إنطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب انها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جِمالة صُفر ، ويل يومئذ للمكذبين] ذهبوا طلقاء بعد الارتهان والحبس في يوم الفصل الطويل ،

---

(١) كفاتاً للعباد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتاً في بطنهم : أي تحوزهم وتضمهم ، وقيل الكفاتاً : أي وعاء

ولكن إلى اين انه انطلاق، خير منه الارتهان .. [إنطلقوا إلى ماكنتم به تكذبون] .. فهاهو ذا أمامكم حاضر مشهود : [انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب] .. انه ظل لدخان جهنم تمتـــد ألسنته في ثلاث شعب (١) ولكنه ظل خير منه الوهج : [لا ظليل ولا يغني من اللهب] انه ظل خانق ، لافح ، وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهـكم ، انطلقوا وانـكم لتعرفون إلى أين ، فلا حاجة إلى ذكر اسمها : [انها ترمي بشرر كالقصر (٢) كأنه جِمالة صُفر] فالشرر يتتابع في حجم البيت من الحجر .. وقد كانت العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر . فاذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك .

هذا هو الشرر فكيف اذن بالنار التي ينطلق منها ذلك الشرر . وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجيء التعقيب المعهود بعد كل مقطع : [ويل يومئذ للمكذبين] ..

ثم يستكمل المشهد بعد عرض الهول المادي في صورة جهنم ، بعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم : [هذا يوم لا ينطقون ،

---

(١) في مجمع البيان ج ١٠ ص ٤١٨ : سماها ظلاً . لسواد نار جهنم ، له ثلاث شعب تحيط بالكافر ، شعبة تكون فوقه ، وشعبة عن يمينه ، وشعبة عن شماله . وقوله : لا ظليل : أي غير مانع من الأذى بستره عنه . ولا يغني من اللهب . أي أنهم إذا استظلوا بذلك الظل حيث انهم يستدفعون بكل ما يتوهمون انه يدفع عنهم ، لم يدفع عنهم حر اللهب .

(٢) نفس المصدر أي ان الشرر المتطاير من النار عظمتـه مثل عظم القصر . والجمالة : الابل . وكونهـا صفر ليتم تشبيهها بالشرر لوناً وحجماً .

ولا يؤذن لهم فيعتذرون] . . فقد انقضى وقت الجدل ، ومضى وقت الاعتذار : [ويل يومئذ للمكذبين] . .

وفي مشاهد اخرى يذكر القرآن حسرتهم ، وندامتهم ، وحلفهم ، ومعاذيرهم - بما يعطي : انهم ينطقون ، فكيف يقول هنا : - لا ينطقون - والجواب : ان اليوم طويل . يكون فيه هذا ، ويكون فيه ذاك حسب المواقف . ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة لمناسبة في الموقف [هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فان كان لكم كيد فكيدون ، ويل يومئذ للمكذبين] هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين ، فتعاونوا ، فان كان لكم تدبير فدبروه ، وان كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ، ولا تدبير ولا قدرة . إنما هو الصمت الكظيم على التأنيب الأليم : [ويل يومئذ للمكذبين] . فاذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين إتجه الخطاب بالتكريم للمتقين لقضية التقابل . كما قال الأديب :

ضدان لما استجمعا حسنا   والضد يظهر حسنه الضد

[ان المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، انا كذلك نجزي المحسنين ، ويل يومئذ للمكذبين] . . ان المتقين في ظلال حقيقية في هذه المرة ، لا ظلال ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ، وفي عيون من ماء ، لا في دخان خانق يبعث الظمأ الحرور . [وفواكه مما يشتهون] . . وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع : [كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، انا كذلك نجزي المحسنين] فاتحاً الباب للداخلين ، مبيناً سبب ذلك النعيم والتكريم وتهيئته لكل عامل من العالمين : [ويل يومئذ للمكذبين] يقابل هذا النعيم والتكريم .

عرض للدنيا ـ قصيرة العمر

وهنا تعرض في خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التي طويت في السياق ، فاذا نحن في الأرض مرة اخرى ، وإذا التبكيت والترذيل يُوجّهان للمجرمين : [كلوا وتمتعوا قليلاً انكم مجرمون ، ويل يومئذ للمكذبين] . . وهكذا تختلط الدنيا والآخرة في فقرتين متواليتين ، وفي مشهدين معروضين كأنهما حاضران في أوان ، وان فرق بينهما أزمان وازمان ، فبينما كان الخطاب موجهاً للمتقين في الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين في الدنيا ، وكانما ليُقال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقفين . . وكلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار لتحرموا وتُعذبوا طويلاً في تلك الدار [ويل يومئذ للمكذبين] . .

وفي الحديث (١) : [مرارة الدنيا حلاوة الآخرة . حلاوة الدنيا مرارة الآخرة] . وفي حديث آخر : ان الله عز وجل قال : [وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي بين خوفين وأمنين : إذا خافني في الدنيا امنته في الآخرة . وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة] . وفي حديث آخر : [الدنيا مزرعة الآخرة . الدنيا ساعة . فلا تجعلها إلا طاعة] اشارة إلى قصر العمر فيها .

وفي الحديث (٢) مازوى الله عن المؤمن في هذه الدنيا خير مما عُجّل له فيها . قال بعض شراح هذا الحديث : أي ما نُحي من الخير والفضل عنه . وتصديق ذلك : ان الرجل منهم يوم القيامة يقول :

---

(١) التكامل ج ٣ ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٢) منهاج البراعة ج ٩ ص ٣٦٧ .

يا رب ان أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم : فنكحوا النساء ، ولبسوا الثياب اللينة ، وأكلوا الطعام ، وسكنوا الدور ، وركبوا المشهور من الدواب . فاعطنى مثل ما أعطيتهم . فيقول الله تبارك وتعالى : [ولكل عبد منكم ما اعطيت اهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى ان انقضت سبعين ضعفاً .

وقال الاديب في ذلك شعراً (١) :

أرى طالب الدنيا وان طال عمره ونال من الدنيا سروراً وأنعُما
كبانٍ بنى بنيانــه فأقامــه فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقال أبو عبد الله عليه السلام في رواية الكافي (٢) : أوحى الله عز وجل الى داود عليه السلام : [ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ، ثم تكيده السماوات والارض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن ، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته الا قطعت اسباب السماوات من يده ، واسخت الارض من تحته ، ولم أبال بأي واد يهلك] . وقال ابو جعفر عليه السلام (٣) : [مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز كلما زادت من القز على نفسها لفاً كان ابعد لها من الخروج حتى تموت غماً] . وقال عليه السلام : [اغنى الغنى من لم يكن للحرص اسيراً] .

الخلفاء - والاولياء

وحيث يجب ان يكون الوالي من قبل الخليفة ممثلاً له في عمله ،

(١) منهاج البراعة ص ٣٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٤١١ .

مرآتاً عنه في كماله ، فقد كتب امير المؤمنين عليه السلام لمحمد بن أبي بكر حين قلده مصر عهداً (١) استحسنا اثباته في هذا الكتاب لعموم فوائده أولاً ، ولمناسبة بعض فقراته لما نحن فيه ثانياً من ارتباط الدنيا بالآخرة واتصالهما .

قال فيه : [فاخفض لهم جناحك ، وألن لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم ، فان الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من اعمالكم والكبيرة ، والظاهرة ، والمستورة ، فان يعذب فأنتم اظلم ، وان يعفو فهو اكرم ، واعلموا عباد الله : ان المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخره ، فشاركوا اهل الدنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم اهل الدنيا في آخرتهم . .

نعم فانهم كما قال عليه السلام لانهم ملتذون بزهدهم . فقد روي ان زاهداً كان مع رفيق له في بعض الصحارى فأكلا كسرة يابسة ، واغترفا بأيديهما ماءً من بعض الغدران ، فقام فوضع رجليه في الماء فوجد برده فالتذ به ، وبالحال التي هو فيها ، فقال لرفيقه : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من العيش لحسدونا .

ثم قال عليه السلام : [سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، واكلوها بأفضل ما اكلت ، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون ، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ ، والمتجر الرابح ، أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم ، وتيقنوا انهم جيران الله غداً في آخرتهم ، لا تُرد لهم دعوة ، ولا ينقص لهم نصيب من لذة ، فاحذروا عباد الله الموت وقربه ، وأعدوا له عدته ، فانه يأتي بأمر

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٥ ص ١٦٣ .

عظيم ، وخطب جليل ، بخير لا يكون معه شر أبداً ، أو شر لا يكون معه خير أبداً ، فمن أقرب إلى الجنة من عاملها ، ومن أقرب إلى النار من عاملها ، وأنتم طرداء الموت ، ان أقمتم له أخذكم ، وان فررتم منه أدرككم ، وهو ألزم لكم من ظلكم ، الموت معقود بنواصيكم ، والدنيا تطوى من خلفكم . .] .

من كلام بعض الحكماء : الموت والناس كسطور في صحيفة يقرؤها قارىء ، ويطوي ما يقرأ فكلما ظهر سطر خفي سطر .

ثم قال عليه السلام : [فاحذروا ناراً قعرها بعيد ، وحرها شديد ، وعذابها جديد ، دار ليس فيها رحمة ، ولا تسمع فيها دعوة ، ولا تُفرّج فيها كربة ، وان استطعتم ان يشتد خوفكم من الله ، وان يحسن ظنكم به فاجمعوا بينهما ، فان العبد إنما حُسْنُ ظنه بربه على قدر خوفه من ربه ، وان احسن الناس ظناً بالله اشدهم خوفاً لله . .] .

وهذا الأمر من أرقى أحوال العبد مع ربه : وان يجمع بين الخوف والرجاء - قال علي بن الحسين عليهما السلام : لو انزل الله كتاباً انه معذب رجلاً واحداً لرجوت ان أكونه - هذا بالنسبة لطرف الخوف منه عليه السلام - : وانه راحم رجلاً واحداً لرجوت ان اكونه ، - هذا بالنسبة إلى طرف الرجاء منه عليه السلام - : أو انه معذبي لا محالة ما ازددت إلا اجتهاداً لئلا أرجع إلى نفسي بلائمة .

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده : [واعلم يا محمد اني قد وليتك اعظم اجنادي في نفسي : اهل مصر ، فأنت محقوق (١) ان تخالف على نفسك ، وان تنافح عن دينك ، ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر ، ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه ، فان في الله خلفاً

(١) اي انت جدير وحقيق وخليق .

من غيره ، وليس من الله خلف في غيره . .] .

اخذه بعض الصلحاء فقال لبعض الامراء الذي كان يراقب ملكه ان الله مانعك من الملك ، ولم يمنعك الملك من الله . وقالوا أيضاً : من ارضى الله بأسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن ارضى الناس بأسخاط الله وكله الله إلى الناس .

ثم قال عليه السلام : [صل الصلاة لوقتها الموقت لها ، ولا تعجل وقتها لفراغ ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال ، واعلم ان كل شيء من عملك تبع لصلاتك . .] .

ومن فقرات هذا العهد قوله عليه السلام : فانه لا سواء امام الهدى ، وامام الردى ، وولي النبي صلى الله عليه وآله - يعني نفسه - وعدو النبي صلى الله عليه وآله - يعني معاوية - ولقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : اني لا اخاف على امتي مؤمناً ولا مشركاً ، اما المؤمن فيمنعه الله بايمانه ، واما المشرك فيقمعه الله بشركه ، ولكني اخاف عليكم كل منافق الجنان . عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ماتنكرون]

كتابه (ع) الى ولده الحسن (ع) من صفين

وكتب عليه السلام الى ولده الحسن عليه السلام ومنه قوله : [احيي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة وقوه باليقين ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء ، وبصّره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر ، وفحش تقلب الليالي والأيام ، واعرض عليه اخبار الماضين ، وذكره بما اصاب من كان قبلك من الاولين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا ، وعما انتقلوا ، واين حلوا ونزلوا فانك تجدهم انتقلوا عن الاحبة

وحلوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فاصلح مثواك ولاتبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والخطاب فيما لم تُكلف وامسك عن طريق اذا خفت ضلالته ، فان الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الاهوال] .

قال الشاعر :

سَلْ عن الماضين ان نطقت عنهم الاجداث والتُرُكُ
اي دار للبلا نزلوا وسبيل للردى سلكوا

* * *

وقال ابو الطيب :

أين الجبابرة الاكاسرة الاولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

وقيل لحاتم الاصم : لو قرأت لنا شيئاً من القرآن قال نعم فاندفع فقرأ : [الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم - يكنزون -] . فقالوا أيها الشيخ ما هكذا أُنزل . قال : صدقتم ولكن هكذا انتم . والآية [ومما رزقناهم ينفقون] .

أقوال حكيمة في وصف الدنيا

قال بعضهم : لا وجه لمقاساة الهموم لاجل الدنيا ، ولا اعتداد بشيء من متاعها ، ولا التخلي عنها ، اما ترك الاهتمام لها فمن جهة انه لا سبيل الى دفع الكائن من مقدورها ، واما ترك الاعتداد بها فان مرجع كل احد الى تركها ، واما ترك التخلي عنها فان الآخرة لاتدرك الا بها

قال الشاعر :

أتراك تزيدك الايام حرصا على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية ان صرت يوما إليها قلت حسبي قد رضيت

الجواب لا .

وقال آخر :

ستباشر الترباء خدك وسيضحك الباكون بعدك
ولينزلن بك البلا وليخلفن الموت عهدك
وليفنينك مثل ما افنى اباك وجدّك
لو قد رحلت عن القصور وطيبها وسكنت لحدك
لم تنتفع إلا بفعل صالح قد كان عندك
وترى الذين قسمت ما لك بينهم حصصاً وكدك
يتلذذون بما جمعت لهم ولا يجدون فقدك

* * *

أقوال الحكماء على تابوت اسكندر

قال احدهم - حرّكنا بسكونه - . وقال الآخر : قد كان سيفك لا يجف ، وكانت مراقيك لا ترام ، وكانت نقماتك لا تؤمن ، وكانت عطاياك يُفرح بها ، وكان ضياؤك لا ينكشف ، فأصبح ضوءك قد خمد ، واصبحت نقماتك لا تُخشى ، وعطاياك لا تُرجى ، ومُراقيك لا يُمنع وسيفك لا يقطع .

وقال الآخر : انظروا إلى حُلُم المنام كيف انجلى ، والى ظل الغمام كيف انسرى .

وقال آخر : ما كان احوجه الى هذا الحلم ، والى هذا الصبر والسكون ايام حياته .

وقال اخر : القدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة ، طويت في ذراعين .

وقال اخر : أصبح آسر الاسراء أسيراً ،

وقاهر الملوك مقهوراً ، كان بالامس مالكاً فصار اليوم هالكاً .

قول رسول الله (ص) في الدنيا

قال رسول الله (ص) : [ليس لك من مالك الا ما اكلت فافنيت ، أو لبست فأبليت ، او تصدقت فأبقيت] . وقال امير المؤمنين عليه السلام (١) لرجل سأله ان يعظه [لاتكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويرجو التوبة بطول الامل : وقد بالغ عليه السلام فيها الى أن قال : يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم على ما يكره الموت من اجله . . اي يقيم على الذنوب نفسها .

وهذا من العجائب : ان يكره الانسان شيئاً ثم يقيم عليه ، ولكنه : الغرور ، وتسويف النفس بالاماني - الى ان قال عليه السلام فيها : تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن .

وهذه من كلماته العظام حيث ان الانسان المسلم يستيقن الحساب ، والثواب والعقاب ، ولا يغلب نفسه على مجانبة ومتاركة ما يفضي به الى ذلك الخطر العظيم ، وتغلبه نفسه على السعي الى ما يظن ان فيه لذة عاجلة ، او ترك ما يظن ان فيه ضرراً عاجلاً .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج١٨ ص ٣٥٦ .

فواعجباه ممن يترجح عنده جانب الظن على جانب العلم ، وما هو الا لضعف اليقين ، وحب العاجل .

الى ان قال عليه السلام فيها : [يخشى الموت ، ولا يبادر الفوت . . والى ان ختمها عليه السلام بقوله : [ويخشى الخلق في غير ربه ، ولا يخشى ربه في خلقه] .

وقيل لبعض الحكماء : ما بال الناس ضلوا عن الحق ، أتقول انهم لم تخلق فيهم قوة معرفة . فقال : بل خلق لهم ذلك ولكنهم استعملوا تلك القوة على غير وجهها ، وفي غير ما خلقت له ، كالسم تدفعه الى انسان ليقتل به عدوه ، فيقتل به نفسه .

ان من الشعر لحكمة

قال ابو العتاهية (١) :

تعلقت بآمال ... طوال أي آمال
واقبلت على الدنيا ... ملحاً اي اقبال
أيا هذا تجهز ... لفراق الاهل والمال
فلا بد من الموت ... على حال من الحال

وقال ابن المظفر المغربي :

دنياك دار غرور ... ونعمة مستعارة
ودار اكل وشرب ... ومكسب وتجارة
ورأس مالك نفس ... فخف عليها الخسارة
ولا تبعها باكل ... وطيب عرف وشارة
فان ملك سليمان ... لا يفي بشرارة

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٣ ص ١٠٠

وقال السيد الرضي :

يا آمن الدنيا بادر صرفها واعلم بان الطالبين حثاث

خذ من تراثك ما استطعت فانما شركاؤك الايام والوراث

لم يقض حق المال الا معشر نظروا الزمان يعيث فيه فعاثوا

وقال ابو العتاهية :

الا انما التقوى هي البر والكرم وحبك للدنيا هو الفقر والعدم

وليس على عبد تقي غضاضة اذا صحح التقوى وان حاك اوحجم

وقال آخر :

هذه الدنيا اذا صرفت وجهها لم تنفع الحيل

واذا ما اقبلت لِعَمٍ بصرته كيف يفتعل

واذا ما ادبرت لذكٍ غاب عنه السهل والجبل

فهي كالدولاب دائرة ترتقي طوراً وتستفل

ذكر (١) ان محمد بن طاهر كان يوماً فى قصر ببغداد على دجلة فاذن قد أتت بحشيش على وجه الماء فى وسطه قصبة ، على رأسها رقعة . فأمر بها فوجد فيها هذا الشعر :

تاه الأعيرج واستولى به البطر فقل له خير ما استعملته الحذر

احسنت ظنك بالايام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فلم ينتفع بنفسه الا اياماً ثم مات . لان الموعظة قد أثرت فى سويداء قلبه ، فكانت سبب موته . ولعدي بن زيد ، ابيات قد اتفقت الناس بوقتها على انها احسن ما قيل من القريض فى هذا المعنى وان

---

(١) ابن أبي الحديد ج١١ ص١٧١ .

الشعراء كلهم قد اخذوا منها ، واحتذوا فى هذا المعنى حذوها هي هذه :

ايهـا الشامت المعير بالد هر أأنت المبرء الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الأ يام بل انت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من ان يضام خفير
اين كسرى الملوك انوشر وان ام اين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور
واخو الاخضر اذ بناه واذ دج لة تجبى اليه والخابور (١)
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ملك عنه فبابه مهجور
شاده مرمراً وجللـــــه كلساً فللطير فى ذراه وكور
وتَبَيَّنْ ربَّ الخورنق اذ أشر ف يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبط ـة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأ مة(٢) وارتهم هناك القبور
ثم أضحوا كانهم ورق ج ف فالتوت به الصبا والدبور

امير المؤمنين (ع) - والشعرآء

من كلام له عليه السلام (٣) في صفة الدنيا . وقد ضمن ذلك الشعراء في نظمهم . قال عليه السلام : [ما اصف من دارٍ أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها

(١) نهر كبير في الجزيرة .

(٢) الأمة في اللغة : النعمة .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ج٦ ص٢٣٨ .

فتن ، ومن افتقر اليها حزن ، ومن ساعاها فاتته ، ومن قعد عنها واتته ، ومن ابصر بها بصرته ، ومن أبصر اليها اعمته] . ـ ساعاها ـ أي جارها سعيا . ـ واتته ـ طاوعته .

ونظر السيد الرضي الى قولـه عليـه السلام : اولها عناء وآخرها فناء . فقال شعراً :

واولها العناء اذا طلعنا الى الدنيا وآخرها الذهاب .

ونظر بعض الشعرآء الى قوله عليه السلام : في حلالها حساب وفى حرامها عقاب . فقال :

الدهر يومان فيوم مضى عنك بما فيه ويوم جديد
حلال يوميك حساب وفي حرام يوميك عذاب شديد
تجمع ما ياكله وارث وانت في القبر وحيد فريد
اني لغيري واعظ تارك نفسي وقولي من فعالي بعيد
حلاوة الدنيـا ولذاتها تكلف العاقل مالا يريد

ونظر ابن المعتز الى قوله عليه السلام :

ومن ساعاها فاتته ، ومن قعد عنها واتته فقال : ـ الدنيا كظلك كلما طلبته زاد منك بعداً ـ .

ونظر ابن ابي الحديد الى قوله عليه السلام : ومن ابصر بها بصرته ، ومن ابصر اليها أعمته . فقال شعراً :

دنياك مثل الشمس تدني اليـ ـك الضوء لكن دعوة المهلك
إن انت ابصرت الى نورها تعش وان تبصر بها تدرك

وقال الحسن لرجل : إن استطعت ان لا تسيىء الى من تحبه فافعل . قال الرجل : أو يسيىء المرء الى من يحبه قال : نعم نفسك احب النفوس اليك فاذا عصيت الله فقد أسأت اليها .

وكان مالك بن دينار اذا منع نفسه شيئاً من الشهوات قال : اصبري فوالله ما منعتك الا لكرامتك عليّ" وقال الشاعر فى بيان الحقيقة والواقع :

ان كنت تؤمن بالقيا   مة واجترأت على الخطية
فلقد هلكت وان   جحدت فذاك أعظم للبلية

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله فى الدنيا (١) : [كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب] .

عودة الى ختام السورة - والمرسلات -

وبعد ان ذكر سبحانه المجرمين وندد بهم ، وقابلهم بالمتقين ورحب بهم تحدث في ختام السورة وهو معجب من أمر القوم وهم يدعون الى الهدى فلا يستجيبون : [واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين] .. مع انهم يبصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير .: [فاي حديث بعده يؤمنون] والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال . لا يؤمن بحديث بعده ابداً . انما هو الشقاء والتعاسة ، والمصير البائس ، والويل المدخر بعد كل فصل لهذا الشقي المتعوس ..

ان السورة بذاتها حملة لا يثبت لها قلب ، ولا يتماسك لها كيان ، فسبحان الذي نزل القرآن ، واودعه هذا السلطان ، في أبلغ بيان .

ولنكتف بهذا المقدار من موضوع - الآيات التكوينية - التي هي علم من علوم القرآن .. ونتناول علماً اخر من علومه ، وليكن موضوع القصص لما فيه من كثرة العبر لمن اراد ان يعتبر .

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد ج٦ ص٢٦٣ .

القرآن والقصص

ذكرنا في المقدمة ان القصة القرآنية تختلف عن القصص الاخرى باهدافها وغاياتها بالرغم من محافظتها على اسلوب القصة ، وانها تكهرب السامع وتجذبه لاستماعها . وفي ضمن هذا النهج تزج في ذهن السامع اغراضها الحيوية ، وبراهينها القطعية ، فاذن بالسامع المنهزم ، والعبد الآبق يعود الى مالكه باختيار ، بعد ادراك وإبصار .

فالقرآن بالتعبير الواحد يهدف الى اكثر من امر واحد ، ويضرب على اكثر من وتر فارد . ولنذكر ملتقطات من ذلك لتكون شاهد عيان ، وحاكم حس ووجدان . (١) قال تعالى : [الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون ، وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم ، من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون .

ثم قال : [ألم تر . .] وكانه حادث واقع منظور ، ومشاهد ، لأنه من الله جل شأنه ـ ومن اصدق من الله حديثاً ـ [الم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم إبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال آلا تقاتلوا ، قالو وما لنا ان لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ، وقال لهم نبيهم : ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك

(١) سوره البقرة الآية : ٢٤٣ .

علينا ونحن احق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ، قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم وقال لهم نبيهم : ان آية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ، فلما فصل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين امنوا معه قالو لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين ، تلك ايات الله نتلوها عليكم بالحق وأنك لمن المرسلين] .

* * *

ندرك قيمة هذا الدرس والمقطع من القرآن ، وما يتضمنه من تجارب الجماعات السابقة ، والأمم الغابرة حين نستحضر في انفسنا ان القرآن هو كتاب هذه الأمة الحي ، ورائدها الناصح ، وانه مدرستها المستمرة مع اجيالها . وان الله سبحانه كان يربي به الجماعة المسلمة الأولى وانه الرائد الحي الباقي بعد وفات الرسول صلى الله عليه واله لقيادة اجيالها ، واعدادها لدور القيادة الراشدة كلما اهتدت بهديه ، واستمسكت بعهدها معه ، واستمدت منهج حياتها منه ، واستيضاح متشابهاته من قرينه وعدله : اهل بيت نبيها : [أني مخلف فيكم الثقلين :

كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي] ،

فهو دستور شامل للتربية - للحياة العلمية وللحياة العملية - . ومن ثم تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها على ضوء - قصص الماضين - .

وقد اكثر من قصص بني اسرائيل لعلمه تعالى بان اجيالاً من هذه الأمة ستمر بادوار كالتي مر فيها بنو اسرائيل ، وتقف من دينها وعقيدتها شبيهة بمواقف بني اسرائيل ، فعرض عليها مزالق الطريق مصورة في تاريخ بني اسرائيل لتكون لها عظة وعبرة ، ولترى صورتها في هذه المرآت المرفوعة لها بيد الله سبحانه قبل الوقوع في تلك المزالق .

التدبر في القرآن

ان هذا القرآن ينبغي ان يقرأ ويتدبر على انه توجيهات حية تتنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم ، ولتنير الطريق الى المستقبل . لا على انه كلام جميل يرتل ، او على انه سجل لحقيقة مضت ولن تعود . وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد ، سنجد عباراته ، وتوجيهاته تشير الى معالم الطريق ، وتقول لنا : هذا فافعلوه ، وهذا فلا تفعلوه . وتقول لنا : هذا عدو لكم ، وهذا صديق . وتقول لنا : فاتخذوا من الحيطة كذا ، ومن العدة كذا . وتقول ، وتقول ...

هذا الدرس يعطينا تجربتين من تجارب الأمم يضمهما الى ذخيرة هذه الأمة من التجارب ، ويعد بهما الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف بسبب قيامها بدورها الكبير ، بوصفها هي وارثة العقيدة الايمانية ، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصيب .

تجربتان يقصهما القرآن درساً للأمة "المسلمة"

- الأولى - تجربة لايذكر القرآن اصحابها ، ويعرضها في اختصار كامل ولكنه واف بالغرض. فهي تجربة جماعة : [خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت]. فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر، وادركهم قدر الله الذي خرجوا حذراً منه . فقال لهم الله : (موتوا) . (ثم أحياهم) . لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت ، كما انهم لم يبذلوا جهداً في استرجاع الحياة . فما بذلوا فيه لم ينفع ، وما لم يبذلوا له قد رجع . وانما هو قدر الله في الحالين .

وفي ضوء هذه التجربة يتجه الى الذين آمنوا يحرضهم على القتال . وعلى الانفاق في سبيل الله، واهب الحياة وواهب المال والقادر على قبض الحياة والقادر على قبض المـال . فالهلع لا يرد قضاء ، والفزع لا يحفظ حياة . لأنها بيد الله وقد وهبها لهم من غير جهد منهم في حين ان جهدهم لم يرد الموت عنهم . اذن فلا نامت اعين الجبناء .

وهكذا الكلام في الانفاق، وهو ثاني مقومات الجهاد. يحدثنا اهل السير بالاجماع عن موقف امير المؤمنين عليه السلام في موقعة - احد - وذبه عن رسول الله صلى الله عليه واله ووفائه ببيعته له بينما قد فر أصحابه عنه صلى الله عليه واله تاركيه غرضاً للكتائب ، وفيها ألد اعدائه . وقد كان ذلك منهم نتيجة مكيدة - خالد بن الوليد - وهجومه براية الشرك على المسلمين من خلف ظهورهم من طريق الشعب ..

واعطف على ذلك موقفة في واقعه - خيبر - وفتحه الحصن بعد قتله لزعيمهم وقائدهم - مرحب - عندما قال رسول الله صلى الله عليه واله

: [والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، كراراً غير فرار لن يرجع حتى يفتح الله على يديه . وكان ذلك لما راى صلى الله عليه واله من جبن وجوه اصحابه ونكصهم برايته صلى الله عليه واله المنصورة يجبنون من معهم . وقس على ذلك سائر مواقفه المشهورة .

من هم القوم في الآية

قيل : انهم قوم من بني اسرائيل فروا من طاعون وقع في ارضهم . وقيل : فروا من الجهاد وقد كتب عليهم . وقيل : انهم قوم - حزقيل - ثالث خلفاء بني اسرائيل من بعد موسى عليه السلام . وكان اولهم - يوشع بن نون - وثانيهم - كالب بن يوفنا - وكان يقال له : ابن العجوز . وذلك ان امه كانت عجوزا فسألت الله الولد وقد عقمت فوهبه الله لها ، وان اسمه ذو الكفل بعد ان كان اسمه - حزقيل - لأنه كفل سبعين نبياً نجاهم من القتل وقال ، لهم : اذهبوا فاني ان قتلت كان خيراً من ان تقتلوا جميعاً ، فلما جاء اليهود وسألوا - حزقيل - عن الأنبياء السبعين فقال : انهم ذهبوا ولا ادري اين هم . ومنع الله ذا الكفل منهم .

القصة (١)

قيل : ان اسم القرية التي خرجوا منها هرباً - داوردان - قُبُل - واسط - وان ملكا من ملوك بني اسرائيل امرهم أن يخرجوا الى قتال

(١) مجمع البيان .

عدوهم فخرجوا وعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا: ان الارض التي نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع عنها فارسل الله عليهم الموت، وبقوا ثمانية أيام حتى انتفخت وأروحت اجسامهم. وقيل: خرج حزقيل فرأهم فبكى عليهم وقال: يارب كنت في قوم يحمدونك ويسبحونك فبقيت وحدي، لا قوم لي. فاوحى الله اليه: قد جعلت حياتهم اليك فقال حزقيل: [احيوا باذن الله]. فاحتيوا وعاشوا.

وسأل حمران بن اعين الباقر عليه السلام عنهم فقال: احياهم الله حتى نظر الناس اليهم. ثم أماتهم، أم ردهم إلى الدنيا. قال عليه السلام: لا بل ردهم إلى الدنيا حتى سكنوا الدور، واكلوا الطعام، ونكحوا النساء، ومكثوا ماشاء الله.

ويختم سبحانه هذه القصة - التجربة الاولى - بقوله: [ان الله سميع عليم]. أي سميع لاقوالكم، عليم بضمائركم ثم يعقبها بآية القرض (١) تطميناً للمنفقين حيث ان الانفاق هو الجزء المقوم للفتح كما اسلفنا. فلا فزع من الموت، ولا خوف من الفقر، ولا محيد عن الرجعة الى الله، ولا مفر من الجزاء.

- التجربة الثانية - في حياة بني اسرائيل من بعد موسى عليه السلام بعد ما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لاعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدى ربهم، وتعاليم نبيهم. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة، واستيقضت في قلوبهم العقيدة، واشتاقوا القتال، في سبيل الله: [إذ قالوا لنبي (٢) لهم إبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله]

---

(١) هي قوله تعالى: « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » البقرة: ٢٤١.

(٢) قيل: هو شمعون بن صفية، من ولد لاوي بن يعقوب. وقيل =

ومن خلال هـــذه التجربة كما يعرضها السياق القراني الموحي - تبرز عدة حقائق - تحمل ايحاءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل فضلا عما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين.

- وهذا معنى خلود القرآن ، وانه المجاري لكل الازمان - .

العبر البارزة من القصة

ان هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - بالرغم من كل ما اعتورها امام التجربة : من نقص ، وضعف ، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج من مراحل الطريق . فان ثبات حفنة قليلة من المؤمنين (١) عليها قد حقق لبني اسرائيل - نتائج - ضخمة جداً . فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل والذل تحت اقدام المتسلطين - العمالقة - ولقد جاءت لهم بملك داود عليه السلام . ثم ملك سليمان .

وهذه أعلى قمة وصلت اليهـا دولة بني اسرائيل في الارض ، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه . ولم يبلغوه حتى في عهد النبوة الكبرى - موسى عليه السلام - .

وكان هذا النصر ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام

= هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب . وقيل : هو اشمويل وهو بالعربية : اسماعيل عن اكثر المفسرين ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

(١) قيل : ان عدتهم كانت عدة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً .

وثبات حفنة قليلة عليها امام جحافل - جالوت - وفي خلال التجربة تبرز عظات اخرى جزئية كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين - منها - ان الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو اخذوا بمظهرها - فيجب ان يضعوها على محك التجربة قبل ان يخوضوا بها المعركة الحاسمة

فقد تقدم الملأ من بني اسرائيل من ذوي الرأي والمكانة فيهم إلى نبيهم في ذلك الزمان يطلبون اليه : ان يختار لهم ملكاً يقودهم الى المعركة مع اعداء دينهم الذين سلبوا ملكهم واموالهم ، ومعها مخلفات انبيائهم من آل موسى ، وآل هارون . فلما اراد نبيهم ان يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم : [هل عيستم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوا] استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماستهم الى الذروة وهم يقولون له . [وما لنا ان لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا] . .

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت ان انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة ، وكما يقول السياق بالاجمال : [فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم] . .

ومع ان لبنى اسرائيل طابعاً خاصاً في النكول عن العهد والنكوص عن الوعد ، والتفرق في منتصف الطريق . . الا ان هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الايمانية مبلغاً عالياً من التدريب . . وهي خليقة بان تصادف قيادة الجماعة المسلمة في اي جيل فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني اسرائيل .

عظة اخرى وهدف آخر

ـ ومنها .. ان اختيار الحماسة الظاهرة ، والاندفاع الفائـــر في نفوس الجماعات ينبغي ان لا يقف عند الابتلاء الاول . . فان كثرة بنى اسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد ان كتب عليهم القتـال استجـابة لطلبهم . ولم تبق الاقلة متمسكة بعهدها مع نبيها . وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة ووقوع علامة الله باختياره لهم ، ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات انبيائهم تحمله الملائكة . . ومع ذلك فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود بالمرحلة الاولى ، وضعفوا امام الامتحان الاول الذي اقامه لهم قائدهم : [فلما فصل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فانه مني ، إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم] . . وهذا القليل لم يثبت كذلك الى النهاية .

فامام الهول الحي ، امام كثرة الاعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم ، وزلزلت القلوب ، [فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] . .

وامام هذا تثبت الفئة القليلة المختارة . . اعتصمت بالله ووثقت وقالت : [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين] وهذه هي التي رجحت الكفة ، وتلقت النصر ، واستحقت العز والتمكين

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة وكلها واضحة في قيادة طالوت . تبرز منها خبرته بالنفوس . وعـــدم اغتراره بالحماسة الظاهرة ، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ، ومحاولته

اختيار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة ، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه .

ثم وهذا هو الاهم : عدم تخاذله . وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ولم يثبت معه في النهاية الا تلك الفئة المختارة . فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الايمان الخالص . ووعد الله الصادق للمؤمنين .

العبرة الاخيرة

والعبرة الاخيرة التي تكمن في مصير المعركة . . ان القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته . لانه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه الى الواقع الكبير الممتد الواصل . والى اصل الامور كلها . وراء الواقع الصغير المحدود .

فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة ، وتلقت النصر كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ، ما يراه الآخرون الذين قالوا : [لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] . . ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . انما حكمت حكماً آخر فقالت : [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين] ثم اتجهت لربها تدعوه : [ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين] وهي تحس ان ميزان القوى ليس في ايدي الكافرين ، انما هو في يد الله وحده ، فطلبت منه النصر ، وقد نالته من اليد التي تملكه وتعطيه . . وهكذا تتغير التصورات والموازين للامور عند الاتصال بالله حقاً وعندما يتحقق في القلب الايمان الصحيح .

وهكذا يثبت ان التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب اصدق

من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون . ولا نستوعب الأبحاث التي تتضمنها القصة . فالنصوص القرآنية - كما اعلمتنا التجربة - تفصح عن ابحاثها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن ، وبقدر حاجته الظاهرة فيه . ويبقى رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب في شتى المواقف ، وعلى طول الزمان على قدر مقسوم بمقتضى خلود الدين الاسلامي بخلود القرآن .

تفاصيل النصوص

ونلخص من هذا العرض العام تفاصيل النصوص : [الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ان الله لذو فضل على الناس ، ولكن اكثر الناس لا يشكرون] . رغم انا ذكرنا بعض الاقوال عن هؤلاء الالوف : من هم ، ومن اي ارض كانوا ، وفي اي زمان خرجوا ، ولِمَ خرجو . لم يتعرض القرآن ذلك . لأن القصص فيه محدد بما هو عبرة وعظة يراد مغزاها ، ولا تراد احداثها ، واماكنها ، وازمانها ، لأن تحديد ذلك لا يزيد هنا شيئاً على عبرة القصة ومغزاها وعطائها - الدرسي - انما يراد تصحيح التصور عن الموت والحياة ، واسبابهما الظاهرة وحقيقتها المضمرة . ورد الأمر فيهما الى القدرة المدبرة . والأطمئنان الى قدر الله فيهما . والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع ، فالمقدر كائن ، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف .. فهو واهب الحياة ، وهو آخذ الحياة وهو متفضل في الحالتين : حين يهب ، وحين يسترد ، وان مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك ، وان فضل الله عليهم متحقق في الاخذ والمنح .

سواء : [ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون] . ان تجمع هؤلاء القوم [وهم ألوف] وخروجهم من ديارهم [حذر الموت] لا يكون إلا في حالة هلع وجزع ، سواء كان هذا الخروج خوفاً من عدو مهاجم ، أو من وباء حائم .

ان هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئاً : [فقال لهم الله موتوا] . ولا يعني القرآن بيان سبب الموت ، وانما هو امر الله ، واثبات ان الجزع والفرار لم يغير المصير ، ولم يدفع قضاء الله ، وكان الثبات والصبر والتجمل اولى ، لو رجعوا لله . . [ثم احياهم] ونترك ما ذهب اليه المفسرون من اسباب الحياة ، ونقتصر على الغرض الخالد للقصة ، انما هو الأيحاء الذي يتلقاه القلب من هذا النص : ان الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم في حين ان جهدهم لم يرد عنهم الموت .

من اهداف القصة

ونعيد قولنا : اذن فلا نامت اعين الجبناء : [وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم] . . هنا ندرك طرفا من هدف القصة ، وندرك طرفا من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول ، وفي اجيالها جميعاً . ان لا يقعدن بكم حب الحياة ، وحذر الموت عن الجهاد في سبيل الله ، فالموت والحياة بيد الله ، قاتلوا في سبيل الله لا في سبيل غاية اخرى . وتحت راية الله ، لا تحت راية اخرى . . [واعلموا ان الله سميع عليم] سميع لأقوالكم ، عليم بنياتكم ، وليس هناك عمل ضائع عند الله . والجهاد فى سبيل الله : بذل وتضحية ، وبذل المال والانفاق فى سبيل الله يقترن فى القرآن غالباً بذكر الجهاد والقتال

لتوقف الفتح عليه أيضاً .

ولذا تجيء الدعوة إلى الانفاق في صورة دافعة ، ومشوقة : [من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون] (١) فالمال لا يذهب بالانفاق . إنما هو قرض

(١) في مجمع البيان المجلد الثاني ص ٣٤٩ في سبب نزول هذه الآية ان النبي صلى الله عليه وآله قال : من تصدق بصدقة فله مثلاها في الجنة فقال أبو الدحداح الانصاري واسمه عمرو بن الدحداح : يا رسول الله ان لي حديقتين ان تصدقت باحديهما فان لي مثليها في الجنة قال : نعم قال : وام الدحداح معي قال نعم : قال والصبية معي . قال : نعم فتصدق بأفضل حديقتيه فدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت الآية فضاعف الله له صدقته بألفي الف وذلك قوله : (أضعافاً كثيرة) قال فرجع أبو الدحداح فوجد أم الدحداح والصبية في الحديقة التي جعلها صدقة فقام على باب الحديقة وتحرج أن يدخلها فنادى يا ام الدحداح قالت لبيك يا أبا الدحداح قال : اني جعلت حديقتي هذه صدقة واشتريت مثلها في الجنة وام الدحداح معي والصبية معي قالت : بارك الله لك فيما شريت وفيما اشتريت فخرجوا منها وأسلموا الحديقة إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال النبي : كم نخلة متدل عذوقها لابي الدحداح في الجنة . وذكر ذلك في ـ الميزان ـ ج٢ ص٣١٠ عن الدر المنثور بسنده ، وعن تفسير العياشي . ثم ذكر عن كتاب المعاني . عن الصادق عليه السلام لما نزلت هذه الأية : [من جاء بالحسنة فله خير منها] قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم زدني . فانزل الله : [من جاء بالحسنة فله عشر امثالها] . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم زدني . فانزل الله : [من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً =

حسن لله مضمون عنده يضاعفه اضعافاً كثيرة يضاعفه في الدنيا مالاً وبركة وسعادة وراحة . ويضاعفه في الآخرة نعيماً ومتاعاً ، ورضا وقربى من الله ومردالأمر في الغنى والفقر إلى الله . لا إلى حــرص وبخل ، ولا إلى بذل وانفاق : [والله يقبض ويبسط] .. والمرجع إليه سبحانه في نهاية المطاف . فاين يكون المال والناس انفسهم راجعون بقضهم وقضيضهم إلى الله : [وإليه ترجعون] . . واذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله وليقدموا الارواح والاموال ، وليستيقنوا ان انفاسهم معدودة ، وان ارزاقهم مقدرة .

التطبيق

نعم والحق يقال : ان هذه العقيدة قد طبقها حق تطبيقها أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله . حيث أنهم ذرية سيد الكائنات ، والمختار من رب الأرض والسماوات ، والعالم بالسرائر والنيات . وقد غذاهم الرسول الاعظم بكل ما علمه من ربه الاكرم ، وفي مقدمتهم سيدهم أمير المؤمنين عليه السلام القائل : [لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً] . فقد كان عليه السلام إذا أراد القتال في سبيل الله : هلّل وكبّر ثم يقول (١)

من أي يوميّ أفِر أيوم ما قُدر أم يوم قدر

وكذلك أصحابه ، ومن تربوا بمدرسته : ومنهم ـ عمار بن ياسر ـ وهاك منظراً من ايمانه ، ومشهداً من عقيدته : كان يقول في حرب صفين

= كثيرة] . فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله : ان الكثير من الله لا يحصى . وليس له منتهى . أي انه لما علم ذلك لم يعد إلى طلب الزيادة

(١) اعيان الشيعة ج٣ ص١٦٢ ط٢ ـ بيروت لمؤلفه السيد محسن الأمين

ولعله في آخر يوم من عمره : (١) .

صدق الله وهو للصدق أهل ... وتعالى ربي وكان جليلا
رب عجل شهادة لي بقتل ... في الذي قد أحب قتلاً جميلا
مقبلاً غير مدبر ان للمقتـ ... ـل على كل ميتة تفضيلا
انهم عند ربهم في جنان ... يشربون الرحيق والسلسبيلا
من شراب الابرار خالطه المـ ... ـسك وكان مزاجه زنجبيلا

تضلعه بالعقيدة وتفانيه دونها

يكشف عن ذلك بقوله عندما أراد البراز : [اللهم انك لتعلم اني لو اعلم أن رضاك أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت ، اللهم انك تعلم اني لو اعلم : ان رضاك ان اضع ظبة سيفي في بطني ثم انحني عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت ، ولو اعلم اليوم عملاً هو ارضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين لفعلته] يعني - بالفاسقين معاوية وأتباعه - ونادى أين من يبغي رضوان ربه ، ولا يؤب إلى مال ولا ولد ، فأتته عصابة من الناس فقال : أيها الناس : اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبغون دم عثمان . والله ما اظنهم يطلبون دمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤها وعلموا لو ان الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها ، ولم يكن للقوم سابقة في الاسلام يستحقون بها الطاعة والولاية ، فخدعوا اتباعهم : بأن قالوا : قتل امامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون . ولولا هي ما بايعهم من الناس رجلان (٢) .

---

(١) و (٢) اعيان الشيعة ج٣ ص١٥٢ ط٢ - بيروت لمؤلفه السيد محسن الامين

من هو عمـــار ؟

وعمار هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله : [عمار جلدة ما بين عيني] . وقال صلى الله عليه وآله له : [تقتلك الفئة الباغية ، ويكون آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن] . وكان كما قال صلى الله عليه وآله له .

ويظهر من إلحاقه صلى الله عليه وآله لهذه الفقرة - آخر شرابك .. - وهي من المغيبات : ان تكون برهاناً على صدق الفقرة قبلها - تقتلك الفئة الباغية - .

الحسين - عليه السلام - بطل العقيدة والتضحية

وانه لغني عن البيان . ومما سارت به الركبان . فهو المتفاني في دعم دين الله ، والمضحي في الحفاظ على شريعة جده رسول الله صلى الله عليه وآله .

كما وانه قد عبد الطريق ، وانار السبيل ، على طول خط الزمان لطالبي الحق والعدل - ايجاباً - ولعاشقي الباطل والظلم - سلباً - . وعند ما صمم على الجهاد في سبيل الله اخذ يخاطب زمانه ويقول :

يا دهر أفٍ لك من خليل　　كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب وطالب قتيل　　والدهر لا يقنع بالبديل
وكل حي سالك السبيل　　ما أقرب الوعد من الرحيل
وانما الأمر إلى الجليل

ولما رأى تصميم القوم على قتله خطب خطبته المشهورة ، وأقام بها الحجة على القوم ، وقال في آخرها : الا قد اعذرت وانذرت ، ألا واني زاحف بهذه الاسرة ، مع قلة العدد وخذلان الناصر . وتمثل بابيات فروة بن مسيك المرادي :

فان نهزم فهزامون قدما ... وان نغلب فغير مغلبينا
وما أن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
فافنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك اذن خلدنا ... ولو بقي الكرام اذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا (١)

ثم قال عليه السلام : [أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى ، وتقلق بكم قلق المحور فاجمعوا أمركم وشركاؤكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إلي ولا تنظرون اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم .

.. هذه مظاهر العقيدة ، ودلائل الاتصال الوثيق بالله تعالى .. وقال عليه السلام وهو في حال البراز :

القتل أولى من ركوب العار ... والعار أولى من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري

ومن المطبقين ـ العباس ـ بن أمير المؤمنين عليه السلام . وهو اخوه وتلميذه . فيقول عندما حمل على القوم طالباً الفوز بالشهادة :

لا ارهب الموت اذا الموت رقا ... حتى أوارى في المصاليت لقا

---

(١) اعيان الشيعة ج٤ ص١١٤ .

انى أنا العباس اغدو بالسقا　　نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقى

ولا يخفى ما في قوله عليه السلام : نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا من الدلالة على تضحيته للدين والعقيدة لا للحمية ، والاخوة الصرفة .

اقوال الادباء في حتمية الموت

وحيث ان خوف الموت هو المؤخر عن كسب هذه المكارم . وهو امر وهمي حيث ان الله سبحانه وهو خالق الموت يقول : [إذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] (١) .

وعلى هذا الاساس جاءت اقوال الأدباء فمن الشعر المنسوب إلى محمد الامين بن هارون الرشيد (٢) .

يا نفس قد حق الحذر　　اين الفرار من القدر
كل امرىء ممـا يخا　　ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزما　　ن يغص يوماً بالكدر

* * *

وقال آخر :

هو الدهر قد جربته وعرفته　　فصبراً على مكروهه وتجلدا
وما لناس الا سابق ثم لاحق　　وفائت موتٍ سوف يلحقه غدا

* * *

---

(١) الاعرف : ص٣٢ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد : ص١٨٠ .

وقال آخر :

اينما قدمت صروف الليالي فالذي أخرت سريع اللحاق
غدرات الأيـام منتزعـات عنُقينا من أنس هذا العناق

* * *

وقال ابن نباته :

نعلل بالدواء إذا مرضنـا وهل يشفي من الموت الدواء ؟
ونختـار الطبيب وهل طبيب يؤخر ما يقدمه القضـاء ؟
ومـا أنفاسنا إلا حساب وما حركاتنا إلا فنـاء

* * *

وقال آخر :

وهوّن وجدي بعد فقدك انني إذا شئت لاقيت امرءاً مات صاحبه

* * *

وقال آخر :

فراقك كنت أخشى فافترقنا فمن فارقت بعدك لا أبالي

ومن الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام . وانه قاله يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله .

كنت السواد لنـاظري فبكى عليك النـاظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت احـاذر

الدنيا وغرورها

قال حكيم لاصحابه (١) مسكناً لهم عما يلاقونه من ضيق الدنيا

(١) ابن أبى الحديد ج٩ ص٢٨٨ .

أرضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا . وقيل في معناه شعراً :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا　ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما　استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقيل : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره . قال الشاعر :

وما المال والأهلون إلا وديعة　ولابد يوماً ان ترد الودائع

وقيل لابراهيم بن الادهم : كيف أنت ؟ فانشد :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا　فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وقال آخر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها　تنح عن خطبتها تسلم
ان التي تخطب غدارة　قريبة العرس من المأتم

وقال أبو نؤاس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت　له عن عدوٍ في ثياب صديق

وقالوا : الدنيا دار خراب . وأخرب منها قلب من يعمرها . والجنة دار عمران ، واعمر منها قلب من يطلبها . وقال يحيى بن معاذ : العقلاء ثلاثة ـ من ترك الدنيا قبل أن تتركه ـ وبنى قبره قبل أن يدخله ـ وأرضى خالقه قبل أن يلقاه ـ .

وإلى هنا تنتهي ـ التجربة الاولى ـ بما ذيلت به من شواهد الغرور بالدنيا ـ سلباً ـ والوثوق بلقاء الله ، وجريان القدر ـ ايجاباً ـ شعراً ، ونثراً .

التجربة الثانية ـ وتفاصيل نصوصها

وأبطالها بنو اسرائيل من بعد موسى عليه السلام :] ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوا ، قالوا : ومالنا إلا نقاتل في سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين] . . ـ الم تر ـ كأن القصة حادث واقع ، ومشهد منظور .

لقد اجتمع الملأ من بني اسرائيل من كبرائهم وأهل الرأي فيهم ـ إلى نبي لهم ـ وطلبوا إليه ان يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته [في سبيل الله . .] وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال وانه في سبيل الله بشيء بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ، ويقظة الايمان في نفوسهم وشعورهم بانهم أهل دين ، وعقيدة ، وحق ، وان اعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ، ووضوح الطريق امامهم للجهاد في سبيل الله .

وهذا الوضوح وهذا الحسم ، وهذا الجزم نصف الطريق إلى النصر فلابد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وان عدوه على الباطل ، ولابد أن يتجرد في حسه الهدف . . في سبيل الله . . فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه إلى أين يسير .

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة ، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر : [قال هل عيستم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوا] . . ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال ان فرض عليكم فانتم الآن في سعة من

الأمر . فاما اذا استجبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ، ولا سبيل بعدها الى النكول عنها . . انها الكلمة اللائقة بنبي والتأكد اللائق بنبي . فما يجوز أن تكون كلمات الانبياء واوامرهم موضع تردد ، أو عبث ، أو تراخ . وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة [قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا] .

ونجد أن الأمر واضح في حسهم ، مقرر في نفوسهم ، جازمون أن اعداءهم أعداء لله ولدين الله ، وقد أخرجوهم من ديارهم ، ، وسبوا أبناءهم . فقتالهم واجب ، والطريق الواحد الذي أمامهم هو القتال . ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم .

ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية : [فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم] وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات - اسرائيل - في نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولي عن الحق البين . .

ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الايمانية ، فهي سمة بشرية عامة ، لا تغير منها الا التربية الايمانية العالية الطويلة الأمد ، العميقة التأثير .

ومن ثم ينبغي للقيادة ان تكون منها على حذر ، وان تحسب حسابها في الطريق الوعر ، كي لا تفاجأ بها فيتعاظمها الأمر . فهي متوقعة من الجماعات البشرية التى لم تخلص من الاوشاب ، ولم تنصهر ، ولم تطهر من هذه الترسبات .

والتعقيب على هذا التالي : [والله عليم بالظالمين] . وهو تعبير يوحي بالاستنكار ووصم الكثرة التي تولت عن هذه الفريضة - بعد طلبها - وقبل ان تواجه الجهاد مواجهة عملية . . وصمها سبحانه بالظلم

فهي ظالمة لنفسها ، وظالمة لنبيها ، وظالمة للحق الذي خذلته وهي تعرف انه الحق ، ثم تتخلى عنه للمبطلين . ان الذي يعرف أنه على الحق ، وان عدوه على الباطل . كما عرف الملأ من بني اسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكاً ليقاتلوا ـ في سبيل الله ـ .. ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذي عرفه في وجه الباطل الذي عرفه انما هو من الظالمين المخزيين بظلمهم .. [والله عليم بالظالمين] ..

[وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم] . وفي هذه اللجاجة تنكشف سمة من سمات ـ اسرائيل ـ التي وردت الاشارات اليها كثيرة في هذه السورة .. لقد كان مطلبهم ان يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه ، ولقد قالوا : انهم يريدون ان يقاتلوا في سبيل الله ـ فهاهم أولاء ينغضون رؤوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ، ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذي بعثه الله لهم ـ ملكاً عليهم . لماذا لأنهم احق بالملك منه بالوراثة فلم يكن في نسل الملوك فيهم (١) ولأنه لم يؤت سعة من المال (٢) لتبرر تلك السعة التغاضى عن أحقية الوراثة .

وكل هذا غبش في التصور كما انه من سمات بني اسرائيل المعروفة ..

---

(١) لأنه كان من ولد بنيامين بن يعقوب ، ولم يكن من سبط النبوة ولا من سبط المملكة . وسمي طالوت لطوله .

(٢) قيل كان سقاءاً ،وقيل كان دباغاً .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره : [قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم] .. انه رجل قد اختاره الله .. فهذه واحدة . وزاده بسطة في العلم والجسم .. وهذه .. اخرى .. والله يؤتي ملكه من يشاء . وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء .. [والله واسع عليم] .. ليس لفضله خازن ، وليس لعطائه حد . وهو الذي يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها ..

وهذه أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش ، وان تجلو عنه الغبش .. ولكن طبيعة اسرائيل .. ونبيها .. يعرفها لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها . وهم مقبلون على معركة . ولابد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين : [وقال لهم نبيهم : ان اية ملكه أن يأتيكم التابوت (١) فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك

(١) روي عن أبي جعفر عليه السلام : انه التابوت الذي أنزل على أم موسى عليها السلام فوضعت فيه ابنها موسى وألقته في البحر خوفاً عليه من فرعون . وكان معظماً في بني اسرائيل يتبركون به . فلما حضر موسى عليه السلام الوفاة وضع فيه الالواح ، ودرعه ، وما كان عنده من آثار النبوة ، واودعه عند وصيه - يوشع بن نون .. وبنو اسرائيل في عز وشرف مادام فيهم ، حتى استخفوا به وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات ، فلما عملوا المعاصى رفعه الله عنهم .. وقيل كان في أرض التيه .. فرده الله عليهم تحمله الملائكة وفيه .. السكينة .. وهي الأمن والطمأنينة ، وكانوا يقدمونه على معسكرهم في حروبهم فيفتحوا و .. وقيل في تفسير .. البقية .. التي عبر عنها القرآن بقوله : [وفيه بقية =

آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين] . .

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة ، التي غلبوا عليها على يد نبيهم - يوشع - بعد فترة التيه ووفاة موسى عليه السلام قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون .

وقيل كانت فيه نسخة الالواح التي أعطاها الله لموسى عليه السلام على الطور . . فجعل لهم نبيهم علامة من الله ان تقع خارقة يشهدونها فيأتيهم التابوت بما فيه [تحمله الملائكة] فتفيض إلى قلوبهم السكينة وقال لهم : ان هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت . ان كنتم حقاً مؤمنين . .

وظاهر من السياق ان هذه الخارقة قد وقعت فانتهى القوم منها إلى اليقين ، وان كان الخبر استقبالياً . ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق . [فلما فصل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه قليلاً منهم] .

= من آل موسى وآل هارون . .] . انها رضراض الالواح ، وعمامة هارون . وقيل : التوراة وقيل غير ذلك .

الحكمة في اصطفاء الله ـ طالوت

وهنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . . انه مقدم على معركة ومعه جيش من امة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة .

فلابد اذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمـام القوة الظاهرة الغالبة . . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الارادة . الارادة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلي على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء .

فلابد للقائد المختار اذن ان يبلو ارادة جيشه ، ويختبر صموده وصبره : صموده أولا للرغبات والشهوات . وصبره ثانياً على الحرمـان والمتاعب . . واختبار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات ـ عطاش ـ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية . .

وصحت فراسته (١) شربوا وارتووا . وانفصلوا عنه لانهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم . وكان من الخير ومن الحزم

(١) في مجمع البيان ج٢ ص٣٥٥ كان سبب ابتلائهم بالنهر شكايتهم قلة الماء وخوف التلف من العطش . وقيل : انما أبتلوا بذلك ليصبروا عليه فيكثر ثوابهم ويستحقوا به النصر على عدوهم ، وليتعودو الصبر على الشدائد فيصبروا عند المحاربة ولا ينهزموا . أما النهر فقيل : هو مابين الاردن وفلسطين . وقيل : هو نهر فلسطين . وكذا ان كل من شرب منه عطش بعد ذلك . ومن اغترف غرفة روي ولم يعطش .

أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف لانهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة والجيوش ليست بالعدد الضخم . ولكن بالقلب الصامد ، والارادة الجازمة والايمان الثابت المستقيم على الطريق .

وقوع نظيره في جيش نبينا (ص)

فقد وقع نظيره لنبينا محمد صلى الله عليه وآله في غزوة ـ تبوك ـ ونكص بعض المسلمين عن الخروج معه صلى الله عليه وآله واستأذنوه في التخلف . وقد كشف سبحانه حقيقتهم ، وانه كان من الصالح تأخرهم وانفصالهم عن جيش المسلمين فقال تعالى : [ولو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً (١) ولأوضعوا خلالكم (٢) يبغونكم الفتنة] . الآية (٣)

من أهداف القصة (٤)

ودلت هذه التجربة على ان النية الكامنة وحدها لا تكفي ، ولابد من التجربة العملية ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها ودلت على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية

(١) خبالاً أي شراً وفساداً ، وقيل : غدراً ومكراً ، وقيل : عجزاً وجبناً .

(٢) أي لاسرعوا في الدخول بينكم بالتضريب والافساد والنميمة

(٣) سورة التوبة : يراجع للتفصيل مجمع البيان ج٥ ص٣٤ .

(٤) يراجع فصل القصة في القرآن في كتاب : ـ التصور الفني في القرآن ـ .

من جنده عند التجربة الأولى . . بل مضى في طريقه .

وهنا قد كانت التجربة قد غربلت جيش ـ طالوت ـ إلى حد . ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد : [فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] . . لقد صاروا قلة . وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته : بقيادة ـ جالوت ـ انهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا امام الواقع الذي يرونه باعينهم فيحسون انهم أضعف من مواجهته . انها التجربة الحاسمة . تجربة الاعتزاز بقوة أخرى اكبر من قوة الواقع المنظور .

وهذه لا يصمد لها إلا من استكمل ايمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع ايمانهم ، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم .

وهنا برزت الفئة المؤمنة . القليلة المختارة ، والفئة ذات الموازين الربانية : [قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين] . .

فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون انهم ملاقوا الله ، القاعدة ان تكون الفئة المؤمنة قليلة ، لانها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لانها تتصل بمصدر القوى ، ولانها تمثل القوة الغالبة ، قوة الله الغالب على أمره . القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزي الظالمين ، وقاهر المتكبرين وهم يكلون هذا النصر لله : [باذن الله] . . ويعللونه بعلة الحقيقة : [والله مع الصابرين] . . فيدلون بهذا كله على انهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . .

ونمضي مع القصة . فاذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التي

تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء وتستمد قوتها كلها من اذن الله وتستمد يقينها كله من الثقة في الله . ـ وانه مع الصابرين . . ـ

اذاً هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة الثابتة التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها . .

إذاً هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة ، بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهي تواجه الهول الرعيب : [ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت ، وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . .

حقيقة مقبول الدعاء

هكذا . . [ربنا أفرغ علينا صبراً] . . وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم ، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة ، واحتمالاً للهول والمشقة . [وثبت أقدامنا] . . فهي في يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد . [وانصرنا على القوم الكافرين] . . فقد وضح الموقف . . ايمان تجاه كفر . وحق ازاء باطل . ودعوة الى الله لينصر أولياءه المؤمنين على اعدائه الكافرين فلا تلجلج في الضمير ، ولا غبش في التصور ، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق .

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها : [فهزموهم باذن الله] ويؤكد النص هذه الحقيقة : [باذن الله] . . ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً ، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون ،

ولطبيعة القوة التي تجريه . .

ان المؤمنين ستار القدرة يفعل الله بهم ما يريد ، وينفذ بهم مايختار باذنه ليس لهم من الأمر شيء ، ولا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله يختارهم لتنفيذ ميشتئه فيكون منهم ما يريده باذنه . . وهي حقيقة خليقة بان تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين . . انه عبد الله ، اختاره الله لدوره . وهذه منة من الله وفضل . وهو يؤدي هذا الدور المختار ، ويحقق قدر الله النافذ . ثم يكرمه الله ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب . . ولو لا فضل الله ما فعل ، ولو لا فضل الله ما أثيب استحق هذا كله بالنية الطيبة ، والعزم على الطاعة ، والتوجه إلى الله في خلوص .

داود في دوره الجديد

ثم يبرز السياق : دور -- داود -- : [وقتل داود جالوت] (١)

---

(١) وكان من قصة داود . ما عن الصادق عليه السلام : ان الله أوحى إلى نبيهم : ان جالوت يقتله من يستوي عليه درع موسى عليه السلام وهو رجل من ولد ـ لاوي ـ بن يعقوب واسمه ـ داود ـ بن إيشا . ـ راع ـ وكان اصغر اخوته العشرة ، وبعث طالوت أبيه وطلبه منه وأعطاه الدرع ، فلما استوى عليه الدرع دون اخوته عينه طالوت للخروج إلى الجهاد ، وكان شجاعاً قوياً في بدنه . ولما برزوا لجالوت وجنوده وقف داود حذاء جالوت وهو راكب على الفيل فاخذ داود حجراً ورمى به في ميمنة جالوت فانهزموا ، وكذلك في ميسرته فانهزموا ، ورمى بثالث في جبهة -- جالوت -- فوصل إلى دماغه وخر إلى الأرض ميتاً —

وداود كان فتى صغيراً من بني اسرائيل .وجالوت كان ملكاً قوياً ، وقائداً مخوفاً (١) ولكن الله شاء ان يرمي القوم وقتذاك ان الأمور لا تجري بظواهرها وانما تجري بحقائقها يعلمها الله ، ومقاديرها في يده وحده ، فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا بعهدهم ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده . وقد أراد مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس : ان الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله ان يقتلهم (٢) .

وكانت هناك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله ، فلقد قدر ان يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني اسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود : [وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء] . .

- وقد كان ملكاً مخوفاً ولكن الله شاء ان يرى القوم وقتذاك : ان الأمور لا تجري بظواهرها ، وانما تجري بحقائقها ، وحقائقها يعلمها هو ، ومقاديرها في يده وحده ، فليس عليهم إلا ان ينهضوا بواجبهم ، ويوفوا لله بعهدهم ، ثم يكون ما يريده الله .

(١) يراجع للتفصيل مجمع البيان ج٢ ص٣٥٧ ط ايران .

(٢) كما كان من قتل علي عليه السلام -- لمرحب -- وقد تراجع عن مبارزته وجوه الصحابة . وكما كان من قتله لعمرو بن عبد ود العامري في غزوة الخندق وقد ندب له رسول الله صلى الله عليه وآله اصحابه ثلاث مرات ضامناً لهم بذلك الجنه فاحجموا كلهم ، وعلي عليه السلام ينتدب له في كل مرة حيث قد شاء الله ان يكون قتله على يده عليه السلام وهو صغير أيضاً والسير ضافية في ذلك .

وكان داود ملكاً نبياً وعلمه صناعة الزرد ، وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه من سور اخرى (١) .

أما في هذا الموضع فان السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة . . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة . ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللأرادة المستعلية ، لا للكثرة العددية . . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى . . انها ليست المغانم والاسلاب ، وليست الامجاد والهالات . . انما هو الصلاح في الارض ، وانما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر : [ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين]

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات ، وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار .

وهنا تنكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس ، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات . . ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعاً ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق ، إلى الخير والصلاح ، والنماء ، وفي نهاية المطاف . .

خلاصة حكمة الله تعالى فى دفعه الناس بعضهم ببعض

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض

---

(١) قال تعالى : [وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم] . . الأنبياء : ٨٠ .

ولو لا ان في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها ان تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتنفض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة وتظل أبداً يقظة عاملة مستنبطة لذخائر الأرض ، مستخدمة قواها واسرارها الدفينة . .

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء . يكون بقيام الجماعة الخيّرية المهتدية ، المتجردة تعرف الحق الذي بيّنه الله لها ، وتعرف طريقها إليه واضحاً ، وتعرف انها مكلفة بدفع الباطل ، واقرار الحق في الأرض .

وهنا يمضي الله أمره ، وينفذ قدره ، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا ، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية ، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه ، وأبلغها درجات الكمال المقدر لها في الحياة .

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية ، وتنتصر ذلك انها تمثل ارادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض وتمكين الصلاح في الحياة ، انها تنتصر لانها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة (١) : [تلك آيات الله

(١) ظلال القرآن المجلد الأول ص٢٣٣ . وقد ذكر صاحب تفسير الميزان في الجزء الثاني ص٣٠٧ بحثاً مفصلاً في معنى قوله تعالى : [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض الآية . .] مركزاً على الفطرة والطبيعة مقروناً بالحكمة والمصلحة العامة . بالاضافة إلى ماذكره في الجزء نفسه ص١١٥ في تفسير قوله تعالى : [كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما =

. . . .

= اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . .] من سورة البقرة : ٢١٣ بما له ربط وأساس لما ذكره في آية : [ولو لا دفع الله الناس . . الآية] لأن البحثين من موضوع واحد : وان الاختلاف اختلافان : أحدهما فطري ناشيء من حب الذات ومزاحمات التقدم ، والرغبة في الاستخدام . . وعليه يبتني معنى : ولولا دفع الله الناس . . . - وثانيهما - ناشيء من بغي أهل الكتاب كما هو منطوق الآية : وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه - أي الكتاب - بغياً بينهم . وحيث ان بحثه هنا موسع ويشتمل على عدة مواضيع : - بدء تكوين الانسان - تركبه من روح وبدن - شعوره الحقيقي وارتباطه بالاشياء - علومه العملية - جريه على استخدام غيره - كونه مدنياً بالطبع - حدوث الاختلاف بين أفراد الانسان - رفع الاختلاف بالدين - الاختلاف في نفس الدين - الانسان بعد الدنيا - عصمة الانبياء - النبوة - وحيث اني قد لخصت هذه المواضيع وطبعتها على صورة - ملازم - بلغت احدى وثلاثين صحيفة وادخلتها في منهج تدرسي - التفسير - للصف الرابع - كلية أصول الدين - وقد درستها من مدة ثلاث سنوات ، وحتى الآن هي مقررة للتدريس ، لما لاقت من اعجاب الكل : الهيئة والطلاب لهذا كله آثرت في هذا المقام نهج - ظلال القرآن : روما للاختصار ، وعدم التكرار . هذا أولاً ولمناسبة ما في الظلال قوياً لموضوع كتابنا هذا - وبحثنا هذا على الاخص : أهداف القصة . وبلاغة القرآن : وانه نظام للاجيال . ومن أراد الاطلاع على الملازم فهي موجودة في - الكلية المزبورة - .

نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين] تلك الآيات العالية المقام ، البعيدة الغايات : [نتلوها عليك] . الله تعالى هو الذي يتلوها وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الانسان حقيقته العميقة الرهيبة . . [نتلوها عليك بالحق . .] تحمل معها الحق ، ويتلوها من يملك حق تلاوتها وتنزيلها ، وجعلها دستوراً للعباد ، وليس هذا الحق لغير الله سبحانه . فكل من يسن للعباد منهجاً غيره انما هو ظالم لنفسه وللعباد ، مدع مالا يملك . مبطل لا يستحق ان يطاع ، فانما يطاع أمر الله ، وأمر من يهتدي بهدي الله .

[وانك لمن المرسلين] . . ولهذا نتلو عليك هذا ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها وتجارب الموكب الايماني كله في جميع مراحله . ونورثك ميراث المرسلين اجمعين . وهي وحدها تثبت ماقررناه في هذا الموضوع : موضوع قصص القرآن آنفاً . وانه بالرغم من محافظته على روعة القصة واسلوبها . فهو يهدف إلى غايات اخرى ، وتعقيبات كلها تعاليم ، وانظمة ، ومناهج عامة : [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . لتجعلها أمامك ، منهجاً لك في جهادك ، وتسير عليها مع امتك

القرآن بقصصه يؤسس ويشيد

قال تعالى (١) : [قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس

(١) آل عمران : ١٣٧ .

وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون] .

لا زال سبحانه يتوخى تقرير الحقائق الاساسية الأصيلة في التصور الاسلامي ، ويجعل الأحداث بجرد محور ترتكز عليه هذه الحقائق ، وتركن إليه .

فيبدأ في هذه الفقرة بالاشارة إلى سنة الله الجارية في المكذبين ، ليقول للمسلمين : ان انتصار المشركين في هذه المعركة .. معركة احد ـ ليس هو السنة الثابتة ، انما هو حدث عابر وراءه حكمة خاصة .

ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالايمان . فان يكن اصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها .

وانما هناك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها : حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب ، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ووقوف المسلمين أمام الموت وجهاً لوجه وقد كانوا يتمنونه ، ليزنوا وعودهم وأمانيهم بميزان واقعي .

ثم في النهاية محق الكافرين باعداد الجماعة المسلمة ذلك الاعداد المتين . . واذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النصر او الهزيمة . . [قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين الآية] . .

تفصيل القصة

لقد اصاب المسلمين : القرح . في هذه الغزوة ، واصابهم القتل والهزيمة . أصيبوا في ارواحهم ، وفي ابدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابيا وفي مقدمتهم - حمزة - عم النبي صلى الله عليه وآله وكسرت رباعية الرسول ذاته ، وشج وجهه ، وأرهقه المشركون ، وحتى غابت حلقة من حلق المغفر في وجنته ، وقد جاءت ابنته فاطمة سلام الله عليها بالماء . وغسل به علي عليه السلام وجه النبي صلى الله عليه واله من الدم . فلما رأت فاطمة ان الدم لا يكف اخذت قطعة حصير فاحرقتها والصقتها بالجرح فاستمسك الدم . وقتل فيها - حنظلة الانصاري - الملقب بغسيل الملائكة : حيث اخبر النبي صلى الله عليه واله اصحابه بانه راى الملائكة تغسله ، ثم قال : سلوا اهله ما شأنه . فقالت امرأته : انه كان معها وقد قاربها فلما سمع صيحة الحرب قام من فوره الى الجهاد وكان جنباً .

وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس ، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في - بدر - وحتى قال البعض : أنى هذا . وقال اخرون : أنصاب بمثل هذا ونحن المسلمون . . والقرآن يرد المسلمين الى سنن الله في الارض ، يردهم الى الاصول التي تجري وفقها الامور ، ليستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، وينالوا النصر بدون الاخذ باسباب النصر ، وفي مقدمتها : طاعة الله وطاعة رسوله . فالقرآن : بيان وهدى وموعظة للمتقين . والسنن التي يوجه ابصارهم اليها : هي عاقبة المكذبين على مدار التاريخ ، ومداولة الايام بين الناس ، والابتلاء لتمحيص السرائر . والقرآن يربط

ماضي البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، ويشير من خلال ذلك كله الى مستقبلها . فهو بيان وهدى وموعظة للمتقين الذين أنشأهم به الله نشأة اخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا حيث انها تيقنت بربها وانه اليه تصير الأمور ، وبمشيئته تجري الاحداث ، فالتزموا حدوده ، واتقوا مخالفته ، [وانتم الاعلون] اي ان عقيدتكم أعلى ، فانتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشيء من خلقه ، ومنهجكم اعلى لانكم تسيرون على منهج هو من صنع الله الحكيم العليم ، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله العاجز الجاهل ، فانتم الهداة لهذه البشرية ، وهم الشاردون عن المنهج . الضالون عن الطريق . ومكانكم في الارض أعلى ، فلكم وراثة الارض التي وعدكم الله بها ، وهم الى الفناء والنسيان صائرون ، فان كنتم مؤمنين حقاً فانتم الاعلون ، وان كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا فانما هي سنة الله : ان تصابوا وتصيبوا على ان تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص :

[ان يمسسكم قرح فقد مَس ّ القوم قرح مثله] الآية .. اشارة الى ما اصاب المشركين في ـ بدر ـ او الى ما اصابهم في نفس الواقعة ـ احد ـ حيث قد انتصر فيها المسلمون في البداية . فقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة . بسبب قتل علي عليه السلام لاصحاب الراية من بني عبد الدار . واحداً بعد آخر . وكان تاسعهم ـ مولى لهم ـ موصوف بالشجاعة ثم احجموا عن اخذ العلم ورفعه عن الارض لما رأوا من بأس امير المؤمنين عليه السلام ومن ثباته . حتى رفعته لهم ـ امرأة ـ . ثم دارت الدائرة على المسلمين بحملة ـ خالد بن الوليد ـ برايـــة المشركين من طريق ـ الشعب ـ لما راى من مخالفة الرماة الذين وظفهم رسول الله صلى الله عليه واله للمحافظة على فم الشعب خوف الالتفـاف على المسلمين من

خلفهم وجعلهم بامارة .. عبد الله بن جبير .. . وعندما رأوا هزيمة المشركين تاركين وراءهم الغنائم للمسلمين . تركوا .. الشعب .. رغم نهي اميرهم فيأتي خالد بن الوليد من وراء المسلمين ويتراجع المشركون عندما رأوا .. رايتهم قد رفعت مع خالد . فكان ما كان .. من فرار المسلمين . وحتى وجوه الصحابة منهم ، ولم يبق مع النبي صلى الله عليـــه واله الا علي عليه السلام وستة نفر من الانصار .

ثم يتابع سبحانه الكلام ويمضي السياق في كشف الحكم لهذا الابتلاء بالهزيمة : [وليعلم الله الذين امنوا] اي ليتحقق ما علمه منهم .. ازلاً .. في خارج الوجود ، وامام الحاضر المشهود ، ولتمييز المؤمنين من المنافقين والثابتين عن المنهزمين لا تلزمهم بيعة ، ولا تثنيهم العهود .. عهود الله وعهود رسوله .. : [ويتخذ منكم شهداء] وهو تعبير عجيب عن معنى عميق ، يبين فيه : ان الشهداء في هذه المعركة لمختارون ، يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويتخذهم لنفسه . فما هي بخسارة اذاً . انما هو إنتقاء وتكريم ، واختصاص ، لانهم قد طابقوا بين القول والفعل ، وحققوا مدلول كلمة الشهادة ، بالمشاهدة . فليس كل من قال : اشهد ان لا اله الا الله فقد شهد ونال هذه الدرجة ما لم يحقق مدلولها بالجهاد والتضحية بالنفس والنفيس ، لتكون الالوهية لله وحده في الارض ، وليكون نظامه هو المنهج السائد .

وليست الشهادة هي الالفاظ الطائرة التي لا قرار لها في القلوب . [والله لا يحب الظالمين] . الذين ظلموا انفسهم ، وظلموا غيرهم : [وليمحص الله الذين امنوا] والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز : التمحيص عملية في داخل النفس ، وفي مكنون الضمير . انها عملية كشف لمكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات ، وكشفها للمجتمع

ولربما يظن الانسان في نفسه القدرة والشجاعة والخلوص في العقيدة . ثم اذا هو يكشف على ضوء التجربة العمليه ، وفي مواجهة الاحداث : ان في نفسه ترسبات ، وغشاوات ، وانه بعد لم يتهيأ لمثل هذا المستوى وهذه الضغوط . فالله سبحانه يريد من وراء هذه الامتحانات والتجارب -- والتدريب -- ان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية ، وكان يريد بها امراً في هذه الارض . فمحصها هذا التمحيص الذي تكشفت عنه الاحداث في -- احد -- لترتفع الى مستوى الدور المقدر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها : [ويمحق الكافرين] تحقيقاً لسنته في دفع الباطل بالحق متى استعلن الحق ، وخلص من الشوائب بالتمحيص .

ثم يجري السياق بعرض استفهام انكاري : [ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين] ليبين لهم ان طريق الجنة محفوف بالمكاره . وزاده الصبر على مشاق الطريق ، وليس زاده التمني والاماني الطائرة التي لا تثبت على المعاناة والتمحيص : [ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون] يقصد التنبيه الى خطأ هذا التصور : تصور انه يكفي الانسان ان يقولها باللسان : اسلمت وانا على استعداد للموت والجهاد ، فيبلغ بهذه الكلمة ان يؤدي تكاليف الايمان ، وان ينتهي الى الجنة والرضوان

انما هي التجربة الواقعية ، والامتحان العملي ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد ، وعلى معاناة البلاء -- ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين -- اي اذا تحقق منكم -- ما علمه الله قديماً في الخارج -- وصار حقيقة مشاهدة . عند ذلك تكونوا مؤمنين حقا ، وكلمة الشهادة تكون صدقاً .

وان في التعبير القرآني : [ولقد كنتم تمنون الموت الآية . .]

من الفن البلاغي ما هو جدير بالبيان : هو استعمال اللفظ في معنيين متضادين : احدهما . ما اسلفناه من التعبير اللساني الغير المتطابق للعمل ويخص المنهزمين : ثانيهما . ما وافق منه اللسان الجنان ، ويخص الثابتين والمستشهدين . اي انهم وازنوا في حسهم بين وزن الكلمة التي يقولها اللسان وهي تمني الشهادة والموت في سبيل الله وبين الحقيقة التي واجهوها في العيان ، وعملوا كما قالوا . وكل ذلك منه سبحانه تعاليم بان يحسبوا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم حسابها ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم وليعلمهم ان ليس الكلمات الطائرة ، والاماني المرفرفة هي التي تبلغهم الجنة . انما هو تحقيق الكلمة وتجسيم الامنية ، والجهاد الحقيقي والصبر على المعاناة . حتى يعلم الله منهم ذلك كله واقعاً كائناً في الدنيا . ولقد كان قادراً على نصرهم دون عناء ، وان يدمر المشركين كما دمر عاداً وثمود وقوم لوط . ولكن المسألة ليست هي النصر . . انما هي تربية الجماعة المسلمة التي تعد لتستلم قيادة البشرية . . البشرية بكل ضعفها ونقصها ، وبكل شهواتها ، ونزواتها ، وبكل جاهليتها وانحرافها . قيادة راشدة تقتضي استعداداً عالياً على صلابة في الخلق ، وثبات على الحق ، ودقة من التدريب .

أطول قصة في القرآن

القصة الرائعة والتي استغرقت سورة كاملة ، وذات الاهداف العديدة .. قصة الصديق يوسف .. تبدأ بذكر القصص : [نحن نقص عليك احسن القصص] . وتختتم ايضاً بذكر القصص عاطفة ختام السورة على مطلعها : [لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب] . .

ونحن نلتقط منها رؤس اقلامها ، مبينين مهمات اهدافها طبقاً لمخطط كتابنا هذا : بيان علوم القرآن . لا كتفسير متسلسل للقرآن .

قال تعالى : [الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين . . إلى قوله تعالى : [وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على امره ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون] . .

الف . لام . را . . هذه الاحرف وما كان من جنسها في فواتح بعض السور ، قد ذكر لها المفسرون عدة تأويلات . ولكن الذي يغلب على الظن : ان ذكرها لغرض الاعجاز ، ولسان حالها في مقامنا هذا يقول : تلك : أي هذه الحروف السابقة هي . هي . بعينها : الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية : آيات الكتاب المبين . فلقد نزله الله كتاباً عربيا مؤلفاً من هذه الأحرف العربية المعروفة ، والمألوفة والتي تملكونها ، وتعرفون كلماتها . ولكنكم تعجزون أن تصوغوا منها مثل ما تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن : [لعلكم تعقلون] وتدركون بعجزكم عن صنع مثله من هذه الأحرف المهيئة لكم : ان الذي يصنع منها هذا الكتاب المعجز لا يمكن ان يكون بشراً ، فلابد عقلاً أن يكون القرآن وحياً . والعقل مدعو لتدبر هذه الظاهرة ، ودلالتها القاهرة .

هذه القصة احسن القصص

وانما كانت هذه القصة أحسن القصص لاشتمالها على خصوصيات واسرار لم يعلمها إلا من لامس اشخاص القصة ، وعاشرهم ، وقد مضت

عليهم القرون . ولذلك يعقب في ختام السورة بقوله :

[ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون] . . وآية وحيه انه كان غيباً بالقياس اليك ، وما كنت معهم إذ أجتمعوا ، واتفق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه ، وهم يمكرون بيوسف ، ويمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون امرهم بعد اخذهم لأخيه - بنيامين - وقد خلصوا نجياً ، وهو من المكر بمعنى التدبير ، وكذلك ماكان هناك من مكر النسوة بيوسف ، وما كان من ناحيته في السجن . كل هذا مكر ماكنت حاضره لتحكي عنه .

فاشتمالها على هذه اللمسات الخفية جعلها من أحسن القصص ، ومن ادلتها على انه وحي سماوي .

ثم أن القصة بعد ان قطعت شوطها الأول : دورها الامتحاني . امتحان الصديق - يوسف - الغلام او الصبي ، ورؤياه التي حسده عليها اخوته بالاضافة لحقدهم السابق : الى جزاء ايثار ابيهم له ، وما حاكوه من المؤامرات لاقناع ابيهم في اصطحابهم له في الصيد ، ومخادعتهم إياه [يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون] وتغييبه عن ابيه الذي قد احتضنه ، وهمهم بقتله وهو صبي بين أيديهم يستعطف هذا تارة ويستجير بذاك اخرى . ثم استقرار امرهم ، واجماع كلمتهم على القائه في الجب - البئر - ويبقى فيها وحيداً مسلماً أمره إلى خالقه .

ثم اخذ السيارة - القافلة - له كرقيق ذليل مملوك لا يملك من امره شيئاً . ثم بيعه بثمن زهيد حتى انتهى به الأمر إلى عزيز مصر - رئيس وزرائها - وقد توسم فيه الخير وقال لامرأته : اكرمي مثواه وقد وصل إلى مكان آمن من الهلاك ، وان المحنة قد انتهت بسلام ،

ويحسب انه مقبل بعدها على خير . ولكن محنة اخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده . وقد اوتي على صغر سنه حكماً وعلماً فعندما قطعت القصة هذه المرحلة قال تعالى : [وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على امره] . وهي كجزء من القصة ، ولكنه تعقيب على امرهم ومكرهم .

هدف هام من أهداف القصة

وهو التدليل على ان قدرة الله غالبة لا تقف في طريقها قوة ، وانه مالك أمره ، ومسيطر عليه ، فلا يخيب ، ولا يتوقف ، ولا يضل ، ولا يغالب ، ولا . . وقد اثبت ذلك بالمحسوس من طريق القصة . وهاهو ذا يوسف اراد له اخوته امراً ، واراد له الله امراً ، ولما كان الله غالباً على امره ، ومسيطراً عليه فقد نفذ امره .

اما اخوة يوسف ، وكذا غيرهم مما عدى الله تعالى ، فحيث لا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم ، وكان عكس ما أرادوه : [ولكن اكثر الناس لا يعلمون] .

ان سنة الله ماضية ، وان أمره هو الذي يكون . وان الحسد يقتل صاحبه .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : [لله در الحسد فما اعدله ، بدأ بصاحبه فقتله] .

وروى (١) ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله : [ألا لا تعادوا نعم الله . ـ قيل يا رسول الله : من يعادي نعم الله قال : الذين

---

(١) شرح النهج لأبن أبي الحديد ج١ ص٣١٥ .

يحسدون الناس] .

وقيل لارسطو : ما بال الحسود أشد غماً من المكروب . قال · لأنه يأخذ نصيبه من غموم الدنيا ويضاف إلى ذلك غمه بسرور الناس .

ومن كلام الحكماء : اياك والحسد ، فانه يبين فيك ، ولا يبين في المحسود .

وقال الاصمعي : رأيت اعرابياً قد بلغ مائة وعشرين عاماً فقلت له : ما اطول عمرك . فقال : تركت الحسد فبقيت .

قال الشاعر :

يا طالب العيش في أمنٍ وفي دعة ... محضاً بلا كدر صفوا بلا رنق

خلّص فؤادك من غلٍ ومن حسدٍ ... فالغل في القلب مثل الغل في العنق

وقال منصور الفقيه الشافعي :

منافسة الفتى فيما يزول ... على نقصان همته دليل

ومختار القليل اقل منـــه ... وكل فوائد الدنيـا قليل

يبدأ الامتحان بدوره الثاني

[وقالت هيت لك ، قال : معاذ الله ، انه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون] . اي اعيذ نفسي بالله ان افعل : [انه ربي احسن مثواى ، واكرمني بان نجاني من الجب ، وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن . واني أومن به قولاً وفعلاً ، وانسب هذه النعمة إليه ، واما انت والعزيز فاسباب ظاهرية ، لا قيمة لها : بان تطاع من دون الله : [انه لا يفلح الظالمون] الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون المعاصي بدافع الشهوة الموقتة .

والتعبير بالضالمين على نحو صيغة الجمع : تعريض بها : اي لا تكوني منهم ، بما تطلبين : [ولقد همت به ، وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين]

أقوال المفسرين - الجائرة - في المقام

ولقد اضطربت اقوال المفسرين في هذا المقام - تفسير همه بها - فالكثير منهم فسروا هم يوسف بها : بارادة الفاحشة : بالوان من البيان ، وتكلفات للتقريب . كما وانهم فسروا : - برهان ربه - بما يجانس ذلك : بما يؤل إلى منعه من الفاحشة بانواع من التهديد ، سواء كان بصورة الملائكة . أو بصورة ابيه يعقوب . او . . تركنا ذكرها تنزيهاً لكتابنا هذا عنها ، ومن اراد الاطلاع عليها فليراجع - كتاب الميزان - (١) ومجمع البيان وغيرهما من المطولات .

واصحاب هذه الاقوال هم الذين يتركضون وراء الاسرائيليات المدسوسة للحط من كرامة الدين الاسلامي بالذات ، ونزاهة الانبياء بالعرض معتذرين بانهم لم يفسروا القرآن الا بالمأثور . حتى ولو كان بما ينافي نص القرآن كما في مقامنا هذا حيث يقول سبحانه في نفس الآية :[انه من عبادنا المخلصين] . فتترك شهادة الله جل شأنه - الناصعة - بدلالتها القاطعة - في حق - يوسف بالنزاهة ، والاخلاص له تعالى ، وعدم التعلق بالماديات ، والشهوات و . . بما تعطيه مادة الاخلاص -- لغة -- وعرفا -- يترك كل هذا . ويلتزم المأثور القائل : - انه قصدها بالفاحشة ، ودنا منها حتى حل السراويل وجلس منها بمجلس الخائن - (٢) وقس عليه نظائره (٣)

(١) ج١١ ص ١٣٧ - ١٥٣ .

(٢) الميزان ج١١ ص١٤٢ . (٣) كما في الدر المنثور .

وان هذا وامثاله ناشيء عن ـ اصل ـ قد قرر لغاية اعدام قيم الفضيلة ، وقتلها ، ولتجويز تقديم المفضول على الفاضل و . . وذلك الاصل : هو عدم عصمة الانبياء . وشيد عليه ما شيد .

وحينئذ لابد لنا من التعرض لاثبات عصمتهم عليهم السلام بطور الاختصار ، والبساطة ـ عادتنا في ذلك ـ .

البرهان على عصمة الانبياء من القرآن

قال تعالى (١) : [وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا فلو علم الله تعالى في نبيه الخطأ لقبح منه الامر باتباعه ، لان الالزام باتباع من يخطيء قبيح عقلاً ، وعلى الاخص في مقام التبليغ بالاحكام الشرعية . ـ هذا اولاً ـ و ـ ثانياً ـ يلزم ان يكون الواجب حراماً ، والحرام واجباً ، وما الى ذلك من كثير المفاسد . ولهذا ننكر اشد الانكار تولية حكام الدنيا امور الناس اذا كنا نعرف منهم الخطأ وعدم اللياقة وعلى الاخص اذا كان ذلك مع وجود من لم يعرف منهم الخطأ

وقال تعالى ايضاً : [وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله] (٢) فقد تعلقت ارادته سبحانه بكل ما يطاع فيه الرسول : قوله . او فعله . فلو تحقق من الرسول خطأ في فهم الوحي ، او في التبليغ كان ذلك ارادة منه تعالى للباطل ، والله لا يريد الا الحق . وكذلك لو صدر عنه معصية ، والمعصية مبغوضة له منهي عنها لكان بعينه متعلق ارادته تعالى فيكون طاعة محبوبة . فيكون جل شأنه مريداً غير مريد آمراً ، ناهياً ، محباً مبغضاً . بالنسبة الى فعل واحد . تعالى عن تناقض الافعال والصفات .

---

(١) الحشر : ٧ . (٢) النساء : ٦٣ .

وقال تعالى : [رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل] (١) فانها ظاهرة في ان الله يريد قطع عذر الناس في ما فيه المخالفة والمعصية ، وان لا قاطع للعذر إلا الرسل بمقتضى التعليل ، ومن المعلوم ان قطع الرسل لعذر الناس ، ورفعهم لحجتهم انما يصح اذا لم يتحقق في ناحيتهم : ما لا يوافق ارادة الله ورضاه من قول او فعل ، وخطأ او معصية . والا كان للناس ان يتمسكوا به ، ويحتجوا على ربهم . وهو نقض لغرضه المذكور في الآية من قطع حجتهم (٢) .

ونعود الى تفهم معنى قوله : [ولقد همت به وهم بها] وقد ذكر القسم الآخر من المفسرين : المنزهين لساحة الانبياء : وجوهاً كثيرة ايضاً تطلب من الكتب المزبور ذكرها (٣) .

(١) النساء : ١٦٤ .

(٢) ملخصاً من ج ٢ ـ الميزان .

(٣) في كتاب الميزان ج ١١ ص ١٨١ قال في المعاني باسناده عن ابي حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام قال : وكان يوسف من اجمل اهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه ، فقال : معاذ الله إنا اهل بيت لا يزنون ، فغلقت الابواب عليها وعليه وقالت : لا تخف وألقت نفسها عليه ، فافلت منها هارباً الى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فاخرجته منه فافلت يوسف منها ، فألفيا سيدها لدى الباب قالت : ما جزاء من اراد باهلك سوءاً الا ان يسجن او عذاب اليم . قال : فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف : ما اردت باهلك سوءاً بل هي راودتني عن نفسي فسل هذا الصبي أينا راود صاحبه عن نفسه قال : وكان عندها من اهلها صبي زائر لها فانطق الله الصبي لفصل القضاء فقال : ايها الملك انظر الى قميص يوسف فان كان مقدوداً من =

. . . .

= قدامه فهو الذي راودها ، وان كان مقدوداً من خلفه فهي التي راودته فلما سمع الملك كلام الصبي وما اقتصه أفزعه ذلك فزعاً شديداً فجيء بالقميص فنظر اليه فلما رآه مقدوداً من خلفه قال لها : انه من كيدكن ان كيدكن عظيم . وقال ليوسف : اعرض عن هذا ولا يسمعه منك احد واكتمه . قال : فلم يكتمه يوسف واذاعه في المدينة حتى قلن نسوة منهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه فبلغها ذلك فارسلت اليهن ، وهيأت لهن طعاماً ومجلساً ثم اتتهن باترنج واتت كل واحدة منهن سكيناً ثم قالت ليوسف : اخرج عليهن فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن ما قلن ـ يعني النساء ـ فقالت لهن : هذا الذي لمتنني فيه تعني في حبه . وخرجن النسوة فارسلت كل واحدة منهن الى يوسف سراً من صاحبتها تسأله الزيارة فابى عليهن وقال : الا تصرف عني كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين وصرف الله عنه كيدهن . فلما شاع امر يوسف وامرأة العزيز والنسوة في مصر بدا الملك بعد ما سمع قول الصبي لسجنن يوسف فسجنه في السجن ودخل مع يوسف فتيان وكان من قصتهما وقصة يوسف ما قصه الله في الكتاب . قال ابو حمزه ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليه السلام . وروى ما في معناه العياشي في تفسيره عن ابي حمزة عنه عليه السلام باختلاف يسير . وفي العيون باسناده عن حمدان عن علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المامون وعنده الرضا علي بن موسى فقال له المامون : يا ابن رسول الله أليس من قولك : ان الانبياء معصومون قال : بلى ـ وذكر الحديث الى ان قال فيه : فاخبرني عن قول الله تعالى : [ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه] فقال الرضا عليه السلام : لقد همت به

. . . .

= ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها لكنه كان معصوماً ، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه . ويظهر من هذا التعليل : ان البرهان هو العلم الذي حازه سابقاً ووصل به الى درجة العصمة كما ذكرناه في المتن . ثم قال عليه السلام ولقد حدثني ابي عن ابيه الصادق عليه السلام انه قال : همت بان تفعل وهم بان لا يفعل . فقال المامون : لله درك يا ابا الحسن . وفيه باسناده عن ابي الصلت الهروي قال : لما جمع المامون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام اهل المقالات من اهل الاسلام ، ومن الديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وسائر اهل المقالات فلم يقم احد الا وقد ألزمه حجته كأنه ألقم حجراً . قام اليه علي بن محمد ابن الجهم فقال يا ابن رسول الله : أتقول بعصمة الانبياء فقال : نعم . فقال له : فما تقول في قوله عز وجل في يوسف : [ولقد همت به وهم بها] فقال له : اما قوله تعالى في يوسف : [ولقد همت به وهم بها] فانها همت بالمعصية وهم يوسف بقتلها ان أجبرته لعظيم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها والفاحشة . وهو قوله عز وجل : [كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء] والسوء القتل والفحشاء الزنا . وفي الدر المنثور اخرج ابو نعيم في الحلية عن علي بن ابي طالب في قوله : [ولقد همت به وهم بها] قال : طمعت فيه وطمع فيها . وكان من الطمع ان هم بحل التكة فقامت الى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب ابيض بينها وبينه فقال اي شيء تصنعين فقالت استحي من إلهي ان يراني على هذه الصورة فقال يوسف عليه السلام تستحين من صنم لا ياكل ولا يشرب ، ولا استحي انا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت . ثم قال لا تنالينها مني ابداً ، وهو البرهان الذي رأى . وفيه =

والذي يقوى في النظر من معنى الآية : هو انها همت به فعلاً بارادة الفاحشة منه ، وعملت لذلك كل المقدمات والوسائل الممكنة لديها من الملاطفة ، والمراودة ، والتجمل ، وسد الابواب ، وارخاء الستور واخيراً ـ التهديد ـ : [هيت لك] وهي القادرة المتسلطة . وهم هو بها شأناً وقوة بمعنى انه لو خلي وشأنه الطبيعي ، الغريزي . وبدون ما انطبع عليه : من حب الله تعالى والتجرد لعبوديته ، وبما رآه من برهان ربه وهو العلم والحكمة اللتان منحه الله تعالى بهما . لهم بها ولطلب منها ما تطلبه منه . لأن المقتضى لذلك موجود ، غير ان المانع من تأثير المقتضي ايضاً موجود ، وهو التعلق بالله وحده ، والالتحاق بالروحيات المجردة بسبب ما توصل اليه من الحقائق العلمية : وهي برهان الله الذي رآه ببصيرته . كما تقول : لولا ما ادركني به فلان من النجدة لهلكت اي ان الهلاك وان لم يتحقق فعلاً ولكن مأهلاته كانت موجودة غير ان النجدة من فلان لم تدعها تؤثر اثرها . فالهلاك اذن يكون شأنياً لا فعلياً .

وبهذه الممانعة بين مقتضيات الغريزة والطبيعة ، وبين البراهين العلمية . وغلبة العلم اخيراً فقد استحق يوسف الصديق عليه السلام . المدح من الله

= في حديث جمعها النسوة وتقطيعهن ايديهن قال : فما امسى يوسف عليه السلام في ذلك اليوم حتى بعثت اليه كل امرأة رأته تدعوه الى نفسها فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال : رب السجن احب الي مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن . الحديث . ذكرنا هذه النبذة لأجل الأطلاع على مذاهب المفسرين وآرائهم : وان كلاً منهم يحاول صرف الآية وتفسيرها وفق اصول ـ مذهبه ـ وعند اذن لا بد وان يتمحل في ذلك .

تعالى والثناء عليه في سياق سرد القصة لأثبات اهدافها . ويؤيد ما قويناه واوضحناه ما ذكرناه في الهامش من رواية ـ العيون ـ فراجعها .

الهدف من هذه الفقرة

ـ همت به وهمّ بها ـ

هو تعليم العباد ، ودعمهم بجنود تحفظهم من الوقوع في المعاصي ـ وهي تذكر نعم الله عليهم ـ عند تسويل النفس واغواء الشيطان لهم لأن يتجاوزوا حدود الله . ونعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى وهي لديهم حاضرة في الشدة والرخاء ، فيصدهم تذكرها وبسطها عن اختراق حرم ذلك المنعم كما قال الصديق يوسف عليه السلام : انه ربي احسن مثواي . وافاض عليّ نعمه قبلاً وبعداً ، شدة ورخاء ، علماً ومادة . فكيف يصح مني مقابلة تلك النعم بالمعاصي : [انه لا يفلح الظالمون] .

انتشار الامر في المدينة

وعندما انتشر الخبر في اواسط النساء واخذن يتحدثن به ويعيرن ـ امرأة العزيز الكبيرة الشأن ـ في مراودتها لرقيقها الصغير . وقد سمعت هي بذلك ، صنعت لهن ـ دعوة ـ وهيأت لهن طعاماً واتت كل امرأة منهن سكيناً لأحتياج الطعام الى التقطيع ، وأمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن في زينته التي اعدته بها : [فلما رأينه اكبرهن] بهتن لطلعته ودهشن : [وقطعن ايديهن] تقطيعاً مكان الفاكهة التي كن يقصدن تقطيعها ذهولاً من حسنه وجماله . وكان قطعهن لأيديهن اكثر

من مرة لما في دلالة صيغة ـ التفعيل ـ على الكثرة ، وعلى اثر ذلك : [قلن حاشى لله] تنزيه لله سبحانه في امر يوسف وتعبير عن الدهشة بصنع الله : [ما هذا بشراً ان هذا الا ملك كريم] وربما كان هذا القول منهن على مبنى عقيدتهن ـ الوثنية ـ وهم يعتقدون : ان الملائكة ـ موجودات ـ شريفة ، هم مبادىء كل خير وسعادة في العالم ، منهم يترشح كل حياة ، وعلم ، وحسن وبهاء ، وسرور ٠ و ٠٠

ولعل هذا هو السبب في قولهن عند الدهشة : [ان هذا الا ملك كريم] حيث لم يصفنه بحسن الوجه وجمال المنظر واعتدال الصورة الذي سبب ان قطعن ايديهن ، بل سمينه ملكاً كريماً ، لتكون كناية عن حسن صورته وسيرته ، و . . معاً . لان الملك مصدر ذلك كله في عقيدة الوثنيين فعند ذلك استظهرت امرأة العزيز عليهن بما لقين من مواجهة من تعيش هي معه في بيتها ـ ليل نهار ـ .

الهدف من هذه الجملة : قلن حاشى لله

يريد القرآن : البيان بين آن وآن . وان يدلي على الأنسان بالحجة والبرهان فهدف هذه الجملة في حال انها ـ جزء من قصة ـ الى اثبات : ان التوحيد للانسان أمر فطري يرجع اليه عند الاصطدام بالواقع ، وعند التجرد من النوازع الاخرى بالرغم من ميوعته ، وترفه ، وتوسعه في مادته . كما وجدنا من رجوع النساء الهائمات الى الله ، والى تنزيهه ايضاً ـ حاشى لله ـ عند الاندهاش ، وهن نساء الاكابر والوزراء وهي كما اسلفنا ـ كلمة تنزيه ـ تقال عند الدهشة بصنع الله ، وعظيم إبداعه

الاصرار والاغراء الجديد في ظل التهديد

وبعد ان انتصرت على نسائها واذهلتهن بجمال عشيقها اخذت تصر على انجاز مطلوبها ، وتهديد محبوبها : [ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين] ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات ، المبديات ، الفاتنات . وفيهن المتسلطة - امرأة العزيز - التي اذا قالت فعلت فلا يلويه من ذلك شيء عن ربه الذي شغله ، وملك حبه قلبه ، ولم يلتفت اليهن ولا بكلمة واحدة ، بل رجع الى حبيبه الحقيقي ، ومنقذه الاولي وقال : [رب السجن احب الي مما يدعونني اليه] اي اني لو خيرت بين السجن ، وبين ما يدعونني اليه لاخترت السجن على غيره . [والا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين] فاذا به يستنجد ربه ان يصرف عنه محاولاتهن . وان لم تدركني بذلك فلا آمن نفسي من الصبوة والميل اليهن فاني انما اتوقى شرهن والمعاصي كلها بما افضت علي من العلم بك فان انت أمسكت عني افاضة العلم ، وتتابعه علي صرت جاهلاً ووقعت في مهلكة الهوى ، وظلمة الضلال

وقوله عليه السلام مما يدعونني . بصيغة الجماعة مما يعطي اجتماعهن كلهن على الرغبة فيه - لا امرأة العزيز وحدها - ففي ذيل رواية ابي حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام : فارسلت كل واحدة منهن الى يوسف سراً من صاحبتها تسأله الزيارة ، فابى عليهن وقال : والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين - كما ذكرناه في الهامش . وذلك ابلغ لنزاهته ، وكمال ذاته . وكذلك قوله عليه السلام : واكن من

الجاهلين . لا من العاصين مما ينبىء عن ان برهان ربه ، وما كان به عصمته : هو العلم .

اهداف هذا المقطع

اعطاء الدروس الى البشرية : بانهم اذا ضويقوا على ارتكاب المحرمات : يلزمهم الالتجاء الى الله القادر على تخليصهم منها . لانهم يرتكبونها رأساً بحجة المضايقة ، والاضطرار . وان الانسان العارف ببشريته وهبوطه الى طينته ، لا ينبغي له الاغترار بعصمته لنفسه ، بل انه معرض للزلات مهما بلغ من التزامه للطاعات ، فهو على طول الخط محتاج الى مزيد عناية من ربه ، وافاضة العلم عليه من خالقه . كما ان فيها من التنبيه على ان مرتكب المعصية معدود في عداد الجاهلين فهو اولى باسم الجاهل من اسم العاصي : رجوعاً الى السبب .

حلقات الامتحان

ليوسف عليه السلام ادوار من الامتحان الرباني بينها سبحانه مصحوبة باهدافها العامة في ضمن حلقات ثلاث من الكلام . ـ الحلقة الاولى ـ : كيد اخوته له والقاؤه في الجب ، وتغيبه عن ابيه واخيه . ـ الحلقة الثانية ـ : امتحانه بامرأة العزيز ونسوتها . ـ الحلقة الثالثة ـ محنة السجن . وهذا مبدؤها : [ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين] .. ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد . وان الامر قد زاد انتشاراً في طبقات الشعب الاخرى ،

سمعة البيوت الراقية لابدوان تحفظ ، ولو بسجن الابرياء لاظهار ان الذنب منهم . كما هو المالوف عند من حاد عن العدل .

ونختصر السياق ببيان ان رحمة ربه لا زالت تلاحقه في حال انه يمتحن فيوجه سبحانه اليه الانظار في سجنه ، ويجعله موضع ثقة المساجين وفيهم الكثير من امثاله الابرياء . ومنهم احد الفتيين الذي هو من حاشية القصر الملكي وقد قص هو مع زميله الفتى الآخر على يوسف عليه السلام رؤيا رأياها ويطلبان اليه تعبيرها لما توسما فيه من الصلاح ، وإتقان العبادة ، والذكر ، وحسن السلوك .. وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث عقيدته الحقة بين السجناء الى آخر ما جاء في هذه الحلقة ..

حلقة السجن واهدافها

من اهدافها وهو فرع من علم واحد من علوم القرآن : ان الرجل الصالح يقوم بواجب الدين ، والذب عن عقيدته ، وتصحيحها ، ولو كان باشد الاحوال . كما هو الحال في - يوسف - عليه السلام عند ما وجد الفرصة بسؤال سجينين منه عن تفسير رؤييهما فيوعدهما جميلاً ، ويبدأ بتصحيح العقيدة للسجناء على العموم بداية بالأهم ، وليجعل من علمه بتاويل الرؤيا دليلاً على صدقه في دعوته الى التوحيد : وانه على علم من ذلك . فيقول : [اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي ابراهيم الآية ..] وكيف تدخل في اثناء مطالبهم بمطلبه بلطف وكياسة في التنقل ، وبيان نسبه وانه من نسل ابراهيم الخليل عليه السلام .

ومع هذا لا ينبغي الاغترار بالعلم رغم شرفه وعلو درجته . فان

يوسف عليه السلام باعترافه بان ما لديه من ذلك فهو من فضل الله عليه وبتعليمه اياه قد دافع تغلب الغرور وتسويل النفس : [ذالكما مما علمني ربي] بما فيه من الاعتراف الضمني بالجهل لولا تعليم ربه له . أضافة الى ادبه عليه السلام في الوعظ ، وعدم تحديه للمخاطبين : وانهم الخارجون عن حدود الله . فهو لا يواجه السائلين او المخاطبين بذلك بل يقول : [اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله] مع العلم ان السائلين من الذين لا يؤمنون بالله . هذه علوم القرآن وهذه تعاليمه .

ومن اهدافها ايضاً : بيان ان الله جل شأنه كيف يهدي ، ويلطف ويسدد عبده بتكميله ، واذهاب نواقصه حيث علم صدقه ولو من طريق الضغط ، وشبه العقوبة الموقتة كما هو المشاهد من قول يوسف عليه السلام [وقال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك] والله يريـــد له الانقطاع اليه وحده ، وان يتمسك بسببه فقط دون ثانويات الاسباب . حيث يريد اصطفاءه : [فانساه الشيطان ذكر ربه] الحقيقي والذي علمه في السجن من دروس يوسف له . وذلك لانشغاله في زحمة الحياة وملهياتها وهو في القصر ومن الحاشية وكثرة المغررات : [فلبث في السجن بضع سنين] ليعلم ان المنجي هو الله وحده عندما تتحقق ارادته وتتنجز مشيئته . وهذا من اتمام فضله سبحانه عليه واذ قد اراد الله ذلك هيأ الاسباب : برؤيا الملك فيتذكر الفتى ما عبر يوسف به رؤياه ، ويتم الامر باخراج السجين البريء ـ يوسف ـ عليه السلام . وليصبر نظراؤه من البرآء على طول خط الزمان منتظرين فرج الله وحده . والى هنا فقد مرت ثلاث ـ رؤى ـ : رؤيا يوسف عليه السلام . ورؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك .

تعليم للعلماء

فمن اهداف القصة : التعاليم للعلماء عندما يحتاج سؤالهم الجهلاء : باغتنام الفرص لوعظ السائلين وتوجيههم ، واعطاء التوصيات للصالح العام ضمن الجواب كما صنع يوسف في تفسيره لرؤيا الملك وقد ضمنها النصح بمواجهة عواقب الرؤيا . كقوله : [فما حصدتم فذروه في سنبله] وهو خارج عن حدود السؤال لما فيه من حفظه من السوس والمؤثرات الجوية ومثل قوله : [ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون] يغاث فيه الناس بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم ، ويعصرونها خمراً .. وفيه من الدلالة على علمه اللدني الذي علمه الله تعالى . فهو منه بشارة للساقي - الوسيط - وللملك وحاشيته بالخلاص اخيراً من الجدب والجوع .

من ثمرات القصة

ان يكون الكامل في عقيدته ، والمؤدب بآداب ربه ، مثل يوسف عليه السلام في سيرته . من باب -- اياكِ اعني واسمعي ياجارة -- وانه رغم هذا السجن الطويل المرير عندما جاء البشير باطلاقه من قبل الملك نفسه ، وانه يريد مواجهته ، لم يجب الى ذلك فوراً ، ولم تأخذه الغبطة متسرعاً عادة امثاله في ذلك ، بل انه قال : [ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم] ليسأل النسوة في قصته ، ويتحقق من برائته ، لان هدفه الاصيل نزاهة نفسه لا الترف في حياته . وليقوم بعد النزاهة ، وثبوت القدسية بدوره المطلوب منه

من ارشاد عباد الله الى توحيد الله ، والانتظام بحدود الله ، وتسليم الامور كلها الى الله .

من أهداف القصة - بيان الداء العام

حينما طلب يوسف من وسيط الملك اليه في الخروج من السجن : ان يسأل النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم . أحضرهن الملك وقال : [ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه] وحيث ان ادوار الامتحان قد انتهت ، ورجعت الامور الى حقائقها : [قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين] متزلفة اليه عن طريق الصدق والوفاء والدين ، وقد تحققته انه اهلها ومن السبل الرحمانية بعد فشل الشيطانية منها لعلها تحرز بذلك بعض رضاه محافظة على خط الوصل بينها وبينه ، ثم ترجع معترفة ومصرحة باصل الداء : وان ذلك كان من تسويل النفس ، وتضربها - قاعدة عامة - : [ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم]

وقد اراد سبحانه من وراء هذه الفقرة من القصة : إلفات انظار البشرية جمعاء الى اساسية هذا الداء : اهداف القرآن من القصص .

ولان تسميم هوى النفس كان بهذه السعة جعلنا مدخل كتابنا - الآيات الساطعة - : النفس ومدى تاثيرها . وتابعناه بالميسور هناك بما يهيء الانسان لأن يجعل زمام نفسه بيده ، لا زمامه بيدها . ولان النفس في تاثيرها تكون الى حد بعيد ، او الى غير محدود : ترى الحكماء

يبالغون في النهي عن متابعتها ، والحث على مجاهدتها . قال أمير المؤمنين عليه السلام (١) : [ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أمرت به ، السراع الى ما نهيت عنه] . فهو يستعين ربه عليها لقوة تعصبها .

وقد فسر بعض اهل الطريقة السلوكية ـ قوله تعالى : [ياايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة] (٢) فقالوا : اراد بجاهدة النفوس لانها اللاتي تلينا . وعن رسول الله صلى الله عليه واله [ابت الانفس الا حب المال والشرف ، وان حبهما لأذهب بدين احدكم من ذئبين ضاريين باتا في زريبة غنم الى الصباح فماذا يبقيان منها] .

وقال بعض اهل العرفان (٣) : جاهد نفسك باسياف الرياضة . والرياضة على اربعة أوجه : القوة من الطعام . والغمض من المنام . والحاجة من الكلام ، وتحمل الاذى من جميع الانام ، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الارادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الافات ، ومن احتمال الاذى البلوغ الى الغايات ، وقال ايضاً : اعداء الانسان ثلاثة : دنياه ، وشيطانه ، ونفسه ، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات .

وذكر (٤) : أن عالماً لقي راهباً فقال : ايها الراهب كيف ترى الدنيا ، قال : تخلق الابدان ، وتجدد الآمال ، وتباعد الأمنية وتقرب المنية . قال : فما حال اهلها . قال : من ظفر بها نصب ، ومن فاتته أسف ، قال : فكيف الغنى عنها ، قال : بقطع الرجاء منها ، قال :

(١) من فقرات خطبة له : شرح ابن ابي الحديد ج٧ ص٣٥٠ .

(٢) التوبة : ١٢٣ .

(٣) منهاج البراعة ج١٤ ص١٩٣ .

(٤) في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج١٨ ص٣٤ .

فأي الاصحاب أبر وأوفى . قال : العمل الصالح . قال : فايهم اضر وانكى . قال : النفس والهوى . قال : فكيف المخرج . قال : في سلوك المنهج . قال : وبماذا اسلكه . قال : بان تخلع لباس الشهوات الفانية ، وتعمل للدار الباقية .

من نظرات القصة

ان يوسف عليه السلام وليكن نظيره ، ومحتذياً مثاله ، كل من اراد الاتصال بربه . عندما قال له الملك : [انك اليوم لدينا مكين امين] لم يكن جوابه له ـ الشكر ـ عادة الخاضعين للملوك . ولم يقل له عشت ياملاي . او اطال الله عمرك . او . . كما يقول المتملقون للطواغيت او المتمرغون على اعتابهم . بل قال : [اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم] لعلمه ان ذلك من الله لا من غيره . وكان طلبه لوزارة الزراعة ، والمالية ، ليس لذاته ، وانما هو ليقوم بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في اشد اوقات الازمة . وليكون مسؤلاً عن اطعام شعب كامل ، وشعوب كذلك تجاوره ، طوال سبع سنوات لازرع فيها ولا ضرع . ومن أهمهم ضعفاؤهم . فليعتبر المعتبرون ، وليقتفي اثره العارفون .

ومن تعاليم القصة

قوله تعالى : [وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوء منها حيث يشاء] . . اي نحن الذين مكناه ، لا الملك ذاته ، وانما تلك ظواهر اسباب : [ولا نضيع اجر المحسنين] فكان ذلك التمكين حقاً له تجاه

احسانه ، واجراً لجهاده لنفسه -- يتبوء -- ويتخذ المنزل الذي يريـد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد وله التصرف المطلق . . في مقابل -- الجب -- وما فيه من مخاوف . و ـ السجن ـ وما فيه من قيود . والآية تعطي الملاك العام ، والمناط الشامل ، لكل محسن . لا ليوسف وحده . فليرغب بذلك الجزاء العارفون وليعمل له المتبصرون .

من عظات القصة

عندما تكثر المعاصي ، ويتفشى الفساد في الارض ، وتحق العقوبة ويحل أوان الانتقام . يتعارض كل ذلك ، ورحمة الله التي وسعت كل شيء . ومع قوله : سبقت رحمته غضبه . لذا يبتدئهم بالبلاء والمخاوف المحدودة كما ورد في تفسير قوله تعالى : [أو نأخذهم على تخوف] (١) وعلى هذا الاساس إبتلاهم بهذا الجدب الواسع النطاق لانحراف معظمهم عن التوحيد يومئذ .

وادركنا لمدى ما فعل الجدب بالناس قد يبرزه سياق القصـــة في مشهد اخوة يوسف . يجيئون من البدو ، من ارض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر . ومن ذلك ندرك إتساع دائرة المجاعة . وبالرغم من انتظار الله تعالى لتوبتهم ورجعتهم عن ضلالهم . فقد هيأ لهم من يرشدهم ، وينور الطريق لهم يوسف الصديق ـ واوجد لهم ـ السلب والايجاب ـ التضييق بالجدب والتنوير بيوسف وبمرور السبع سنوات ـ الجدب ـ فقد صقلت نفوسهم ، وتأثرت عقولهم بمالك الدنيا والآخرة ، وانسلخت عن عقيدة الوثنية فاستحقوا الرحمة بعود السبع سنوات ـ الرخاء ـ

(١) النحل : ٥٠ .

غرض عقائدي يتجلى في القصة

من التعاليم العقائدية لعموم البشرية في ضمن القصة ما يحكيه رب العزة عن نبيه يعقوب عليه السلام حين يخاطب اولاده الكثيرين : [يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وما اغني عنكم من الله شيئاً ان الحكم إلا لله عليه توكلت وعلى الله فليتوكل المتوكلون] فلربما يظهر في البداية : التنافي والتدافع بين وصية يعقوب لأولاده والزامهم بان لا يدخلوا من باب واحد : خوف الحسد عليهم . او خوف التهمة لهم باجتماعهم وهم غرباء فيلحقهم الأذى . او . . وبين قوله : [وما اغني عنكم من الله شيئاً] . . فما الفائدة اذن بالوصية . ولكن بالتأمل في طبيعة الكون ، واسرار التكوين . وقد مر التعرض لها في مباحثنا السابقة يظهر ان ما قاله هو الحق . وهو كتعليم لسائر الخلق وانه ينبغي الاخذ بظاهر الاسباب وتطبيق الاوامر والنواهي الارشادية في ذلك . ولكن مع العقيدة بان امر ذلك كله : الاسباب مع مسبباتها .. سلباً وايجاباً .. منوط بارادة الله ، وناجم عن قدر الله تعالى . كما ورد : ان اعرابياً جاء الى المدينة على ناقة له ، وقصد مسجد رسول الله صلى الله عليه واله فاطلق ناقته على باب المسجد ودخل . وعندما خرج لم يجد الناقة فشكى ذلك الى رسول الله صلى الله عليه واله وقال أنى تركتها على باب بيت الله متوكلاً فى حفظها على الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : [إعقل وتوكل] اي خذ بالاسباب وتوكل على مسبب الاسباب .

تمحل المفسرين بما لاضرورة فيه

عندما جاء اخوة يوسف لطلب الميرة اولاً . وارجعهم يوسف ليأتوه باخ لهم من ابيهم - بنيامين اخيه لامه وابيه - وقد جاءوا به بعد ممانعة ابيه ، وثم اقناعه بالمواثيق ، ثم إلتقاؤه باخيه وقد اعلمه بانه اخوه ، وسيدبر أمر بقائه عنده وانفصاله عن اخوته وقد اخذه بحجة سرقته لصاع الملك . فقال اخوته عند ذلك : [ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل] .

وهنا فقد تكلف المفسرون بالانطلاق وراء الروايات ، والتركاض خلف الاسرائيليات للبحث عن مصداق قولهم : هذا : وما هي سرقة يوسف .

ولا حاجة في ذلك واولى من هذا التحمل للعلم بوجود الدخيل من الموضوعات في ضمن ذلك : هو القول : بانهم قد كذبوا في قولهم : فقد سرق اخ له من قبل . كما كذبوا من قبل على ابيهم في امر يوسف ، وكان قصدهم بذلك دفع التهمة عن أنفسهم بالميسور . ويكون في ضمن هذا : المحافظة على نزاهة نبي الله ، وقدسية ذاته من اصل الخلقة ، واساس الاصطفاء دون تكلف وبغير ركون الى رواية لم يثبت صدورها

لمحة من القصة

توضح الاتصال الوثيق بالله

تعطينا كلمات يعقوب عليه السلام والتي يحكيها لنا رب العزة : [اني لأجد ريح يوسف] وقوله : [انما اشكو بثي - اي همي ومصيبتي -

وحزني الى الله واعلم من الله ما لا تعلمون] وقولـه : [يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون] (١) و . .

(١) في كتاب الميزان ج١١ ص٢٦٨ تتضمن الآيات امر يوسف لاخوته ان يحملوا قميصه الى ابيه و . . قال تعالى : « اذهبوا بقميصي هذا والقوه على وجه ابي يأتي بصيراً] - اسرار هذا القميص - يمكن القول ولعله اولى من سائر الاقوال : ان هذا آخر العنايات البديعة التي اظهرها الله تعالى في حق يوسف عليه السلام : مما غلب الله فيهـا الاسباب فحولها على غير مجاريها الاعتيادية ، لان الاسباب كانت تهدف الى خفض يوسف : من حسد اخوته له ، والقـائه في الجب ، وبيعه بثمن زهيد ، و . . واراد الله رفعه . فكان ما اراد الله دون ما توجهت اليه الاسباب [والله غالب على امره] ولكن سر القميص منها . هذا وقد وردت روايات في امر القميص - منها - : ان القميص كان نازلاً من الجنة . وانه قميص ابراهيم عليه السلام انزله جبرائيل حين القي في النار فألبسه اياه فكانت عليه برداً وسلاماً . ثم اورثه اسحاق . ثم أورثه يعقوب . ثم جعله يعقوب - تميمة - وعلقه على يوسف حين ولد فكان على عنقه حتى اخرجه يوسف من التميمة ففاحت منه ريح الجنة فوجدها يعقوب . لذا قال : [اني لاجد ريح يوسف . .] . واما سجودهم ليوسف فقد وردت فيه ايضاً روايات مضمونها : ان سجودهم كان لله شكراً . - منها - ما في تفسير القمي : حدثني محمد بن عيسى : ان يحيى بن اكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضها على ابى الحسن عليه السلام وكان احدها : اخبرنى عن قول الله : [ورفع ابويه على العرش وخروا له سجداً] اسجد يعقوب وولده ليوسف =

وان هذه الكلمات تعطينا مدى الشعور بحقيقة الالوهيـــة في هذا القلب الموصول بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ، ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة ، بذلك الواقع الصغير : واقع المادة والدنيا . وان الظواهر المؤيسة من يوسف ، والمدى الطويل لم تؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح ، وفي ثقته بربه . كما لمسنا من يعقوب وهو احد الصالحين : وانه لا ييأس من روح الله الا الكافرون الذين لا صلة لهم باله رحيم .

= وهم انبياء . فأجاب ابو الحسن عليه السلام : اما سجود يعقوب وولده ليوسف فانه لم يكن ليوسف وانما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف . كما كان السجود من الملائكة لآدم ، ولم يكن لآدم وانما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية لآدم . فسجد يعقوب وولده ، ويوسف معهم شكراً لله تعالى لاجتماع شملهم و . . وقد روى الحديث العياشي في تفسيره ايضاً بسند آخر . ولعل ما رواه العياشي اوفق لعدم ذكره - وتحية ليوسف - وفي تفسير العياشي عن ابى بصير عن ابى جعفر عليه السلام في حديث قال فيه : فسار -- اي يعقوب - تسعة ايام الى مصر فلما دخلوا على يوسف في دار الملك اعتنق اباه فقبله وبكى ، ورفع خالته على سرير الملك ثم دخل منزله فادهن واكتحل ولبس ثياب العز والملك ثم رجع اليهم ، فلما رأوه سجدوا جميعاً اعظاماً وشكراً لله فعند ذلك قال : [يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل . .] ولم يكن يوسف في تلك العشرين سنة يدهن ولا يكتحل ولا يتطيب ولا يضحك ولا يمس النساء حتى جمع الله شملهم .

تفهمنا القصة كيف تتجلى العقيدة

تتجلى العقيدة الصحيحة بالله التي لا تزاحمها المغررات، ولا تلوثها الشهوات على لسان يوسف عندما عرفه اخوته : [إنك لأنت يوسف] وقوله لهم : [انا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا] .. تتجلى من القاعدة العامة التي أصلها للبشرية جمعاء، تضيء من قوله بعد هذه النعمة المعترف بها بلا فصل : [انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين] أياً من كان المتقي والصابر . أهو يوسف ام غيره .

القصة في آخر مراحلها تدرسنا

كيف لا تبطر النعمة

ويمضي السياق في القصة فيطوي الزمان والمكان للألتقاء في المشهد النهائي المؤثر المثير : [فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه ، وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين] وياله من مشهد بعد كر الاعوام وانقضاء الايام ، وبعد الالم والضيق ، وبعد الامتحان والابتلاء ، وبعد الشوق المضني و . . ياله مشهد حافل بالانفعالات ، والخفقات ، والفرح والدموع ، وياله من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة : ذلك في ضمير الغيب ، وهذا في واقع الحياة ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه ويذكر رؤياه ويرى تأويلها عياناً بين يديه في سجود اخوته له وقد رفع ابويه على السرير الذي يجلس عليه . كما رأى الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين : [ورفع ابويه على العرش ، وخروا له

سجداً ، وقال : ياأبت هذا تاويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً] ثم يذكر نعمة الله عليه : [وقد أحسن بي اذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي] ويذكر لطف الله في تدبيره لتحقيق مشيئته : [ان ربي لطيف لما يشاء] يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها : [انه هو العليم الحكيم] . ذلك التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة : [ان ربك عليم حكيم] . ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات .

وقبل ان يسدل الستار على المشهد الاخير المثير . نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والجاه والسلطان والرغد والامان و .. ليتجه الى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وطلبته -- وهو في أبهة السلطان ، وفي فرحة تحقيق الاحلام -- ان يتوفاه الله مسلماً وان يلحقه بالصالحين [رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين] -- رب قد أتيتني من الملك -- آتيتني منه سلطانه ، ومكانه ، وجاهه ، وماله . فذلك من نعمة الدنيا [وعلمتني من تاويل الاحاديث] بادراك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم . نعمتك يارب اذكرها واعددها [فاطر السماوات والارض] بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى اهلها [انت وليي في الدنيا والآخرة] فانت الناصر والمعين . رب تلك نعمتك وهذه قدرتك . رب انى لا اسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالاً . رب إنى اسألك ما هو أبقى واغنى [توفني مسلماً وألحقني بالصالحين] وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء ، واجتماع الاهل ، ولمة الاخوان .

ويبدو المشهد الاخير . مشهد عبد فرد يبتهل الى ربه : ان يحفظ له اسلامه حتى يتوفاه اليه وان يلحقه بالصالحين وهو بين يديـه [فلا تموتن الا وانتم مسلمون] (١) انه النجاح المطاق في الامتحان الاخير

هكذا تكون القصص في القرآن

وقد صرح سبحانه بمجمل كل ما فصلناه : بعطف ختام السورة على مطلعها (٢) بقوله : [كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب] . مشيراً بذلك إلى الاهداف المقصودة من قصص القرآن وقد ذكرنا بعضها وهاك رؤوس أقلامها ـ ١ ـ البرهان الفطري على التوحيد . ـ ٢ ـ الالتجاء إلى الله عند الشدائد والمحن . ـ ٣ ـ عدم ارتكاب المحرمـات بحجة المضايقة . ـ ٤ ـ عدم الاغترار بالطاعات . ٥ ـ احتياج العبد على طول الخط إلى مزيد العناية الربانية بافاضة العـلم والمعارف الروحانية . ٦ ـ مرتكب المعاصي معدود في الجاهلين . ٧ ـ الرجل الصالح يقوم بواجب الدين ولو كان سجيناً . ٨ ـ عدم الغرور بالعلم لانه من الله تعالى . ٩ ـ التزام الواعظ بالأدب . ١٠ ـ الطاف الله لعبده وتسديده له ولو من طريق الضغط لغرض الانقطاع . ١١ ـ التعليم للعلماء لاغتنام فرص حاجة الجهلاء وتضمينها نصحهم . ١٢ ـ اعتزاز المؤمن بنزاهة نفسه وبراءة عرضه لا بالترف في حياته . ١٣ ـ بيان الداء العام : وانـه النفس الأماره بالسوء . ١٤ ـ الخضوع لله لا للجبابرة وان احسنوا .

---

(١) البقرة : ١٢٦ .

(٢) مطلعها قوله : [نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن الآية] يوسف : ٣ .

١٥ ـ الله سبحانه وتعالى هو الممكن لا ظواهر الأسباب . ١٦ ـ مبادي الابتلاء رحمة وتخويف كي يتراجع العصاة . ١٧ ـ عدم التنافي بين الأخذ بالاسباب والرجوع إلى الله تعالى . ١٨ ـ عدم اليأس من روح الله وان طال الزمن . ١٩ ـ كيف تتجلى العقيدة بالله تعالى . ٢٠ ـ المؤمن لا تبطره النعمة . ٢١ ـ هدف المؤمن النعيم الباقي لا الفاني .

من اهم اهداف القصة بيان

شخصية يوسف

ولعله الهدف الرئيسي للقصة . فقد بين شخصية يوسف عليه السلام بياناً مدعوماً بالبراهين التجسيدية ، والمناظر الحسية ، فوجدنا بعد هذه البيانات : شخصية يوسف عليه السلام وقد استقامت مع نشأتها والأحداث التي مرت بها ، والابتلاءات التي اجتازتها في ظل التربية الربانية للعبد الصالح ، الذي يعد ليمكن في الأرض ، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو ممكن له في الأرض ، وهو قابض على مقاليد الامور في مركز التموين في الشرق الأوسط .

وأول ملامح هذه المرحلة ، هذا الاعتزاز بالله ، والاطمئنان إليه والثقة به ، والتجرد له ، والتعري من كل قيم الأرض ، والتحرر من كل اوهاقها . واستصغار شأن القوى المتحكمة فيها ، وهوان تلك القيم وهذه القوى في النفس الموصولة الاسباب بالله سبحانه وتعالى .

ثناء الله تعالى عليه

مجموع ما أثنى به سبحانه على يوسف عليه السلام : أنه من عباده المخلصين . وكان صديقاً . وكان من المحسنين . وقد اتاه الله حكماً وعلماً وعلمه من تأويل الأحاديث (١) وقد اجتباه الله واتم نعمته عليه ، والحقه

(١) ذكر الطباطبائي في تفسيره - الميزان - ج١١ ص٢٩٥ - ٣٠٠ ما يخص الرؤيا وتعبيرها قال اولاً : الاعتناء بشأن الرؤيا . ثم قال : كان الناس كثيري العناية بأمر الرؤى . والمنامات منذ عهود قديمة لا يضبط لها بدء تاريخي ، وعند كل قوم قوانين ، وموازين متفرقة متنوعة يزنون بها المنامات ، ويعبرونها بها ، ويكشفون رموزها ، ويحلون مشكلات إشاراتها فيتوقعون بذلك خيراً أو شراً ، او نفعاً او ضراً بزعمهم . وقد اعتنى بشأنها في القرآن الكريم كما حكى سبحانه فيه رؤيا ابراهيم في ابنه قال : فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا ابت افعل ما تؤمر .. الى ان قال : وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا . .] الصافات : ١٠٥ .. ومنها .. ما حكاه تعالى من رؤيا يوسف عليه السلام : إذ قال يوسف لابيه يا أبت اني رأيت احد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين] يوسف : ٤ .. ومنها .. رؤيا صاحبي يوسف في السجن : قال احدهما اني اراني اعصر خمراً وقال الآخر انى اراني احمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين . .] يوسف : ٣٦ .. ومنها .. رؤيا الملك : [وقال الملك : اني ارى سبع بقرات . الآية] .. ومنها .. رؤيا أم موسى قال تعالى : [اذ اوحينا الى امك مايوحي =

. . . .

= ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم] طه : ٣٩ على ما ورد في الروايات انه كان رؤيا . ـ ومنها ـ ما ذكر من رؤى رسول الله صلى الله عليه وآله قال تعالى : [واذ يريكم الله في منامك قليلاً ولو اراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر] الانفال : ٤٣ وقال : [لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون] الفتح : ٢٧ وقال : [وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس] الاسراء : ٦٠ وقد وردت من طريق السمع روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وائمة اهل البيت عليهم السلام تصدق ذلك وتؤيده . لكن الباحثين من علماء الطبيعة من اوربا لا يرون لها حقيقة ، ولا للبحث عن شأنها وارتباطها بالحوادث الخارجية : وزناً علمياً . إلا بعضهم من علماء النفس ممن اعتنى بأمرها واحتج عليهم ببعض المنامات الصحيحة التي تنبيء عن حوادث مستقبلة او امور خفية أو إنباء عجيبة لا سبيل الى حملها على سبيل الاتفاق والصدفة وهى منامات كثيرة مروية بطرق صحيحة لا يخالطها شك كاشفة عن حوادث خفية او مستقبلة أوردوها في كتبهم . ـ وثانياً ـ ان للرؤيا حقيقة ما منا واحد إلا وقد شاهد من نفسه شيئاً من المنامات داله على بعض الامور الخفية او الحوادث التي ستستقبله من الخير أو الشر او . . ولا سبيل الى حمل ذلك على الاتفاق وانتفاء اي رابطة بينها وبين ما نطبق عليها من التأويل ثم ذكر انه لا سبيل الى القول بصحة كل منام . لأن بعضها يتسبب عن الخيالات وعن العوامل الخارجية المحيطة بالبدن . وعن انحرافات المزاج و . . وهذا هو الذي ذكره منكروا حقيقة الرؤيا من علماء الطبيعة . ولكن هذا لا ينتج السلب الكلي . كما ان ما قدمناه لا ينتج =

. . . .

= الايجاب الكلى . فلنتكلم على اسس المنامات الحقة فنقول : ان العوالم ثلاثة . ــ عالم ــ الطبيعة وهو العالم الدنيوي الذي نعيش فيه . والأشياء الموجودة فيها صوراً مادية تجري على نظام الحركة والسكون والتغير والتبدل ــ وعالم المثال ــ وهو فوق عالم الطبيعة وجوداً وفيه صور الاشياء بلا مادة منها تنزل هذه الحوادث الطبيعية واليها تعود ، وله مقام العلّية ونسبة السببية كحوادث عالم الطبيعة . ــ وعالم العقـــل ــ وهو فوق عالم المثال وجوداً وفيه حقائق الأشياء وكلياتها من غير مادة طبيعية ولا صورة ، وله نسبة السببية لما في عالم المثال . والنفس الانسانيـــة لتجردها لها مسانخة مع العالمين : عالم المثال ، وعالم العقل ، فاذا نام الانسان وتعطلت الحواس انقطعت النفس طبعاً عن الأمور الطبيعية الخارجية ورجعت الى عالمها المسانخ لها وشهادت بعض ما فيها من الحقائق بحسب مالها من الاستعداد والامكان ، فان كانت كاملة متمكنة من ادراك المجردات العقلية ادركتها واستحضرت اسباب الكائنات على ماهى عليها من الكلية والنورية ، وإلا حكتها حكاية خيالية بما تأنس بها من الصور والاشكال الكونية ، كما نحكي نحن مفهوم العظمة ــ بالجبل ــ ومفهوم الرفعة ــ بالعلو والسماء ــ ونحكى المكار الكائد ــ بالثعلب ــ ونحكى الشجاع ــ بالأسد ــ ، وان لم تكن النفس متمكنة من ادراك المجردات على ما هى عليها والارتقاء إلى عالمها توقفت في عالم المثـــال مرتقية من عالم الطبيعة فربما شاهدت الحوادث بمشاهدة عللها واسبابها من غير ان تتصرف فيها بشىء من التعبير ، ويتفق ذلك غالباً في النفوس السليمة المختلقة بالصدق والصفاء ، وهذه هى المنامات الصريحة .

وربما حكت ما شاهدته منها بما عندها من الأمثلة المأنوس بها =

. . . .

= كتمثيل العلم - بالنور - والجهل - بالظلمة - وربما انتقلنا من الضد الى الضد كانتقال اذهاننا الى معنى الفقر عند استماع الغنى ، ومن الحياة الى الموت ، ومن تصور النار ، الى الجمد ، ومن امثلة هذا النوع : ما نقل : ان رجلاً رأى في المنام ان بيده خاتماً يختم به افواه الناس وفروجهم ، فسأل - ابن سيرين - عن تأويله فقال : انك ستصير مؤذناً في شهر رمضان فيصوم الناس باذانك ، فالمنامات الحقة تنقسم انقساماً اولياً الى منامات صريحة لم تتصرف فيها النفس اي نفس النائم فتنطبق على مالها من التأويل من غير مؤنة وتكلف ، ومنامات غير صريحة قد تصرفت فيها النفس من جهة الحكاية بالأمثال ، والانتقال من معنى الى ما يناسبه او يضاده ، وهذه هى التي تحتاج الى التعبير بردها الى الأصل الذي هو المشهود الأولي للنفس كرد الموت الى الحياة ، ورد الحياة الى الفرج بعد الشدة ، والظلمة الى الجهل . ثم هذا القسم الثانى ينقسم الى قسمين - احدهما - ما تتصرف فيه النفس بالحكاية فتنتقل من الشيء الى المناسب او الضد ، مرة او مرتين فتقف فلا يعسر رده الى الاصل لقربه منه ، - وثانيهما - ما تتصرف فيه النفس من غير ان تقف على حد ، كان مثلاً من الشيء الى الضد ، ومنه الى مثله ، ومن المثل الى ضده وهكذا بحيث يتعذر او يتعسر على المعبر ان يرده إلى الاصل المشهود ، وهذا النوع هو المسمى - باضغاث الاحلام - والخلاصة ان المنامات على ثلاثة اقسام - الكلية - وهى الصريحة ولا تعبير لها لعدم الحاجة اليه لوضوحها - واضغاث احلام - ولا تعبير لها لتعذره او تعسره - والمنامات التي تصرفت فيها النفس بالحكاية والتمثيل - وهى التي تقبل التعبير . هذا ملخص ما ذكره علماء النفس في امر الرؤيا =

بالصالحين . كل ذلك في سورة يوسف . وقد أثنى عليه بما اثنى على آل نوح وابراهيم من الانبياء وذكره فيهم في سورة الانعام .

التعقيب الاخير على اهداف القصه

قال تعالى (١) [وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين] ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي ، وايحاء القصص وما فيها ان يؤمن الناس بهذا القرآن ، ويذعنوا لبراهينه ، ويتنوروا بعلومه . ولكن اكثر الناس لا يؤمنون وهم يمرون على الآيات المثبوتة في صفحة الوجود فلا ينتبهون

= وقد ألف - الميرزا النوري - كتاب - دار السلام في تفسير الأحكام يحتوي على اربعة مجلدات ، وفي القرآن ما يؤيد ذلك ، قال تعالى : [وهو الذي يتوفاكم بالليل] الانعام : ٦٠ وقال تعالى : [الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى] الزمر : ٤٢ وظاهره ان النفوس متوفاة ، ومأخوذة من الأبدان ، مقطوعة التعلق بالحواس الظاهرة ، راجعة إلى ربها نوعاً من الرجوع يضاهي الموت .

وقد اشير في القرآن الى كل واحد من الاقسام الثلاثة سابقة الذكر في القسم الاول : ما ذكر من رؤيا ابراهيم عليه السلام ورؤيا ام موسى عليه السلام وبعض رؤى النبي صلى الله عليه وآله .

ومن القسم الثاني : ما في قوله تعالى : [قالوا اضغاث احلام الآية] يوسف : ٤٤ ومن القسم الثالث رؤيا يوسف عليه السلام ومناما صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر المذكورة في سورة يوسف .

(١) يوسف : ١٠٣ .

اليها ، وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين .

وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة ، وتجييء التعقيبات في أول القصة واخرها وبين ثناياها متناسقة مع موضوع القصة وطريقة ادائها . وقد بدت القصة وانتهت في كامل السورة لان طبيعتها تستلزم هذا اللون من الاداء فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ومرحلة بعد مرحلة فلا تتم العبرة بها كما لا يتم التنسيق الفني فيها الا بان يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها ، وافراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا ، كما يحقق افراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين ، كحلقة قصة سليمان مع بلقيس او حلقة قصة مولد مريم . او حلقة قصة مولد عيسى عليه السلام . او حلقة قصة نوح والطوفان او . . فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها .

اما قصة يوسف فتقتضى ان تتلى متوالية : حلقاتها ومشاهدها من بدئها الى نهايتها : [نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين .

من قصص القرآن البارزة

قصة مريم وعيسى عليه السلام

قال تعالى : [اذ قالت امرأة عمران : رب اني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني انك انت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت : رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني

سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب (١)

تبدأ القصه هنا بحمل مريم ، وولادتها لبيان انـــه كيف تتركز الذوات على التزكية والنزاهـة ، وكيف تتأهل على التقى والعبوديـة ، وكيف تتحرر من العبودية الزائفة ، وتلتحق بالعبودية الحقة فامرأة عمران (٢) لعمران قلبها بالايمان تربطـه نذراً بالملاء الاعلى تعبيراً عن الخلوص لربها .

واي شيء هو منذورها . هو اعز ما تملك - جنينها الذي تحمله في بطنها - تنذره - محرراً - من كل قيد ، ومن كل شرك ، ومن كل حق لاحد غير الله سبحانه ، وحتى من حقوق والديه ، فما يتحرر انسان وهو يدين لاحد غير الله بشيء ما . لا تحرر وفي قلب الانسان تعلق او تطلع او عبودية لغير الله .

وحين جاء الاسلام بالتوحيـــد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الانسان .

ولا يخلو كلامها من اشعار : بان زوجها - عمران - لم يكن حياً عند إذن ، والالم يكن لها ان تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال كما يدل عليه ايضاً ما سيأتي من قولـة تعالى : [وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم ..] (٣) لظهور ان المكفول هو من

(١) آل عمران : ٣٥ ـ ٣٧ .

(٢) اسمها : حنة . او مرثار .

(٣) آل عمران : ٤٤ .

لا أب له . وهي كانت تنتظر ولداً ذكرا ولكنها وضعتها انثى : [فلما وضعتها انثى قالت : رب اني وضعتها انثى ، .. والله اعلم بما وضعت .. اي انها لا تقصد اخباره تعالى بذلك لانه اعلم منها ومن غيرها ، ولكنها تتجه الى ربها بما وجدت ، وكأنها تعتذر ان لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة . : [وليس الذكر كالانثى] اي ولا تنهض الانثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال .

هذا بناء على ان الكلام مقولها . اما بنـاء على ما هو الادق معنى وابعد هدفاً : من أن الجملتين معاً من مقول الله تعالى : [والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى] فيكون المعنى : إنا نعلم انها انثى لانا اردنا انجاز ما كانت تتمناه باحسن وجه ، وارضى طريق ، وابعد فائدة . ولو كانت تعلم ما اردناه لها بجعل ما في بطنهـا انثى لم تتحسر ولم تحزن . لان الذكر الذي كانت ترجوه اقصى ما يكون عليه من المنزلة كمنزلة عيسى عليه السلام وممكناً كتمكينه .

بينما هذه الانثى ستتم بها كلمـة الله ، وتلد ولداً من غير اب ، وتجعل هي وابنها آية للعالمين و . . اضافة الى كل ما في عيسى ذاته من الفضائل . فاذن قد اعطيناها فضيلة مريم وعيسى : كرامة الذكر والانثى عندما كانت تأمل كرامة الولد فقط . فالله اعلم بما وضعت وكان ذلك منه تعالى توفيراً للنعم عليها حيث علم صدقها واخلاصهـا وليس الذكر المطلوب لها كالانثى (١) التي وهبناها اياها في سعة المواهب وتعدد الكرامات

(١) يؤيده ما ذكرناه ما في تفسير القمي في قوله تعالى : [اذ قالت امرأة عمران الآية : عن الصادق عليه السلام قال : ان الله اوحى إلى عمران : اني واهب لك ذكراً سوياً مباركاً يبريء الاكمه والابرص ويحيي الموتى باذن الله وجاعله رسولاً الى بنى اسرائيل . فحدث عمران امرأته =

هذا وقد اخذ اكثر المفسرين قوله : وليس الذكر كالانثى . تتمة قول امرأة عمران . وعليه لا يخفى كون معنى الآية مبتذلاً، وساذجاً . والله اعلم .

[واني سميتها مريم] ومعنى مريم في لغتهم : العابدة والخادمة واعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العبادة والخدمة ويطابق فيها الاسم : المسمى [واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم] وهي الكلمة الاخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها وتدعها لحماية مقدساته ، ورعاية معابده .

[فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً] جزاء هذا الاخلاص وهذا التجرد الكامل . واعداداً لها ان تستقبل نفخة الروح، وكلمة الله وان تلد عيسى عليه السلام على غير مثال من البشر . ومعنى تقبلها بقبول حسن : تقبل مرضي . وهو مقتضى قولها : واني سميتها مريم . وقوله وانبتها نباتاً حسناً هو مقتضى قولها : واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . والكل تمهيد لاصطفائها على نساء العالمين .

[وكفلها زكريا] اي جعل كفالتها له وجعله اميناً عليها، وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي . من ذرية هارون الذي صارت اليهم سدانة الهيكل . ورغم انه كان ذلك بعلم الله جل شأنه ولكنه ظاهراً

= ـ حنة ـ بذلك وهي ام مريم فلما حملت كان حملها بها عند نفسها غلاماً فلما وضعتها قالت : رب اني وضعتها انثى وليس الذكر كالانثى ولا تكون البنت رسولاً : يقول الله تعالى : والله اعلم بما وضعت فلما وهب الله لمريم عيسى عليه السلام كان هو الذي بشر به عمران ووعده اياه . فاذا قلنا في الرجل منا شيئاً وكان في ولده ، او ولد ولده فلا تنكروا ذلك .

تسبب عن اصابة القرعة حيث اختصموا في تكفلها ثم تراضوا بالقرعة فاصابت القرعة زكريا ، كما يدل عليه قوله : [وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم (١) ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون]

(١) آل عمران ، ٤٣ . القلم القدح الذي به القرعة . ويسمى سهماً ايضاً فمعنى قوله يلقون اقلامهم يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعة ايهم يكفل مريم .

وفي مجمع البيان المجلد الثاني ص٤٣٦ ط ايران قالوا ، ان ام مريم اتت بها ملفوفة في خرقة الى المسجد وقالت دونكم النذيرة فتنافس فيها الاحبار ، لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم ، فقال لهم زكريا انا احق بها لان خالتها عندي - فيحيى بن زكريا ابن خالة مريم - فقالت له الاحبار انها لو تركت لاحق للناس بها لتركت لامها التي ولدتها .

ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه ، فانطلقوا وهم تسعة وعشرون رجلا الى نهر جار فالقوا أقلامهم في الماء ، فارتز قلم زكريا وارتفع فوق الماء ، ورسبت اقلامهم . عن ابن اسحاق وجماعة

وقيل ، بل ثبت قلم زكريا وقام فوق الماء كأنه في طين وجرت اقلامهم مع جرية الماء فذهب بها الماء ، عن السدي فسهمهم وقرعهم وكان رأس الاحبار ونبيهم .

فلما ضم زكريا مريم الى نفسه بنى لها بيتاً واسترضع لها .

وقال محمد بن اسحاق ضمها الى خالتها ام يحيى حتى اذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطها لا يرقى اليه الا بسلم مثل باب الكعبة ولا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها كل يوم [كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً] يعني وجد زكريا عندها فاكهه في غير حينها فاكهة الصيف =

ونشأت مريم مباركة يهيء لها من رزقه فيضاً من فيوضاته [كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يامريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب] وقد ذكر المفسرون عدة اقوال في تشخيص نوع الرزق . تركاضاً منهم وراء الروايات

في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف غضاً طرياً . عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي .

وقيل انها لم ترضع قط ، وانما كان يأتيها رزقها من الجنة عن الحسن . .

وفي رواية القمي في ذيل الرواية السالفة عنه فلما بلغت مريم صارت في المحراب وارخت على نفسها ستراً وكان لا يراها احد ، وكان يدخل عليها زكريا المحراب فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فكان يقول ، أنى لك هذا . فتقول ، هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقال في تفسير الميزان ج٣ ص١٩٩ . وهذه الروايات وإن كانت آحاداً ولا تخلو عن ضعف في طريقها ولكن لما لم تشتمل على امر غير معقول لا حرج في الاخذ بها دون الالتزام بمضامينها .

نعم يطرح ما خالف من الاسرائيليات ، او الموضوعات حكم العقل كما نقل عن قتادة وعكرمة ، ان الشيطان جاء الى زكريا وشككه في كون البشارة من الله تعالى ، وقال لو كانت من الله لاخفي لك في ندائه كما اخفيت له فى ندائك . كما ورد في انجيل - لوقا - ان جبرائيل قال لزكريا [وها انت تكون صامتاً ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا ، لانك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته] انجيل - لوقا - ١ - ٢٠ عن المصدر السابق ص٢٠٠ .

ونحن . لانخوض في ذلك كما خاضوا ، وخاضت الروايات ، فيكفي ان نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير والرزق حتى ليعجب كافلها وهو نبي من فيض الرزق عليها فيسألها كيف ومن اين هذا . فلا تزيد على ان تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله وتفويض الامر اليه [هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب] ولعل في تنكير قوله رزقاً . اشعار بكونه - رزقاً غير معهود - كما قيل انه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء تثبيتاً للاعجاز ، ودفعاً للشبهات - عادة المشككين - من انه من الناس قصدوا به خيراً او شراً .

يدل على ذلك قناعة زكريا بمجرد قولها له ، هو من عند الله . حيث وجده من غير المألوف .

زكريا وطلبه الولد

عندما رأى زكريا ذلك : - خارق العادات - تحركت في نفسه وهو الشيخ الذي لم يوهب له ذرية تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية الرغبة في الذرية . الامتداد في الخلف ، الرغبة التي لا تموت في نفوس العباد الزهاد ، الذين وهبوا انفسهم للعبادة ، ونذروها للهيكل .

انها الفطرة التي فطر الله عليها لحكمة عليا في امتداد الحيـاة وارتقائها (١) هنالك دعا زكريا ربه .

---

(١) بل أن هذه الفطرة ربما تجاوزت الانسان على الحيوان . وذكرنا في - الآيات الساطعة - ج١ ص١٤٩ ، ان سليمان بن داود سمع يوماً عصفوراً يقول لزوجته ادن مني اجامعك لعل الله يرزقنا ولداً ذكراً —

قال : [رب هب لي من لدنك ذرية طيبة (١) انك سميع الدعاء — بذكر الله تعالى فانا كبرنا . فتعجب سليمان من كلامه وقال ، هذه النية خير من ملكي .

وفي نفس المصدر ج٢ ص٢٥ ان ورشان عشعش على شجرة في بيت رجل فلما همت افراخه بالطيران حسنت له زوجته اخذ افراخ ذلك الورشان . ففعل ذلك مراراً فكلما فرخ الورشان اخذ الرجل افراخه ، فشكا ذلك الورشان الى سليمان عليه السلام وقال يارسول الله اردت ان يكون لي افراخ من بعدي يذكرون الله تعالى ، والرجل يأخذهم بأمر زوجته ، فقال سليمان لشيطانين ، اذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما اراد الرجل ان يصعد الشجرة اعترضه سائل فاطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد واخذ الافراخ على عادته فشكا الورشان ذلك الى سليمان ايضاً فقال عليه السلام للشيطانين الم تفعلا ما امرتكما به فقالا ، اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين . فعلم ان ذلك كان ببركة الصدقة .

(١) في تفسير الميزان ج٣ ص١٨٩ طيب الشىء ملائمته لصاحبه فيما يريده لاجله . فالذرية الطيبة هو الولد الصالح لابيه فقول زكريا [رب هب لي من لدنك ذرية طيبة الخ لما كان الباعث له عليه ماشاهد من كرامة مريم على الله ، وامتلاء قلبه من شأنها لم يملك نفسه دون ان يسأل الله ان يهب له مثلها خطراً وكرامة ، ولذلك استجيب له في عين ما سأله من الله ، ووهب له يحيى وهو اشبه الانبياء بعيسى واجمع الناس لما عند عيسى وامه من صفات الكمال والكرامة .

ومنها ماسماه بيحيى ، وجعله مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . وسمي ابن مريم عيسى وهو بمعنى — يعيش . وجعله —

فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله ، وسيداً وحصوراً ، ونبياً من الصالحين ، قال أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء قال رب اجعل لي آية ، قال : آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار] .

وكذلك نجدنا أمام حادث غير عادي . يحمل مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الالهية ، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر ، الذي يحسبه البشر قانوناً لا سبيل الى اخلافه .

ومن ثم يشكون في كل حادث لا يجييء في حدود هذا القانون ، فاذا لم يستطيعوا تكذيبه لانه واقع صاغوا حوله الخرافات والاساطير .

فها هو ذا ـ زكريا ـ الشيخ الكبير ، وزوجه العاقر التي لم تلد في صباها . . ها هو ذا تجيش في قلبه الرغبة الفطرية العميقة في الخلف وهو يرى بين يديه ـ مريم ـ الصالحة المرزوقة .

فيتوجه الى ربه يناجيه ، ويطلب منه ان يهب له من لدنه ذرية طيبة فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب .

كانت الاستجابة التي لا تتقيد بسن ولا تتقيد بمألوف الناس ، لانها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد : [فنادته الملائكة وهو قائم في المحراب : ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين] . .

- مصدقا بكلمة منه . والكلمة هى عيسى ، وجعل آيته ان لا يكلم الناس ثلاثة ايام . كما جعل ذلك لولادة عيسى عليه السلام في قوله . [فاما ترين من البشر احداً فقولي انى نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا] مريم ، ٢٦ .

لقد استجيبت الدعوة المطلقة من القلب الطاهر ، الـــذي علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ويملك الاجابة حين يشاء .

وبشرت الملائكة ـ زكريا ـ بمولود ذكر اسمه معروف قبل مولده ـ يحيى ـ وصفته معروفة كذلك : سيداً وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات ويملك زمام نزعاته من الانفلات .

ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله ـ ذكرنا سابقاً : ان الكلمة هو عيسى ـ ونبياً صالحاً في موكب الصالحين لقد استجيبت الدعوة ولم يحل دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً .

ثم يحسبون ان مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون .

وكل ما يراه الانسان ويحسبه قانوناً لا يخرج ان يكون امراً نسبياً لا مطلقاً ونهائياً ، ولو اقتضت الحكمة عكسه .

فما يملك الانسان وهو محدود العمر والمعرفة ، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الانسان هذه ان يصل الى قانون نهائي ، ولا ان يدرك حقيقة مطلقة . وهل يملك المحدود غير المحدود .

فما اجدر الانسان ان يتأدب في جنب الله ، وما اجدره ان يلتزم حدود طبيعته ، وحدود مجاله .

فلا يخبط في التيه بلا دليل ، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطار من تجاربه ، ومن مقرراته ، ومن علمه القليل .

وعندما كانت الاستجابة لزكريا من ربه . قال : [رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر] . . ولم يكن استفهامه استبعاداً وانما هو طلب تفهم لخصوصيات الافاضة والانعام التذاذاً بالنعمة الفائضة بعد النعمة ، والكرامة اثر الكرامة . فجاءه الجواب في بساطة ويسر .

برد الامر الى نصابه، ويرده الى حقيقته التي لا عسر في فهمها، ولا غرابة في كونها : [كذلك الله يفعل ما يشاء] . .

كذلك فالامر مالوف مكرر ، معاد حين يرد الى مشيئة الله وفعله الذى يتم دائما على هذا النحو ولكن الناس لا يتفكرون في الطريقة، ولا يتدبرون الصنعة ، ولا يستحضرون الحقيقة .

انما هذه مالوفات البشر، فاما بالقياس الى الله فلا مالوف ولا غريب كل شيء مرده الى المشيئة، والمشيئة مطلقة من كل القيود . ولكن زكريا لدهشته ، وشدة لهفته على تحقيق البشرى راح يطلب الى ربه ان يجعل له علامة يسكن اليها قال : [رب أجعل لي آية . .] هنا يوجه سبحانه الى طريق الاطمئنان الحقيقي فيخرجه من مالوفه في ذات نفسه . .

ان آيته ان يحتبس لسانه ثلاثة ايام اذا هو اتجه الى الناس . وان ينطلق اذا توجه الى ربه وحده يذكره ويسبحه . قال : [آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزاً (١) واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار] . . ويسكت السياق هنا . . ونعرف ان هذا قد كان فعلاً

فاذا زكريا يجد في ذات نفسه غير المالوف في حياته وحياة غيره لسانه هذا هو لسانه . . ولكنه يحتبس عن مكالمة الناس . وينطلق لمناجاة ربه . . اي قانون يحكم هذه الظاهرة انه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية . . فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة . . كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر ، وامرأته عاقر . .

---

(١) في مجمع البيان والميزان ، ان الرمز الايماء بالشفتين . وقد يستعمل بالحاجب والعين واليد . والاول اغلب .

حمل عيسى اغرب واغرب

وكأنما هذه الحادثة كانت تمهيداً في السياق لحادث عيسى عليه السلام الذي انبثقت منه كل الاساطير والشبهات .. ورآء مكذوب الروايات . وان هو الا حلقة من سلسلة في ظواهر المشيئة المطلقة ..

فهنا يبدأ في قصة المسيح عليه السلام . واعداد مريم لتلقي النفخة العلوية بالطهارة ، والقنوت ، والعبادة ، والنزاهة .. [واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين] (١) قال في الميزان (٢) فاصطفاؤها تقبلها لعبادة الله . وتطهيرها اعتصامها بعصمة الله . فهي مصطفاة معصومة . وربما قيل : ان المراد من تطهيرها جعلها بتولاً ، لا تحيض فيتهيأ لها بذلك ان لا تضطر الى الخروج من الكنيسة ..

والاصطفاء المتعدي بعلى يفيد معنى التقدم ، وهل هذا التقديم من جميع الجهات ، او من بعضها ، ظاهر قوله فيما بعد الآية : اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك الآية . وقوله : والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين (٣) وقوله تعالى : ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (٤) حيث لم تشتمل مما تختص

(١) آل عمران : ٣٧ .

(٢) ج٣ ص٢٠٥ .

(٣) الانبياء : ٩١ .

(٤) التحريم : ١٢ .

بها من بين النساء الاعلى شأنها العجيب في ولادة المسيح عليه السلام .
فيظهر من كل ذلك : ان هذا هو وجه اصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين واما ما اشتملت عليه الآيات في قصتها من التطهير والتصديق بكلمات الله وكتبه والقنوت وكونها محدثة فهي امور لا تختص بها ، بل توجد في غيرها .

وقـد قيل ايضاً في معناه : انها مصطفاة على نساء عالمها . وهذا وسابقه ، وغيرهما مما ذكر من الاقوال لغرض رفع التعارض بين اصطفائها على نساء العالمين . وبين ما تواتر عن النبي صلى الله عليه واله : [من ان فاطمة الزهراء سلام الله عليها : سيدة نساء العالمين] .

وخلاصة الجواب : ان سيادة فاطمة عليها السلام عامة . وسيادة مريم عليها السلام خاصة . اما تخصيص زماني ، او تخصيص صفتي .

وقال في المجمع (٣) : [يامريم ان الله اصطفاك] اي اختارك وألطف لك حتى تفرغت لعبادته واتباع مرضاته . وقيل : معناه اصطفاك لولادة المسيح ، عن الزجاج . [وطهرك] بالايمان عن الكفر وبالطاعة عن المعصية . عن الحسن وسعيد بن جبير . وقيل طهرك من الادناس والاقذار التي تعرض للنساء مثل الحيض والنفاس حتى صرت صالحة لخدمة المسجد ، عن الزجاج ايضاً . وقيل : طهرك من الاخلاق الذميمة والطبائع الرديئة . [واصطفاك على نساء العالمين] اي على نساء اهل زمانك ، لأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه واله سيدة نساء العالمين وهو قول ابي جعفر عليه السلام . وروي عن النبي صلى الله عليه واله انه قال : [فضلت خديجة على نساء امتي كما فضلت مريم على نساء العالمين] .

---

(١) المجلد ٢ ص٤٤٠ .

وقال ابو جعفر عليه السلام : معنى الآية اصطفاك من ذرية الانبياء ، وطهرك من السفاح واصطفاك لولادة عيسى عليه السلام من غير فحل . وخرج بهذا ان يكون تكراراً اذ يكون الاصطفاء بهذا على معنيين مختلفين . وهو يؤمي الى ما ذكرناه آنفاً من عدم التعارض بين تفضيلها ، وتفضيل فاطمة عليها السلام . كما انه لا تعارض بين الاخبار الواردة في ذلك (١) لأن الأخبار ذكرت ان المفضلات من النساء اربعة فاطمة ، وخديجة ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم . ولا مانع من فضل بعضهن على بعض .

خلاصة الامر في الاصطفاء

والخلاصة في امر الاصطفاء والتطهير بالاضافة الى ما ذكروه ـ ولعله الهدف الغيبي : انه تعالى يختارها لتلقي النفخة المباشرة كما تلقاها اول هذه الخليقة ـ آدم ـ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها ـ عادة القرآن وسنته ـ والاشارة بخصوص التطهير بمغزاها الغيبي العميق الى ما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات لم يتورع اليهود ان يلصقوها بمريم الطاهرة ، معتمدين على ان هذا المولد لا مثال له في عالم الناس ، وانـه على غير القانون البشري ، فيزعمون ان وراءه سراً لا يشرف . . قبحهم الله واخزاهم وقد فعل .

---

(١) قد ذكر جملة منها فى الميزان ج٣ ص٢٣٣ .

عظمة الدين الاسلامي

وهنا تظهر عظمة هذا الدين ، ويتبين ان مصدره عن يقين . فها هو ذا محمد صلى الله عليه واله ـ رسول الأسلام ـ الذي يلقى من اهل الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات . . ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على نساء العالمين ، الذي يرفعها الى الآفاق العالية . وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه واله وبالدين الجديد . اي صدق ، واي عظمة واي دلالة على مصدر هذا الدين ، وصدق صاحبه الامين . انه يتلقى الحق من ربه عن مريم وعيسى عليهما السلام فيعلن هذا الحق في هذا المجال . . ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما اظهر هذا القول في هذا المجال بحال .

فهذا من اهداف القرآن ايضاً ، ليثبت أحقية الرسول الأعظم صلى الله عليه واله وسلم في حين انه يقص امر عيسى ومريم .

تكرار النداء لحكمة

بعد ما نوديت مريم بقوله تعالى : [يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين] . نوديت على اثر ذلك ، وبدون فصل بقوله [يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين] . (١) مما يعطي

(١) القنوت : لزوم الطاعة فى خضوع . والسجود معروف . والركوع الانحناء او مطلق التذلل .

شبهة تكرار النداء فيما لا حاجة اليه ، وتأتي تادية المعنى بدونه .

ولكن لما وضع النداء لغرض إلفات المنادى ، وتوجيه فهمه الى المنادي وادراك غرضه ، وكان هناك غرض بعد غرض ، ونبأ إثر نبأ فكانه قال : استمعي لهما وإصغي اليهما : احدهما ما اكرمك الله به من منزلة وهو مالك انت عند الله . وثانيهما ما يلزمك من وظيفة العبودية وهو مالله عندك . فيكون هذا إيفاء للعبودية وشكراً للمنزلة . فيؤل معنى الكلام الى كون قوله : يامريم أقنتي الخ بمنزلة التفريع على قوله يامريم ان الله اصطفاك الخ اي اذا كان كذلك فاقنتي واسجدي واركعي . وغير بعيد ان تكون كل خصلة من هذه الثلاث فرعاً على خصلة من الثلاث السابقة . ولا يخفى ما فيه من الايمان الى لزوم تعدد الشكر لتعدد النعم . واخيراً : كوني يامريم على حياة موصولة بالله : تمهيداً للامر الخطير العظيم .

هدف من اهداف القصة

وعند هذا المقطع من القصة ، وقبل الكشف عن الحدث الكبير . . يشير الى شيء من حكمة سوق القصص ، وسردها . . انه اثبات الوحي الذي ينبىء عنه النبي صلى الله عليه واله بما لم يكن حاضره من انباء الغيب في هذا الامر . وبما لم يذكره العهد القديم ، ولا العهد الجديد المتداولان . ولم يرد : انهم ردوا هذه الحجة رغم عدم وجودها في عهودهم فكانها مسلمة عندهم ومعروفة عند احبارهم ورهبانهم . ولو كانت موضع جدال لجادلوا النبي صلى الله عليه واله فيها ، وهم قد جاءوا للجدال .

فالقرآن يضرب على وتر آخر وهو مشغول بوتره الفعلي : سرد

القصة بما لم يغير على اسلوبها. فيقول : [ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون] . وهي اشارة الى ما كان من تسابق سدنة الهيكل الى كفاية مريم حين ما جاءت بها أمها وليدة الى الهيكل ، وفاء لنذرها ، وعهدها مع ربها . وكان حل النزاع برجوعهم الى القرعة ، وإلقاء اقلامهم - سهامهم - في نهر الاردن . واخيراً ثبت قلم زكريا ، وكانت كفالتها اليه كما اسلفنا .

العجيبة الكبرى ظاهراً

والشأن العادي للمشيئة المطلقة

والآن ينتهي دور القصة الى مولد عيسى عليه السلام : [اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه إسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين قالت : رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولاً الى بني اسرائيل اني قد جئتكم باية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرىء الأكمة والابرص وأحي الموتى باذن الله وانبأكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ، ومصدقاً لمن بين يدي من التوراة ، ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون ،

ان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم] . . (١) .

وبعد ان تأهلت ـ مريم ـ بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقي هذا الفضل ، والتبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير : [اذ قالت الملائكة يامريم . الى قوله : ومن الصالحين] . . انها بشارة وإفصاح عن الأمر كله . بشارة من الله ، اسمه عيسى بن مريم .

ولقد طال الكلام منهم حول تشخيص معنى ـ الكلمة ـ ولكن الامر أيسر من هذا فاذا اردنا ان نفهم طبيعة هذه الحقيقة الفهم الذي يصل القلب بالله ، وصنعته وقدرته ومشيئته الطليقة : فلقد شاء الله ان يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب . وهذه كذلك في صنع الله ، وليست واحدة منهما باولى من الاخرى في الوجود والكينونة ونحن لا نعلم ما هو السر في هذه النفخة . او الكلمة (٢) ولا يهمنا ان لا نعلم . بعد ما علمنا النتاج للنفخة ، أو الكلمة . حيث هو الذي خلق العقل البشري ، وحدد إدراكه بما يخص خلافته في الارض . وعدم إدراكه سر الحياة ـ النفخة او الكلمة ـ اي كن فيكون ، لا يؤثر على وظيفته في خلافة الارض : [يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي] (٣) والله سبحانه يقول : ان النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة حتى على الملائكة ، فلابد اذن ان تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة لسائر الحيوانات .

وهذا ما يقودنا الى اعتبار الانسان جنساً نشأ نشأة ـ ذاتيه ـ وان له اعتباراً خاصاً في نظام الكون ، ليس لسائر الأحياء التي هي في

(١) آل عمران : ٤٠ .

(٢) حاصله : هو ما يظهر به مراده جل شأنه : ميزان ج٣ ص٢٠٩

(٣) الاسراء : ٨٧ .

نشأتها ـ عرضية ـ .

الخلاصة

ان الله يخبرنا عن نشأة سر الحياة وان لم ندرك سر الحياة ، وان لم ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه في الموات . وقد شاء الله بعد نشأة آدم المباشرة ان يجعل لاعادة النشأة الانسانية طريقاً معيناً : طريق إلتقاء ذكر وانثى . واجتماع بويضة وخلية . فيتم الاخصاب ، ويتم الانسال ، والبويضة حية غير ميتة ، والخلية حية كذلك متحركة .

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة .. حتى شاء الله ان يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الانسان فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الاولى ، وان لم تكن مثلها تماماً ـ انثى فقط ـ تتلقى النفخة التي تنشىء الحياة ابتداء فتنشأ فيها الحياة .

بالاضافة الى الحكم في هذا الانشاء : التي تخص - مريم وعيسى - ان يذكر البشرية على ما ربما تناسوه (١) من قدرته البالغة على اول إنشاء لهم -- ابيهم آدم --

وخلاصة هذا المبحث : ان الله شاء ان ينشىء حياة على غير مثال فانشأها وفق ارادته الطليقة التي تنشىء الحياة بنفخة من روح الله ، ندرك آثارها ، ونجهل ماهيتها .

ويجب ان نجهلها لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة

---

(١) بسبب نظرية النشوء والارتقاء التى تفقد ركائزها العلمية ، وانما هي مجرد نظرية .

الخلافة في الارض ، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً في تكليف الاستخلاف كما ذكرناه آنفاً .

البشارة لمريم

تضمنت البشارة من الملائكة بامر الله تعالى : نوعه ، واسمه ، ونسبه ، وظهر من هذا النسب : ان مرجعه الى أمه .. ثم تضمنت البشارة : صفته ، ومكانه من ربه : [وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين] . كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده : [ويكلم الناس في المهد] .. ولمحة من مستقبله : [وكهلاً] وسمته والموكب الذي ينتسب اليه : [ومن الصالحين] ..

فاما مريم المقيدة بمألوف الحياة ، وبمجرى العادة في الولادة فقد تلقت البشارة ، واتجهت الى ربها تناجيه وتتطلع الى كشف هذا اللغز الذي يحير العقول : [قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر] .. وجاءها الجواب يردها الى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها لطول إلفتهم للاسباب الظاهرية لعلمهم القليل ، ومألوفهم المحدود : [قال كذلك الله يفعل ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون] ..

وحين يرد الامر الى هذه الحقيقة الاولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب . وهكذا كان القرآن ينشىء التصور الاسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب ، وهكذا يجلو الشبهات التى تعقدها الفلسفات المعقدة ، ويقر الامر في القلوب وفي العقول سواء .

تاريخ عيسى ع المقبل

ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخلق الذي اختارها الله لأنجابه على غير مثال ، وكيف ستمضي سيرته في بني اسرائيل ، وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح ويلتقيان في سياق واحد ، كانما يقعان اللحظة على طريقة القرآن : [ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل] . قال في المجمع (١) : اراد من الكتاب : الكتابة عن ابن جريح قال اعطى الله عيسى عليه السلام تسعة اجزاء من الخط ، وسائر الناس جزءاً . وقيل اراد بعض الكتب التي انزلها تعالى على انبيائه سوى التوراة والانجيل . مثل الزبور وغيره عن ابي علي الجبائي وهو أليق بالظاهر : [والحكمة] اي الفقه وعلم الحلال والحرام عن ابن عباس . كما روي عن النبي صلى الله عليه واله انه قال : [أوتيت القرآن ومثليه] . قالوا اراد به السنن . وقيل اراد بذلك جميع ما علمه من اصول الدين . [والتوراة والانجيل] ان قيل لم افردهما بالذكر مع دخولهما في الحكمة . قيل تنبيهاً عن جلالة موقعهما كقوله : وملائكته ورسله وجبريل وميكال .

وقال الطبطبائي (٢) قوله : [ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل] اللام في الكتاب والحكمة للجنس . والحكمة هي المعرفة النافعة المتعلقة بالاعتقاد او العمل . فعطف التوراة والانجيل على الكتاب والحكمة مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمة : من قبيل ذكر الفرد

(١) مجمع البيان ج٢ ص٤٤٥ ط ايران .

(٢) في كتاب الميزان ج٣ ص٢١٤ .

بعد الجنس لأهمية في اختصاصه بالذكر ، وليست لام الكتاب للاستغراق لقوله تعالى : [ولما جاء عيسى بالبينات قال جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون] (١) .

واما التوراة فالذي يريده القرآن منها هو الذي انزله الله على موسى عليه السلام في الميقات في الواح على ما يقصه سبحانه في سورة الاعراف . واما الذي عند اليهود من الاسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند مابين ـ نبوخذنصر ـ من ملوك بابل و ـ كورش ـ من ملوك الفرس غير ان القرآن يصدق ان التوراة الموجود بايديهم في زمن النبي صلى الله عليه واله غير مخالفة للتوراة الاصل بالكلية وان لعبت بها يد التحريف ودلالة ايات القرآن على ذلك واضحة .

واما الانجيل ومعناه البشارة فالقرآن يدل على انه كان كتاباً واحداً نازلاً على عيسى عليه السلام فهو الوحي المختص به قال تعالى : [وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس] (٢) .

واما هذه الاناجيل المنسوبة الى ـ متى ـ ومرقس ـ ولوقا ـ ويوحنا ـ فهي كتب مؤلفة بعده عليه السلام ويدل على ان الاحكام انما هي في التوراة . وان الانجيل لا تشتمل الا على بعض النواسخ . كقوله في هذه الآيات : مصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم الآية . وقوله : واتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه] (٣) ولا يبعد ان يستفاد من الآية : ان فيه بعض الاحكام الاثباتية .

---

(١) الزخرف : ٦٣ .

(٢) ال عمران : ٤ .

(٣) المائدة : ٤٧ .

ويدل ايضاً على ان الانجيل مشتمل على البشارة بالنبي صلى الله عليه واله ، كالتوراة ايضاً قال تعالى : [الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل] (١) .

وقال في ظلال القرآن (٢) [ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل] : والكتاب قد يكون المراد به الكتابة ، وقد يكون هو التوراة والانجيل ويكون عطفهما على الكتاب عطف بيان

والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الامور في مواضعها ، وادراك الصواب واتباعه وهي خير كثير . والتوراة كانت كتاب عيسى عليه السلام كالانجيل ، فهي اساس الدين الذي جاء به والانجيل تكملة واحياء لروح التوراة ، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني اسرائيل .

وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة ، وهي قاعدة دين - المسيح - عليه السلام وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ، ولم يعدل فيها الانجيل الا القليل .

اما الانجيل فهو نفخة احياء وتجديد لروح الدين ، وتهذيب لضمير الأنسان يوصله مباشرة بالله من وراء النصوص .

الرسالة والبعثة

ثم قال تعالى : [ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم باية من ربكم] يعطي ظاهر الآية : ان رسالة عيسى عليه السلام كانت لبني

---

(١) الاعراف : ١٥٧ .

(٢) المجلد الاول ج٣ ص١٩٢ .

اسرائيل خاصة (١) وهذا ربما يتنافى مع الاجماع على انه عليه السلام من اولى العزم المبعوثين لكل من في الدنيا .

وقد يدفع ذلك . على ما حققه في الميزان (٢) بما ملخصه : ان النبوة غير الرسالة ، فهو رسول وسفير خاص الى بني اسرائيل ، ومبعوث ومبلغ للناس عموماً . لأن النبي هو الأنسان المبعوث لبيان الدين للناس والرسول هو المبعوث لأداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك ، وقبوله البقاء والسعادة . . والآية هي الدلالة ، والحجة ، والبرهان ، وهي من ربكم ، لا مني : [اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وابرىء الاكمه والابرص وأحي الموتى باذن الله وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم ، ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين] وقد وصل قوله : باذن الله بقوله : فيكون طيراً ، دون ما قبله . لان تصوير الطير من الطين والنفخ فيه مما يكون مقدوراً للانسان ، ولكن كونه طيراً وفيه الحياة فمما لا يقدر عليه الا الله فقال : [باذن الله] والاكمه الذي يولد مطموس العين الذي لا يمكن ابراءه لغير الله تعالى ، والابرص الذي فيه -- وضح -- وهو مرض جلدي معروف .

نظرات القرآن الغيبية

فلقد كرر قوله : باذن الله . بعد كل فقرة في حين كان يكفي ذكرها مرة واحدة بعد تعداد كل الآيات ، وفيه من الاصرار والتأكيد منه عليه السلام على الاعتراف بان اجراء كل ذلك على يدي انما هو

(١) هكذا في ظلال القرآن المجلد الاول ج٣ ص١٩٣ .

(٢) ج٣ ص٢١٦ .

باذن وأمر من الله . واني لا استقل بشيء من ذلك .

وذلك لما كان يعلمه الله : من ضلال الناس فيه ، واعتقادهم ألوهيته استدلالاً بالآيات المعجزة الصادرة منه عليه السلام .

وفوق هـذا التصريح فقـد ختم الكلام بما هو اصرح فقال : [ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم] وكان آخر الدلالات ما هو من الاخبار بالمغيبات نسبة اليه عليه السلام كاخبارهم بما اكلوه وادخروه في بيوتهم . كان يقول للرجل : تغديت بكذا وكذا ، ورفعت الى الليل كذا وكذا مما لا يظهر الا لاهل البيت .

واما إحياء الموتى باذن الله فقد ذكر الطبرسي (١) انه أحيى اربعة أنفس : عازر . وكان صديقاً له وكان قد مات منذ ثلاثة ايام ، فقال لاخته : انطلقي بنا الى قبره ، ثم قال : اللهم رب السماوات السبع ورب الارضين السبع انك ارسلتني الى بني اسرائيل ادعوهم الى دينك واخبرهم باني أحي الموتى . فاحيي - عازر - فخرج من قبره وبقي ، وولد له : وابن العجوز . مر به ميتاً على سريره فدعا الله عيسى عليه السلام فجلس على سريره ونزل عن اعناق الرجال (٢) ولبس ثيابه ورجع الى اهله وبقي وولد له . : وابنة العاشر . (٣) قيل له : أتحييها وقد ماتت امس فدعا الله فعاشت وبقيت ، وولدت . : وسام بن نوح . دعا عليه بالاسم الاعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه فقال : قد قامت القيامة قال : لا ولكني دعوتك باسم الله الاعظم . قال ، ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان . لأن سام بن نوح قد عاش خمسمائة عام وهو شاب ، ثم قال له : مت

(١) في مجمع البيان ج٢ ص٤٤٥ .

(٢) لان الرجال كانوا قد حملوا جنازته على اعناقهم في نعشه .

(٣) أي العشار .

قال بشرط ان يعيذني الله من سكرات الموت فدعا الله ففعل . . وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بانشاء الحياة ، أوردها ، اورد العافية وهي فرع عن الحياة وهي في صميمها تتسق مع مولــد عيسى ومنحه الوجود والحياة على غير مثال ، الامثال آدم عليه السلام . واذا كان الله قادراً ان يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه ، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال . ولا حاجة اذن لكل الشبهات والاساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص ، متى رد الى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الانسان ربه بمألوف الانسان .

الختام لدعوة عيسى عليه السلام

قال : [ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم باية من ربكم فاتقوا الله واطيعون ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم] .

وهذا الختام في دعوة عيسى عليه السلام لبني اسرائيل يتكشف عن حقائق اصيلة في طبيعة دين الله ، وفي مفهوم هذا الدين في دعوة الرسل جميعاً . وهي حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى عليه السلام بالذات ـ وهو الذي ثار حول مولده وحقيقتـه ما ثار من الشبهات ـ التي نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التي لا تتبدل بين رسول ، ورسول . فهو اذن يقول : [ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم] . . يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة ، فالتوراة تنزلت على موسي عليه السلام وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان ، وملابسات حياة

بني اسرائيل ، بما انها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمن .

هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام وجاءت رسالته مصدقة لها ، مع تعديلات تتعلق باحلال بعض ما حرم الله عليهم ، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاصي وانحرافات ، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم . ثم شاءت ارادته ان يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم .

فالقصة هي القصة : محافظة على اسلوبها وروعتها وهي في ضمن ذلك تهدف الى مقاصد أصيلة : تهدف - اولاً - الى بيان ان التوحيد هو هدف الرسل كلها . و - ثانياً - الى اعتراف عيسى عليه السلام بالعبودية : دفعاً لما يكون من الشبهات في ألوهيته . و - ثالثاً - الى بيان ان الاديان كلها تهدف الى أمر موحد بطبيعتها وان اختلفت بعض فروعها لاختلاف زمانها .

ومن هذا يتبين ان طبيعة الدين - اي دين - ان يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع ، والا يقتصر على الجانب التهذيبي الاخلاقي وحده ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر وحدها فهذا لا يكون ديناً . فما الدين إلا منهج الحياة الذي اراده الله للبشر ، ونظام الحياة الذي يربط الحياة بمنهج الله . فلا يمكن ان ينفك عنصر العقيدة الايمانية (١) عن الشعائر التعبيدية ، عن القيم الخلقية ، عن الشرائع التنظيمية . في اي دين يريد ان يصرف حياة الناس وفق المنهج الالهي . واي انفصال لهذه المقومات فهو يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة ، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما اراده الله .

---

(١) وهى - التوحيد - الذي جعلناه فاتحة - كتابنا الآيات الساطعة - .

حوادث المسيحية المؤسفة

ولقد حدث عكس ما قرر لطبيعة الدين ، وحقيقته للمسيحية ، لعدة ملابسات - تاريخية - من ناحية .. ولكونها جاءت موقوتة لزمن حتى يجيء الدين الاخير ثم عاشت بعد زمنها - من ناحية اخرى ..

فقد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدي الاخلاقي .. فقد حدث ان قامت العداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح عليه السلام وانصاره ومن اتبع دينه فيما بعد . فانشأ انفصالاً بين التوراة المتضمنة للتشريع ، والانجيل المتضمن للاحياء الروحي والتهذيب الاخلاقي .. كما ان تلك الشريعة كانت شريعة موقتة ، موقوتة لزمن خاص ، ولجماعة خاصة ، وكان في تقدير الله : ان الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيىء في موعدها المقدور . والخلاصة ان المسيحية قد انتهت الى ان تكون نحلة بغير شريعة .

وهنا عجزت ان تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها . فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر الوجود كله ، ويفسر حياة الانسان ، ومكانه في الوجود ، وتقتضي نظاماً تعبدياً وقيماً اخلاقية . ثم تقتضي حتماً تشريعات منظمة لحياة الجماعة مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي ، ومن هذا النظام التعبدي ، ومن هذه القيم الاخلاقية .

وهذا القوام التركيبي للدين هو الذي يضمن قيام نظام اجتماعي له بواعثه المفهومة ، وله ضماناته المكينة فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن ان تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية ، واضطر اهلها الى الفصل بين القيم الروحية ، والقيم العملية في حياتهم

كلها . ومن بينها النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هـــذه الحيـاة . وقامت الانظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها الطبيعية الوحيـدة . فقامت معلقة في الهواء ، او قامت عرجاء .

نتائج ذلك الانحراف

ولم يكن هذا امراً عادياً وسهلاً في الحيـاة البشرية ، ولا حادثاً صغيراً في التاريخ البشري . . انما كان كارثة ضخمة تنبع منها الشقوة والحيرة ، والانحلال ، والشذوذ ، والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم . سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية ـ وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع ـ او التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيراً عن الذين يدعون انهم مسيحيون . .

فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح ، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين ، : هي الشريعة المنظمة للحياة ، المنبثقة من التصور الاعتقادي بالله ، ومن القيم الاخلاقية المستندة الى هذا التصور وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية . ولا يكون دين على الاطلاق وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يلبي حاجات النفس البشرية ، ويلبي واقع الحياة البشرية ، ويرفع النفس البشرية ، والحياة البشرية كلها الى الله تعالى . وهذه الحقيقة هي احدى الاهداف والمفاهيم التي يتضمنها قول المسيح عليه السلام : [ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم] . .

وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة ، على الحقيقة الكبرى الاولى : حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه : [وجئتكم باية من ربكم فاتقوا الله

واطيعون ، ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم] . .

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله : المعجزات التي جاءهم بها لم يجىء بها من عند نفسه . فماله قدرة عليها وهو بشر . انما جاءهم بها من عند الله .

ودعوته تقوم إبتداءً على تقوى الله وطاعة رسوله . . ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء - فما هو برب وانما هو عبد - ويختم قوله بالحقيقة الشاملة . . فتوحيد الرب ، وعبادته ، وطاعة الرسول والنظام الذي جاء به [هذا صراط مستقيم] وماعداه عوج وانحراف وما هو قطعاً بالدين . .

استنجاد عيسى عليه السلام

وينتقل السياق القرآني الى طلب عيسى عليه السلام الانصار لمهمة ابلاغ دين الله عندما أحس بالكفر من بني اسرائيل . [فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من انصاري الى الله ، قال الحواريون نحن انصار الله ، آمنا بالله واشهد بانا مسلمون ، ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين] فقد أحس منهم الكفر والجحود بعد ما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تتهيأ لبشر . والتي تشهد بان الله وراءها ، وان قوة الله تؤيدها ، وتؤيد من جاءت على يده .

وبالرغم من ان المسيح جاء ليخفف عن بني اسرائيل بعض القيود والتكاليف . . عند اذن دعا دعوته : [من انصاري الى الله] . . من انصاري الى دين الله والدعوة اليه ، والى منهجه ونظامه . ولابد لكل صاحب عقيدة ودعوة من انصار ينهضون معه ، ويحملون دعوته ، ويحامون دونها ، ويبلغونها الى من يليهم ، ثم يقومون بعده عليها . . [قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون] فذكروا

الاسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين ، وأشهدوا عيسى عليه السلام على اسلامهم هذا ، وانتدابهم لنصرة الله . ثم اتجهوا الى ربهم يتصلون به مباشرة : [ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين] .

وفي هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة .. ان عهد المؤمن هو ابتداءً مع ربه ، ومتى قام الرسول بابلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد ، وانعقدت البيعة مع الله فهي باقية في عنق المؤمن بعد الرسول .

فليس الامر مجرد عقيـــدة في الضمير ، ولكنه اتباع المنهج ، والاقتداء فيه بالرسول . وهذا المعنى هو الذي يركز عليه سيـاق هذه السورة ، ويكرره بشتى الاساليب .

ثم هناك عبارة اخرى تلفت النظر ايضاً : هي قول الحواريين : [فاكتبنا مع الشاهدين] اي وفقنا لأن نجعل من انفسنـا صورة حية تطبيقية لهذا الدين ، وللجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة ولو كان الثمن ذهاب حياتنا . ليكونوا من الشهداء على حق هذا الدين .

وهو دعاء جدير بان يتأمله كل من يدعي لنفسه الاسلام .. فهذا هو الاسلام كما فهمه الحواريون (١) وكما هو في ضمائر المسلمين

---

(١) في مجمع البيان ج٢ ص٤٤٧ اختلف في سبب تسميتهم بذلك - أي حواريين - على أقوال : اولها ، انهم سُمّوا بذلك لنقاء ثيابهم . عن سعيد بن جبير . ثانيها ، انهم كانوا قصارين يبيضون الثياب . عن ابن أبي نجيح عن أبي ارطاة . ثالثها ، انهم كانوا صيادين يصيدون السمك . عن ابن عباس والسدي . رابعها ، انهم كانوا خاصة الانبياء . عن قتادة والضحاك . وهذا أوجه لانهم مدحوا بهذا الاسم . كأنه ذهب =

. . . .

= الى نقاء قلوبهم كنقاء الثوب الابيض بالتحوير . . وقال الكلبي وأبو روق (١) : الحواريون اصفياء عيسي وكانوا اثني عشر رجلاً . وقال =

(١) ابو روق بفتح الراء : هو عطية بن الحارث الهمداني الكوفي من رجال الشيعة معروف بالتفسير ذكره العلامة في الخلاصة . وهو صدوق عند أهل السنة أيضاً روى عنه : النسائي ، وابن ماجة ، وأبو داود . وروى عنه عمرو بن أبي المقدام من أصحاب الباقر عليه السلام كتاب زيد بن وهب في خطب أمير المؤمنين عليه السلام . وذكر الشيخ في الفهرست : ان له كتاباً في غريب القرآن . وجمع كتابه وكتاب أبان ابن تغلب والكلبي جميعاً : عبد الرحمان بن محمد الأزدي . قال : وروى ان الحواريين اتبعوا عيسى عليه السلام وكانوا اذا جاءوا قالوا ياروح الله جعنا . فيضرب بيده على الارض سهلاً أو وجبلاً فيخرج لكل انسان منهم رغيفين يأكلهما ، واذا عطشوا قالوا ياروح الله عطشنا فيضرب بيده على الارض سهلاً كان أو جبلاً فيخرج ماء فيشربون ، قالوا ياروح الله : من افضل منا اذا شئنا اطعمتنا . واذا شئنا اسقيتنا ، وقد آمنا بك واتبعنا قال : افضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه . فصاروا يغسلون الثياب بالكراء .

وفي الميزان ج٣ ص٢٢١ : حواري الانسان : من اختص به من الناس . وقيل : اصله من الحور . وهو شدة البياض . ولم يستعمل القرآن هذا اللفظ الا في خواص عيسى عليه السلام من اصحابه . وفي ص٢٣٦ منه : في العيون عن الرضا عليه السلام انه سأل ، لِمَ سُمي الحواريون الحواريين . قال ، اما عند الناس فانهم سموا حواريين لانهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل ، وهو اسم مشتق من =

الحقيقيين .

ويمضي السياق الى خاتمة القصـــة بين عيسى عليه السلام وبني اسرائيل : [ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، اذ قـال الله : ياعيسى اني متوفيك ، ورافعك الي ، ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، فاما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لايحب الظالمين] . .

والمكر الذي مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم - عيسى عليه السلام - مكر طويل عريض . فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة - أمه - مع يوسف النجار خطيبها الذي لم يدخل بها كما تذكر الاناجيل .

وقد اتهموه عليه السلام بالكذب ، والشعوذة ووشوا به الى الحاكم الروماني - بيلاطس - وادعوا انه مهيج يدعو الجماهير للأنتقاض على الحكومة ، وانه مشعوذ يجدف ، ويفسد عقيـدة الجماهير . . حتى سلم لهم - بيلاطس - بأن يتولوا عقابه بايديهم . لأنه لم يجرأ - وهو وثني - على احتمال تبعة هذا الاثم مع رجل لم يجـد عليه ريبة . وهذا قليل

= عبد الله بن المبارك : سموا حواريين لانهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها ، وحسنها كما قال تعالى : [سيماهم في وجوههم من أثر السجود].

= الخبز الحوار . وأما عندنا فسمي الحواريون الحواريين لانهم كانوا مخلصين في انفسهم ، ومخلصين غيرهم من اوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير وفي كتاب التوحيد عنه عليه السلام ، انهم كانوا اثني عشر رجلاً ، وكان أفضلهم واعلمهم - الوقا - .

من كثير ٠٠ (١)

[ومكروا ومكر الله وهو خير الماكرين] ٠ والمكر هو التدبير وبهذا المعنى نسب المكر الى ذاته القدسية ٠ وان كان المشهور منه : ما يقارب ـ الحيل ـ قصداً للمشاكلة ٠ فاذا كان مكره سبحانه : تدبيره فمن الذي يواجه تدبيره ، فاين هم من الله ، واين مكرهم من تدبير الله ٠ لقد ارادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله ٠ واراد الله : ان يتوفاه ، وان يرفعه اليه ، وان يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، واراد ان يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ٠ وكان ما اراده الله ، وابطل الله مكر الماكرين : [اذ قال الله : ياعيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة] ٠٠

فاما كيف وفاته ، وكيف كان رفعه ، فهي امور غيبية ـ اولاً ـ وقد تعرضنا لبعضها في كتابنا ـ الآيات الساطعة ـ ثانياً ـ (٢) فترك التعرض لها ههنا اجدر بنا ، تباعداً عن التكرار .

دفع شبهة ببساطة

وقد اطال الكلام فيها في كتاب الميزان (٣) وهي ان قوله تعالى [وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة] مما يعطي بظاهره : ان الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ـ وهم النصارى ـ هم

(١) ظلال القرآن المجلد الأول ج٣ ص١٩٩ .

(٢) ج١ ص٢٩٩ .

(٣) ج٣ ص٢٢٦ .

المتفوقون الى آخر الدنيا ، وآلى يوم القيامة .

ودفع هذه الشبهة لا يحتاج الى تكلف وتطويل وتعقيد بل هو على البساطة : فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح : الاسلام عرف حقيقته كل نبي ، وجاء به كل رسول وآمن به كل من آمن حقاً بدين الله . وهم القائلون : [واشهد بانا مسلمون] وهؤلاء فوق الذين كفروا الى يوم القيامة في ميزان الله .

كما انهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الايمان ، وحقيقة الاتباع .. ودين الله واحد وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ، ومن بعده كل رسول .

والذين يتبعون محمداً صلى الله عليه والـه هم في الوقت ذا إتبعوا موكب الرسل كلهم ، من لدن آدم عليه السلام الى آخر الزمان . وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق .

نهاية المطاف

فاما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين فيقررها السياق في صدد اخبار الله لعيسى عليه السلام : [ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، فاما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ، واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين] .. وفي هذا النص تقرير لجدية الجزاء ، وللقسط الذي لا يميل شعرة ، ولا تتعلق به الاماني ولا الافتراء . رجعة الى الله لا محيد عنها ، وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد

له ، وعذاب شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه ، وتوفية للاجر للذين آمنو وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس . [والله لايحب الظالمين] . . فحاشا ان يظلم وهو لا يحب الظالمين . وهو ابلغ من ان يقول : والله لا يظلم .

هذا واقع الامر . فكل ما يقوله اهل الكتاب اذن : من انهم لن يدخلوا النار الا اياماً معدودات . وكل ما رتبوه : من دفع مال في الدنيا واشتراء ـ قطع ـ في الجنان ، وما الى ذلك . رتبوه على التمييع في تصور عدل الله في جزائه من اماني خادعة . . فهو باطل . باطل لا يقوم على اساس .

الهدف الرئيسى للقصة

وعندما يصل السياق الى هذا الحد من قصة عيسى التي تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجدل يبدأ التعقيب الذي يقرر الحقائق الاساسية المستفادة من هذا القصص وينتهي الى تلقين الرسول صلى الله عليه واله : ما يواجه به اهل الكتاب مواجهة فاصلة تنهي الحوار والجدل وتستقر على ماجاء به وما يدعو اليه في وضوح كامل وفي يقين . ويكون كتلخيص بعد تفصيل ، وايجاز بعد اطناب : [ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ، ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، ان هذا لهو القصص الحق وما من إلهٍ إلا الله وان الله لهو العزيز الحكيم

فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين ، قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون] .

وهكذا يكون التعقيب . وهكذا تحقق الاهداف للقرآن من طريقة القصص : [ذلك نتلوه عليك من الآيـات والذكر الحكيم] ذلك القصص . وذلك التوجيه القرآني فهو وحي من الله يتلوه على نبيه صلى الله عليه واله تلاوة الايات والذكر الحكيم . .

وانه لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى في النفس والحياة بمنهج واسلوب ، وطريقة تخاطب الفطرة ، وتتلطف في الدخول عليها .

ثم يحسم التعقيب في حقيقة عيسى عليه السلام وفي طبيعة الخلق والارادة التي تنشىء كل شيىء كما أنشأت عيسى : [ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون] . ان ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس الى مألوف البشر . ولكن أيه غرابة فيها حين تقاس الى خلق آدم أبي البشر . إذا كان عيسى خلق من غير أب . فآدم خلق من غير أب ومن غير أم أيضاً .

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة . حقيقة عيسى . وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله . والكل بارادة الله ، وبقوله تعالى : [كن فيكون] .

وهذه هي طريقة الذكر الحكيم . في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط ، في أعقد القضايا . وقد جاء أهم وفد فيها لمجادلة النبي صلى الله عليه واله وسلم .

التعقيب

عندما يصل السياق بالقضية الى هذا الحد من الوضوح ، يعقب سبحانه تأكيد على رفع شبهات اهل الكتاب ، وتلبيسهم ، وتضليلهم : من اذهان المسلمين : [الحق من ربك فلا تكن من الممترين] : اي الشاكين وما كان الرسول صلى الله عليه واله شاكاً فيما يتلوه عليه ربه في لحظة من لحظات حياته .

انما هو التثبيت على الحق لـه وللمسلمين ومن باب ـ اياك اعني واسمعي ياجارة ـ ومن هذا ندرك مدى ما بلغ كيد اعداء هذا الدين ، واعداء المسلمين لهذه الدعوة الحقة .

وقوله : [الحق من ربك] من ابدع البيانات القرآنية : حيث قيد الحق بمن الدالة على الابتداء ، دون غيرها مثل ان يقال : مع ربك . لمافيه من شائبة الشرك من معنى المعية . وذلك : ان الاقوال الحقة كائنة ما كانت وان كانت ضرورية ، غير ممكنة التغير عما هي عليه كقولنا : ـ الاربعة زوج ـ ونحو ذلك الا ان الانسان انما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود . والوجود كله من الله فالحق كله منه ، كما ان الخير كله منه . وفعل غيره انما يصاحب الحق إذا كان حقاً ، واما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق الا صورته العملية ، ولذلك كان تعالى : [لا يسأل عما يفعل وهم يسألون]

الرجوع الى السلاح الفتاك

وكما يقال في المثل : ـ آخر الدواء : الكي . ـ فحيث قد وضح الحق علمياً . وأعقب ذلك الامتناع من الانصياع الى الحق والواقع : يجيء التعقيب بما نتيجة قبوله : الهلاك والدمار : [فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين] ، . يدعوهم الى المباهلة (١) وحيث ان مبنانا على التأسيس لا على التأكيد ، وعلى توفير الفائدة وعدم التكرار ، وقد ذكرنا قصة المباهلة مفصلة في الآيات الساطعة (٢) فنكتفي منها ههنا بما قاله الاسقف ـ وهو رئيسهم ـ لقومه عندما واجه النبي صلى الله عليه واله مقبلاً عليهم باهل بيته عليهم السلام : علي عليه السلام . وفاطمة عليها السلام . والحسن عليه السلام والحسين عليه السلام . ولم يشرك معهم اي أحد : اني لأرى وجوهاً لو سألوا الله ان يزيل جبلاً من مكانه لأزاله . فلا تبتهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة .

وقول النبي صلى الله عليه واله : [والذي نفسي بيده لو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير ، ولأضرم الوادي عليهم ناراً ، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا كلهم] .

واخيراً قبلوا بالصلح على مقادير يدفعونها الى النبي صلى الله عليه

---

(١) المباهلة من البهلة وهي اللعنة ، ثم استعملت في الدعاء اذا كان مع اصرار والحاح .

(٢) ج١ ص٣٤٥ .

واله في كل سنة . ولما رجعوا لم يلبث ـ السيد والعاقب ـ الا يسيراً حتى رجعا الى النبي صلى الله عليه واله يحملان هدية له صلى الله عليه واله وأسلما . (١)

ثم يمضي التعقيب يقرر حقيقـــة الوحي ، وحقيقة القصص ، وحقيقة الوحدانية التي يدور حولها الحديث ، ويهدد من يتولى عن الحق ويفسد بهذا التولي : [ان هذا لهو القصص الحق ، وما من إله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم ، فان تولو فان الله عليم بالمفسدين] . . فقد تقدم تقرير حقائق هذه الاية .

والجدير فيها هو وصف المتولين عن الحق بانهم مفسدون، وان الله عليم بهم . وان الفساد الذي يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد : فساد عظيم . بل وما ينشأ فساد في الارض واقعاً الا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة . لا اعتراف اللسان فانه لا قيمة له . ولا اعتراف القلب السلبي فانه لا ينشىء آثاره الواقعية في حياة الناس .

انما هو الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التي تلازمها في واقع الحياة البشرية . واول ما يلازم حقيقة التوحيد : ان تتوحد الربوبية ،

(١) يراجع كتاب الميزان ج٣ ص٢٤٤ ـ ٢٦٧ للاطلاع على ماورد في أمر المباهلة من الروايات • وقد ذكر عن كتاب ـ سعد السعود ـ انه روى خبر المباهلة من واحد وخمسين طريقاً عمن سماهم من الصحابة وغيرهم . وعد منهم عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمان بن عوف ، وعبد الله بن عباس ، وأبا رافع مولى النبي صلى الله عليه وآله ، وجابر بن عبد الله ، والبراء بن عازب ، وأنس ابن مالك ، و • • ثم يذكر مع هذا كله : معارضة بعض المفسرين • فليراجع فانه كثير الفائده •

فتتوحد العبودية ، فليس الا لله تكون الطاعة ، وليس الا عن الله يكون التلقي . .

التلقي في التشريع ، والتلقي في القيم والموازين ، والتلقي في الاداب والاخلاق ، والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية . . ولا فهو الشرك ، او الكفر .

ان هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ، ولا يصلح حاله ، الا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره : [لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا] (١) ومن ثم يتلو ذلك التهديد في السياق : دعوة اهل الكتاب الى كلمة سواء الى عبادة الله وحده ، وعدم الاشراك به . وان لا يتخذ بعضهم بعضا ارباباً من دون الله . والا فهي الفاصلة التي لا مصاحبة بعدها ولا مجادلة [قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا ارباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون] . .

وانها لدعوة منصفة لا يريد بها النبي صلى الله عليه واله ان يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين . . كلمة سواء يقف امامها الجميع على مستوى واحد لا يعلو بعضهم على بعض ، ولا يتعبد بعضهم بعضا . دعوة لا يأباها الا متعنت مفسد ، فان أبوا عبادة الله وحده ، وتولوا ، فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون .

وهذه المقابلة بين المسلمين وبين من يتخذ بعضهم بعضا ارباباً من دون الله : تقرر بوضوح حاسم : من هم المسلمون . المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده . ان الأسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد . والنظام الأسلامي هو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر .

(١) الأنبياء : ٢٢

الهدف الرئيسي للقصة

بالرغم من كثرة الاهداف والتعقيبات التي ذكرناها في هذا القصص، يمكن القول بان الهدف الرئيسي لها: هو تلقين النبي صلى الله عليه واله: الاحتجاج على النصارى وغيرهم: الاحتجاج العلمي، البرهاني الحاسم من أجل التوحيد ونفي الشريك (١) واثبات القدرة بمصداقها من خلق عيسى عليه السلام: وانه بنفخ من روحه. ولم يتعرض هنا لتفاصيل المولد، وما لمريم من الكرامات عند ولادتها كما تعرض في سورة - مريم - لعدم مساسه الشديد في المطلوب الاصلي هنا. وهو الاحتجاج - جري القرآن على مقتضيات المقام.

الاهداف لقصة عيسى ومريم في سائر

السور

من سورة مريم:

قال تعالى: [فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض الى جذع النخلة، قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً] .. (٢) فهذه الفقرة من القصة تعرض حالة - العذراء - الحائرة في موقف آخر أشد هولاً من موقف بدء الحمل والنفخ. ولا يذكر السياق كيف حملته

---

(١) على الأخص فيما يدعونه: من ان عيسى ابن الله أو ثالث ثلاثة أو ..

(٢) سورة مريم: ٢٤.

ولا كم حملته ، هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فاذا هي علقة فمضغة فعظام ، ثم تكسى العظام باللحم ويستكمل الجنين ايامه المعهودة .

ان هذا جائز وممكن عند الله . فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية ، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية . ، (١) كما انه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة : ان لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية فتختصر المراحل اختصاراً ، ويعقبها الجنين ونموه ، واكتماله في فترة وجيزة . . (٢)

لم يتعرض القرآن لكل ذلك ، انما تعرض لأحوال العذراء في ولادتها . فنحن نشهد من هذا النص - مريم - قد انتبذت بحملها : اي تنحت بالحمل الى مكان بعيد ، أو انفردت به مكاناً بعيداً من قومها ، حياءً من أهلها ، وخوف اتهامها بسوء . فهي في موقف اشد هولاً من الموقف الاول . فان كانت تواجه الحصانة والاخلاق بينها وبين نفسها . فهنا تواجه المجتمع بالفضيحة ، اضافة الى مواجهة الآلام الجسدية . تواجه المخاض الذي - أجاءها - واضطرها الى جذع (٣) النخلة لتستند عليه

---

(١) لأن بعض الأخبار تثبت لمريم عليها السلام : مدة الحمل .

(٢) لان في بعض الأخبار : ان مدة حملها عدة ساعات . مجمع البيان ج٦ ص٥١١ .

(٣) التعبير بالجذع مشعر بكونها - اي النخلة - يابسة غير خضرة وفي مجمع البيان نفس الصحيفة : قال الباقر عليه السلام : لم تستشف النفساء بمثل الرطب ان الله اطعمه -- مريم -- في نفاسها . وروى انه لم يكن للجذع رأس فضربته برجلها فأورقت وأثمرت وانتثر عليها =

وهي وحيـدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض . بسن عشر سنين ، ولا علم لها بشيء .

فاذا هي قالت : [ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا] : تلك الخرقة التي تتخذ لدم الحيض ثم تلقى بعد ذلك وتنسى .

ومرادها عليها السلام : انها شيء حقير لا يعبأ به ، منسياً لا يذكر فلم يقع فيه الناس كما سيقع الناس فيَّ .

النجدة من الله تعالى لها

وفي حدة الألم وغمرة الهول يفاجئهـا الاسعاف الإلهي بمعدوم النظير : [فناداها من تحتها ألا تحزني قـد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً فاما ترين من البشر احداً فقولي انى نذرت للرحمان صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً] . السري : جدول الماء . ويناسبه قوله بعـد : فكلي ـ اي من الرطـب . : وأشربي ـ اي من النهر . والسري هو الشريف الرفيع ويكون مصداقه عيسى عليـه السلام . ولا مـانع من ان الله القدير جعلهما معاً لها .

فهو طفل قد ولد اللحظة وهو يناديها من تحتها ليطمئن قلبها ، ويصلها بربها ، ويرشدها الى طعامها وشرابها ، ويدلها على حجتها وبرهانها عند مواجهة قومها : [لاتحزني] . فلم ينسك ربك ولم يتركك بل اجرى تحت قدميك جدولاً سارياً ، وقد جرى للحظتـه واخضر الجذع

= الرطب جنياً . . وقيل : ان تلك النخله كانت ـ برنية ـ وقيل : كانت ـ عجوة ـ وهو المروي عن أبى عبد الله عليه السلام .

اليابس لوقته : [فكلي واشربي] والرطب والتمر من اجود طعام النفساء ، واشفى لعوارض الولادة .

[وقري عيناً] اي طيبي نفساً ، واطمئني قلباً : [فاما ترين من البشر احداً] اذا واجهت احداً فسألك عن ولدك : [فقولي] بطريق الاشارة . او انها اذن لها بهذا الكلام فقط . وبعده يلزمها الصمت : [اني نذرت للرحمان صوماً] عن حديث الناس ، وهو صوم الصمت وقد كان مشروعاً يوم ذاك . وانما أمرت بالصمت ليكفيها وليدها في الجواب بما يبرىء به ساحتها بما هيىء الله له من الخارقة : [فأتت به قومها] بعد التعليم الالهي ، ويبدو انهم اهل بيتها الاقربون وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة . يرونها تحمل طفلاً . بما يثير الدهشة التي تعلو وجوههم : [قالوا : يامريم لقد جئت شيئاً فرياً] فظيعاً مستنكراً .

ثم يتحول السخط الى تهكم مرير : [ياأخت هارون] وقد ذكر في المجمع لهارون : اربعة اقوال . ولكن المناسب انه اخو موسى عليه السلام لأنها تنتسب اليه فكانهم يقصدون : انك تنتسبين الى النبي الذي تولى الهيكل هو وذريته من بعده ، فيا للمفارقة ، والمباينة بين تلك النسبة ، والفعل الذي تقارفينه : [ما كان ابوك إمرىء سوء وما كانت امك بغياً] حتى تأتي بهذه الفعلة الشنيعة التي لا تأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا - الزواني - .

وياله من تقريع : [فاشارت إليه] الى الطفل اي ارجعتهم اليه حتى يجيبهم فزاد ذلك غيضهم واعتبروها ساخرة بهم : [قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً] فابتدر عيسى عليه السلام و [قال اني عبد الله] قدم اقراره بالعبودية ليبطل به قول من سيدعي له الربوبية من بعد .

وهذا من اهداف القصة ، وغرض اصيل يتخللها دون تأثير على اسلوبها : [آتاني الكتاب وجعلني نبياً] . .

الهدف النهائى من القصة في سورة مريم

فبعد ان أكمل البراهين على عفة مريم عليها السلام وعدد لها الكرامات ، وشرفها برفيع الوسامات ، شرع في دلائل النبوة ، وبراهين الرسالة . وتكاليفه العبادية ، والاخلاقية ، وفي طليعتها الاقرار بالعبودية في أنسب موضع من السياق للقصة بلهجة التقرير . . الى ان قال تعالى [ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون] لا ما يقوله المؤلهون له . او المتهمون لأمه في مولده ـ بين افراط وتفريط ـ بل ان ما قلناه هو واقع الحق في حقيقته ، وواقع نشأته : من انه عبد الله ، ومن روح الله . الى ان ينتهي التعقيب في لغة التقرير والاعتراف الى قوله : [وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم] . .

اختلاف فرق المسيحيه

في حقيقة عيسى عليه السلام

[فاختلف الاحزاب من بينهم] . وبعد هذا التقرير يعرض أختلاف الفرق والاحزاب في أمر عيسى فقال قوم (١) منهم ـ وهم اليعقوبية ـ : هو الله . وقال آخرون ـ النسطورية ـ : هو ابن الله ـ

(١) فى مجمع البيان ج٦ ص٥١٤ .

وقال آخرون ـ وهم الاسرائيلية ـ : هو ثالث ثلاثة ـ وقال المسلمون : هو عبد الله ـ عن قتادة ومجاهد ـ

وانما قال : [من بينهم] لأن منهم من ثبت على الحق ـ وما اشبه موقف المسلمين من علي بن أبي طالب عليه السلام بموقف النصارى من عيسى عليه السلام ـ فقد قال بعضهم فيه بالربوبية ـ وقال بعضهم فيه بانـه ليس بخليفة وقاتلوه على ذلك في حرب البصرة ، وفي صفين ، والنهروان ـ وما احق قول من ينفي عنه الربوبية ويثبت له ـ الوصية ـ ولعل الى ذلك يشير الحديث الشريف : [ستفترق أمتي من بعدي الى ثلاث وسبعين فرقة ـ فرقة منهم ناجية ، والباقون في النار أو ـ ـ] ثم يؤكد صلى الله عليه واله على ذلك لغرض الردع عن الافتراق بقوله : [لتسلكن سبيل الأمم حذو النعل بالنعل ، والقـذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه] ـ (٢) ـ

وقال السيد قطب (٣) : ولقد جمع الأمبراطور الروماني ـ قسطنطين ـ مجمعاً من ـ الاساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفاً ، فاختلفوا في عيسى عليـه السلام اختلافاً شديداً ، وقالت كل فرقة فيه قولاً ـ ـ قال بعضهم : هو ابن الله وقال بعضهم : هو أحد الاقانيم الثلاثة : الأب ، الأبن ، روح القدس وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله ـ وهو إله ـ وأمه إله ـ وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ـ وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى ـ ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مائة وثمانيـة ،

---

(١) راجع ـ الآيات الساطعة ـ ج٣ ص٩٩ ولو لا ان الحديث لم يخل منه كتاب لذكرنا مصادره لكنه أشهر من ان يذكر .

(٣) في ظلال القرآن المجلد ٥ ج١٦ ص٣٨ .

أتفقوا على قول . فمال إليه الأمبراطور ونصر أصحابه ، وطرد الآخرين وشرد المعارضين ، وبخاصة الموحدين . هذا ما كان في خصوص سورة - مريم - من قصة ولادتها وما عقبه عليها من الاهداف ويجمعها - التعليم للعباد - كيف يخلصوا له جل شأنه العبودية ، وكيف يمدهم بالمعونات الجلية .

ما يخص عيسى ومريم من سورة الانبياء

قال تعالى : [والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين] (١) ولا يذكر هنا اسم مريم لأن المقصود في سلسلة الانبياء في السورة : هو ابنها عيسى عليه السلام وقد جاءت هي تبعاً له في السياق . انما يذكر صفتها المتعلقة بولدها : [والتي أحصنت فرجها] (٢) فصانته من كل مباشرة : مشروعة وغير مشروعة . والاحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة .

أما في هذا المقام فذكر الاحصان مراداً منه معناه الاصلي وهو الحفظ والصون من كل مباشرة - . وذلك تنزيهاً لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل والذي تقول عليه الاناجيل المتداولة انه كان قد تزوجها ولكن لم يدخل بها ولم يقربها - . ثم يمضي السياق الى الهدف العام في السورة من تفاصيل

---

(١) الأنبياء : ٩١ .

(٢) في تفسير الميزان ج١٤ ص ٣٥٠ عن تفسير القمي : [والتى احصنت فرجها] قال : مريم لم ينظر إليها شيء .

الانبياء وانهم بكل أحوالهم وملابساتهم آيات للعباد فيقول : [وجعلناها وابنها آية للعالمين] وأي آية لم تسبق ولم تلحق آية فذة في تاريخ البشرية جميعاً . ولتدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس .

وقد عدهما آية واحدة رغم انها اثنتان : عيسى ، ومريم . لأن الآية هي الولادة على تلك الصفة الغريبة . وهي قائمة بهما معاً ، ومريم اسبق زمناً في إقامة هذه الآية لذا قال : [وجعلناها وابنها آية ... ولم يقل : . وجعلنا ابنها واياها آية . وكفاها فخراً : ان تذكر في عداد الانبياء في كلام الله تعالى وهي ليست منهم .

مايخص - مريم - من سورة التحريم

قال تعالى : [ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين] (١) اي منعت فرجها من دنس المعصية التي رمتها بها اليهود . أو منعت فرجها من الازواج لم تبتغ زوجاً ولا غيره ، فكانت مثالاً للتجرد منذ نشأتها التي قصها في سور اخرى : فنفخنا فيه من روحنا وكان من النفخة عيسى عليه السلام .

وحيث ان المقام مقام إيجاد مثال للتقوى وابراز شخصية خارجية تمثل الايمان الخالص المنقطع عن كل شهوة مادية ليري أزواج النبي صلى الله عليه واله المتآمرات عليه والكائدات له صلى الله عليه واله (٢)

---

(١) التحريم : ١٢ .

(٢) يراجع للتفصيل مجمع البيان ج١٠ ص٣١٣ وظلال القرآن =

كيف هو الأيمان وكيف هو التصديق . ومنه يتعدى الى الهدف العام والوعظ الشامل لكل البشرية .

لهذا كله نجد الثناء على مريم عليها السلام في هذا المقام ينتهي بها الى جعلها مثلاً ونموذجاً للايمان والاذعان : [وصدقت بكلمات ربها] بما تكلم به وأوحاه الى أنبيائه ورسله . وقيل : صدقت بوعد الله تعالى ووعيده وأمره ونهيه : [وكتبه] المنزله على أنبيائه وألتزمت بما فيها [وكانت من القانتين] المطيعين الله والدائمين على طاعته . أو القنوت في الصلاة . أو أن المراد بالقانتين رهطها وعشيرتها وكانوا أهل بيت صلاح .

وجاءت الرواية عن معاذ بن جبل (١) قال دخل رسول الله صلى الله عليه واله على خديجة وهي تجود بنفسها . قال : [أكره ما نزل بك ياخديجة وقد جعل في الكره خيراً ، فاذا قدمت على ضراتك فاقرأيهن مني السلام] قالت : يارسول الله : ومن هن . قال : [مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وحكيمة . أو كليمة أخت موسى عليه السلام] ، فقالت : بالرفاء والبنين . وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه واله قال : [كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم إمرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه واله هذه بلاغة القرآن تجده كيف يلون القصة الواحدة بالوان ، ويطبقها على معدد المواضيع ، ويحقق منها الاغراض ، والاهداف .

= ج٢٨ ص١٥٦ ـ ١٧٥ ليعرف من هن المتآمرات من نساء النبي صلى الله عليه وآله عليه . وكيف كانت . ومن التي سببتها . وكيف بلغ الحال حتى انزل الله فيهن : ما انزل .

(١) مجمع البيان ج١٠ ص٣٢٠ .

عيسى - ع - في سورة الصف

ويجيء ذكر عيسى عليه السلام أيضاً في سورة الصف بنحو آخر من بيان أحواله، وعلى شكل موجز من مدحه ببعض صفاته بينما الغرض الاصيل: هو تشجيع المسلمين على الاعتزاز باسلامهم، وأنه الامانة، وأمينها عيسى بن مريم، وأنه كما استلمها من موسى عليه السلام سيسلمها الى خاتم الانبياء، وأنه جاء امتداداً لرسالة موسى وتمهيداً لرسالة - أحمد - صلى الله عليه واله ووصلة بين الدين الكتابي الاول، والدين الكتابي الاخير: [وإذ قال عيسى بن مريم يابني إسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد] - (١) وكان مقرراً في علم الله وتقريره ان تنتهي هذه الخطوات الى قرار ثابت دائم، وان يستقر دين الله في الارض في صورته الاخيرة على يدي رسوله الأخير: [هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] (٢) - وقد صحت الرواية (٣) عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله: [ان لي أسماء: أنا أحمد، وأنا محمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي، واورده البخاري في الصحيح -

---

(١) الصف: ٢ .

(٢) الصف: ٩ .

(٣) مجمع البيان ج٩ ص٢٨٠ .

ففي هذه البشرى معجزة لعيسى عليه السلام عند ظهور محمد صلى الله عليه واله ، وأمر لأمته ان يؤمنوا به عند مجيئه . هذا هو الهدف الاول والواضح في السورة . ويقوم عليه الهدف الثاني : فان شعور المسلم بهذه الحقيقة وادراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه من امانتها في الارض . . يستتبع شعوره بتكاليف هذه الامانة شعوراً يدفعه الى صدق النية في الجهاد لأظهار دينه على الدين كله كما اراد الله .

ولهذا يختم السورة بنداء أخير يقارن فيه بين المؤمنين وبين الحواريين ، ويدفع المؤمنين الى تأدية واجبهم في نصرة دينهم على شكل جزء قصة من احوال عيسى عليه السلام وانصاره : [ياايها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله ، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين] . . (١)

عيسى - ع - في سورة الزخرف

والاهداف الاخرى

فيما يخص عيسى عليه السلام منها ويرمي الى أهداف اخرى قال تعالى (٢) : [ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون ، وقالوا أآلهتنا خير ام هو ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون ، ان هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ، ولو نشاء لجعلنا

(١) الصف : ١٤ .

(٢) الزخرف : ٧ .

منكم ملائكة في الارض يخلفون وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين ، ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون ، ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم] .

في هذا المقطع يستطرد السياق الى حكاية أساطيرهم حول عبادتهم للملائكة ويحكي حادثاً من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لا يقصد الوصول الى الحق ولكن مراءً وتمحلاً ، جاعلي من قصة عيسى غشاء لاباطيلهم ، فذكرها تعالى كاشفاً لنبيه وللصالحين من أمته ذلك الستار فاضحاً لذلك الباطل .

ولهذا ونظائره تتكرر القصة لتعدد اغراضها .

السبب لنزولها

قيل (١) لما نزل قوله تعالى : [انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم] . (٢) وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها .

وقيل لهم : ان كل عابد وما يعبد من دون الله في النار . فلما قيل لهم : هذا . ضرب بعضهم المثل بعيسى بن مريم . وقد عبده المنحرفون من قومه . : أهو في النار . وكان هذا مجرد جدل ، ومجرد مراء .

ثم قالوا : اذا كان اهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن

---

(١) مجمع البيان ج٩ ص٥٣ .

(٢) الانبياء : ٩٨ .

اهدى : اذ نعبد الملائكة وهم بنات الله. وكان هذا باطلاً ، ويقوم على باطل . وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى بن مريم يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته - العبوديه لله - واختلاف قومه من قبله ومن بعده . ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة ، والمائلين عن الصراط المستقيم ، وينفي اساطيرهم عن الملائكة وينزه الله سبحانه عما يصفون ، ويوجه الرسول الى الصفح عنهم والاعراض ويدعهم ليعلموا ما سيعلمون .

ذكر ابن اسحاق في السيرة قال : جلس رسول الله صلى عليه واله فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه واله فعرض له النظر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه واله حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : [انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون] . الآيات .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه واله واقبل عبد الله بن الزبعرى التميمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد . وقد زعم محمد : انا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعرى : اما والله لو وجدته لخصمته . سلوا محمداً : أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده . فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح بن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى وراوا انه قد احتج وخاصم .

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه واله فقال : [كل من أحب ان يعبد من دون الله فهو مع من عبده فانهم انما يعبدون الشيطان ومن

امرهم بعبادته] . . فانزل الله عز وجل : [ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون] (١) اي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الاحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل فاتخذهم من بعدهم من اهل الضلالة ارباباً من دون الله .

ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام : وانه يعبد من دون الله . وعجب الوليد ومن معه ممن حضر من حجته وخصومته : [ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون] اي يصدون عن امرك بذلك .

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه واله على قريش : [انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم] امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً ، فقال عبدالله بن الزبعرى : يامحمد أخاصة لنا ولآلهتنا ام لجميع الأمم ، فقال صلى الله عليه واله هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم . فقال خصمتك ورب الكعبة . ألست تزعم ان عيسى بن مريم نبي ، وتثني عليه خيراً وعلى امه ، ولقد علمت ان النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد ، والملائكة يعبدون . فان كان هؤلاء في النار فقد رضينا ان نكون نحن وآلهتنا معهم . ففرحوا وضحكوا . وسكت النبي صلى الله عليه واله فانزل الله تعالى : [ان الذين سبقت لهم منا الحسنى] . .

المعنى

ولما ضرب عبدالله بن الزبعرى ، عيسى بن مريم مثلاً وجادل

(١) الانبياء : ١٠١ .

رسول الله صلى الله عليه واله بعبادة النصارى اياه - اذا قومك - قريش من هذا المثل - يصدون - ترتفع لهم جلبـة وضجيج ، فرحاً وجذلا وضحكاً بما سمعوا من إسكات رسول الله صلى الله عليه واله بجدله . . - وقالوا أآلهتنا خير ام هو - يعنون ان آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، واذا كان عيسى من حصب جهنم كان امر آلهتنا هيناً .

ويحتمل ان يكون المراد من قوله تعالى : [أآلهتنا خير ام هو] انهم عنوا : ان عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى بن مريم . بما ان الملائكة اقرب في طبيعتهم واقرب نسباً - حسب اسطورتهم - من الله سبحانه وتعالى عما يصفون .

وقوله تعالى : [ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون] . . يعني الرد على ابن الزبعرى ، فان عمل النصارى ليس بحجة لانه انحراف عن التوحيد ، كانحرافهم هم ، فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف فكله ضلال . ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا : [ان هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل] . . فليس إلهاً يعبـد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه . انما هو عبد انعم الله عليه ، ولا جريرة له في عبادتهم اياه ، فانما انعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون اليه ويتأسون به ، فنسوا المثل وضلوا السبيل .

ثم استطرد سبحانه الى اسطورتهم حول الملائكة ، مبيناً لهم : ان الملائكة خلق من خلق الله مثلهم ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم في هذه الارض ، او لحول بعض الناس الى ملائكة يخلفونهم في الارض - اي يعبدون الله ويعمرون أرضه : [ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون] فمرد المشيئة الى الله في الخلق ، وما يشاؤه من الخلق يكون ، وليس احد من خلقه يمت بنسب ، ولا يتصل بـه سبحانه الا

صلة المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب ، والعابد بالمعبود .

ثم يعود الى تقرير شيء عن عيسى عليه السلام ، يذكرهم بأمر الساعة التي يكذبون بها ، او يشكون فيها : [وانه لعلم للساعة فلا تمترون بها واتبعوه هذا صراط مستقيم ، ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين] . وقد وردت احاديث شتى عن نزول عيسى عليه السلام الى الارض قبيل الساعة ، وهو ما تشير اليه الآية : [وانه لعلم للساعة] بمعنى انه بنزوله يعلم بقرب مجيئها . والقراءة الثانية : [وانه لعلم للساعة] بفتح اللام والعين بمعنى امارة وعلامة . وهما متقاربان .

قال الطبرسي(١) : ثم رجع سبحانه الى ذكر عيسى عليه السلام فقال : [وانه لعلم للساعة] يعني ان نزول عيسى عليه السلام من اشراط الساعة يعلم به قربها : [فلا تمترون بها] اي بالساعة فلا تكذبوا بها ولا شك فيها . عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي . .

وحيث انهم كانوا يشكون في الساعة ، وهى ركيزة الانتظام فبين لهم : ان انحرافهم وشرودهم من الحقيقة الى الشك هو اثر من اتباع الشيطان ، والرسول اولى ان يتبعوه : [ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين] والقرآن لا يفتأ وعلى طول الخط يذكر البشر لفتة واخرى بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الاولى في الجنة . وأغفل الغافلين : من يعلم ان له عدواً يقف له بالمرصاد عن عمد وعن قصد وسابق انذار ، واصرار . ثم لا يؤخذ حذره . بل ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح .

ولقد أقام الله للانسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان على هذه الارض ، ورصد له الغنيمة اذا هو انتصر : ما لا يخطر على قلب

(١) في مجمع البيان ج٩ ص٥٤ .

بشر . ـ الجنة ـ فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت . كما انه سبحانه أقام له ورصد له من الخسران اذا هو اندحر : مالا يخطر كذلك على قلب بشر . ـ النار وما أعد فيها ـ وقد فصلنا بعض ما اعده الله للعصاة فيها ـ وانواع طبقاتها ـ في الجزء الثالث من الآيات الساطعة ـ .

كما ان الانتصار على الشيطان في هذه الارض : انتصار على الشر والخبث ، والرجس ، والفساد ـ . ويثبت في الارض قوائم الخير ، والنصح والطهر ، والصلاح .

وذكر الشيخ الطبرسي (١) من جملة ما ذكر من اسباب نزول الآية : رابعها : ما رواه سادة اهل البيت عن علي عليه وعليهم السلام انه عليه السلام قال : جئت الى رسول الله صلى الله عليه واله يوماً فوجدته في ملاء من قريش فنظر اليّ ثم قال : يا علي انما مثلك في هذه الامة كمثل عيسى بن مريم عليه السلام أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا ، وابغضه قوم فأفرطوا فى بغضه فهلكوا ، واقتصد فيه قوم فنجوا فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا يشبهه بالانبياء والرسل فنزلت الآية : [وقالو أآلهتنا خير ام هو] . اي آلهتنا أفضل ام المسيح فاذا كان المسيح في النار ، رضينا ان تكون آلهتنا معه . عن السدي وابن زيد .

حقيقة عيسى - ع - وماجاء به

واختلاف قومه من قبله ومن بعده

فان القصة تميل بلونها واسلوبها الى جانب آخر ، والى حجة واضحة على بيان حقيقة عيسى عليه السلام : [ولما جاء عيسى بالبينات]

(١) مجمع البيان ج٩ ص٥٤ .

وثبت أنه صادق في كل ما يقول : [قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه] وهو ما كان منهم قبل مجيئه : [فاتقوا الله واطيعون] - فيما اقوله لكم واوجهكم اليه من الحق : [ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم] فيما بعده : [فويل للذين ظلموا من عذاب اليم] - فعيسى عليه السلام جاء قومه بالبينات الواضحات سواء كان من الخوارق التي اجراها الله على يديه ، او من الكلمات والتوجيهات الى الطريق القويم ، وقال لقومه [قد جئتكم بالحكمة] - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً - وأمن الزلل والشطط ، أمنه للتفريط ، والافراط ، وللتقصير .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام الى بني إسرائيل وهم ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان ، وقد طال انتظارهم له ، فلما جاءهم نكروه وشاقوه ، وهموا ان يصلبوه . ولقد جاءهم فوجدهم شيعاً ونحلاً كثيرة . أهمها : أربع فرق ، او طوائف : طائفة الصدوقيين نسبة الى - صدوق - واليه والى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان ويرجع نسبه الى هارون اخي موسى عليه السلام فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل ، وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون البدع في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ، ويستمتعون بملاذ الحياة ، ولا يعترفون بان هناك قيامة .

الطائفة الثانية - طائفة الفريسيين - وكانوا على شقاق مع الصدوقيين ينكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات ، وجحدهم للبعث والحساب ، والسمة الغالبة على الفريسيين : هي الزهد والتصوف ، وان كان في بعضهم اعتزاز وتعالٍ بالعلم والمعرفة . وكان المسيح ينكر عليهم

هذه الخيلاء ، وشقشقة اللسان .

الطائفة الثالثة ـ طائفـة السامريين ـ وكانوا خليطاً من اليهود والآشوريين ، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة ـ بالكتب الموسوية ـ وتنفي ما عداها مما أضيف الى هذه الكتب في العهود المتأخرة مما يعتقد غيرهم بقداستها .

الطائفة الرابعة ـ طائفة الآسين ـ او الاسينيين ـ وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفيه ، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود ويأخذون انفسهم بالشـدة ، والتقشف كما ياخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف .. نحل شتى فردية .. وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل الراضخين لضغط الامبراطورية الرومانيـة ، المستذلين المكبوتين الذين ينتظرون الخلاص على يـد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما جاء عيسى عليه السلام بالتوحيد الذي أعلنه : [ان الله ربي وربكم فاعبدوه] وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي ، والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الاشكال والطقوس حيث لا يروق لهم ذلك . هذه خلاصـة الاختلاف من قبل عيسى عليه السلام .

الاختلاف من بعد المسيح ـ ع ـ

ثم ذهب المسيح الى ربه فاختلف اتباعه من بعده ، اختلفوا شيعاً واحزاباً .. بعضها .. يؤلهه .و .. بعضها .. ينسب لله بنوته و .. بعضها ..

يجعل الله ثالث ثلاثة . احدها المسيح بن مريم . وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام وضاعت دعوته الناس ليلجئوا الى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين : [فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب اليم] . - ثم جاء مشركوا العرب يحاجون رسول الله صلى الله عليه واله في عيسى عليه السلام بما فعلته الاحزاب المختلفة من بعده ، وما احدثته حوله من اساطير ، هو عليه السلام بريىء منها كما مر آنفاً .

التعقيب النهائى لجميع المنحرفين

عن الصراط المستقيم

[هل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون] لانشغالهم بالحياة الدنيا إشباعاً لشهواتهم ، وتحقيقاً لنزواتهم : [الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين] اوضحنا معناها مع التعليق والشواهد في - الآيات الساطعة - : [ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون] ومن هم عباده : [الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين] اي مستسلمون ومسلمون الى الله وجزاؤهم ان يقال لهم : [ادخلوا الجنة انتم وازواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب] والى هنا حيث يطول عداد النعم التي أعدت لهم في الجنة ، فيختصر بما يعطي كل متصور فيها فيقول : [وفيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها خالدون] لا موت ولا فناء مشيراً الى سبب الاستحقاق : [وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون] اى لا نفاد لما

فيها من الفاكهة . كما ورد : ان الواحدة منها اذا اقتطفت عاد مثلها الى مكانها .

ثم يذكر حال ـ الفريق الثاني ـ فريق الانحراف والضلال فريق عبادالشهوات والنزوات : [ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون] لا خروج لهم منها حيث تغلق عليهم ابوابها : [لا يفتر عنهم فيها وهم فيه مبلسون] اي آيسون من كل خير .

ثم يضرب على وتر آخر ، وهو ماض في وصف عقابهم ، ويرمي الى اثبات عدالة الله جل شأنه ، وانه لا يظلم احداً فيقول : [وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين] وبعد هذا والمثل يقول : ـ الغريق يتشبث بالطحلب ـ (١) حيث لا يجديه فيتمنون الموت كي يستريحوا مما هم فيه حيث هو اخف عليهم فيقولون مخاطبين خازن جهنم : [يامالك ليقضي علينا ربك] فيكون جوابهم : [قال : انهم ماكثون] وخالدون دون امد ، وتحديد

من سورة النساء في أمر عيسى ـ ع ـ

قال تعالى (٢) : [يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم . الى ان قال : [وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم

(١) الطحلب : النبت يكون طافياً على وجه الماء .

(٢) النساء : ١٥١ .

به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موتـــه . ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً - . لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك - .

الى ان قال : [ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته القاها الى مريم ، وروح منه ، فأمنوا به ولا تقولوا : ثلاثة . إنتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه ان يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلاً ، لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً . .

الى ان قال : [ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً] .

المقام مقام تسلية للنبي صلى الله عليه واله عما كان يداخله من شدة الغيظ لله ولدينه مما كان يعانيه من تلون اليهود في خبثهم وكيدهم للاسلام ومن إلقاء الشبه في اذهان المؤمنين اضافة الى المكائد السرية : [يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السمـاء] اي كتاباً مكتوباً كما كانت التورات مكتوبة من عند الله في الالواح (١) او انهم سألوه ان ينزل كتاباً على رجال منهم باعيانهم (٢) او . . فلا عليك يامحمد من هـذا

(١) عن محمد بن كعب والسدي .

(٢) عن ابن جريج واختاره الطبري .

التعنت، والتحكم، ولا تستغرب منه ولا تتعجب : [فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة] اي معاينه : [فأخذتهم الصاعقة] واستحقوا الهلاك : [بظلمهم] ولكن الله عفا عنهم وتقبل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته الى ربه كما ورد في سورة البقرة [فلما اخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا . .]

ثم أخذ جل شأنه في تعداد اسباب ظلمهم واستحقاقهم لتحريم بعض ماكان حلالاً لهم عقوبة وتأديباً الى ان قال : [وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً] (١) وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . . [

(١) في المجمع ج ٣ ص ٣٥ قال الكلبي : مر عيسى عليه السلام برهط فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه بأمه فسمع ذلك عيسى عليه السلام فقال : اللهم انت ربي خلقتني ولم أتهم من تلقاء نفسي، اللهم العن من سبني وسب والدتي، فاستجاب الله دعوته فمسخهم خنازير. واختلفوا في كيفية التشبيه - ولكن شبه لهم - فروي عن ابن عباس انه قال : لما مسخ الله تعالى الذين سبوا عيسى وأمه بدعائه بلغ ذلك - يهودا - وهو رأس اليهود فخاف ان يدعو عليه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله . فبعث الله جبرئيل يمنعه منهم ويعينه عليهم، وذلك معنى قوله : [وأيدناه بروح القدس] فاجتمع اليهود حول عيسى عليه السلام فجعلوا يسألونه فيقول لهم : يامعشر اليهود ان الله تعالى يبغضكم . فساروا اليه ليقتلوه فأدخله جبرئيل في خوخة البيت الداخل، لها رازونة في سقفها ، فرفعه جبرئيل الى السماء . فبعث يهودا رأس اليهود رجلاً من اصحابه اسمه - طيطانوس - ليدخل عليه الخوخة فيقتله فدخل فلم يره فابطأ عليهم فظنوا انه يقاتله

. . . .

في الخوخة ، فالقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج على اصحابه قتلوه وصلبوه . وقيل : ألقي عليه شبه وجه عيسى ولم يلق عليه شبه جسده فقال بعض القوم : ان الوجه وجه عيسى والجسد جسد طيطانوس . وقال بعضهم : ان كان هذا طيطانوس فاين عيسى ، وان كان هذا عيسى فاين طيطانوس فاشتبه الامر عليهم .

وقال وهب بن منبه : أتى عيسى ومعه سبعة من الحوارين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى او لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لاصحابه : من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة . فقال رجل منهم اسمه - سرجس - انا فخرج اليهم فقال : انا عيسى فاخذوه وقتلوه وصلبوه . ورفع الله عيسى من يومه ذلك . وبه قال قتادة ، ومجاهد ، وابن اسحاق وان اختلفوا في عدد الحوارين . .

وقال ابو علي الجبائي : ان رؤساء اليهود اخذوا انساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عال ولم يمكنوا احداً من الدنو منه فتغيرت حليته وقالوا قد قتلنا عيسى ليوهموا بذلك على عوامهم . لأنهم كانوا قداحاطوا بالبيت الذي فيه عيسى فلما دخلوه كان عيسى قد رفع من بينهم فخافوا ان يكون ذلك سبباً لأيمان اليهود به ففعلوا ذلك ، والذين اختلفوا فيه هم غير الذين صلبوه وانما هم باقي اليهود . وقيل : انهم حبسوا المسيح مع عشرة من اصحابه في بيت فدخل رجل من اليهود فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى فقتلوا الرجل عن السدي . : [وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه] قيل في معناه يعني بذلك عامتهم ، لأن علماءهم علموا انه غير مقتول . عن الجبائي . وقيل : اراد بذلك جماعة اختلفوا فقال

. . . .

بعضهم : قتلناه ، وقال بعضهم لم نقتله : [مالهم بذلك علم الا اتباع الظن] فقتلوه ظناً منهم انه عيسى . ويتضح بذلك معنى قوله تعالى : [وما قتلوه يقيناً] اي لم يكن قتلهم لمن قتلوه على يقين منهم انه عيسى - بل الواقع والحق ان الله رفعه اليه - : [بل رفعه الله اليه] ولم يصلبوه ولم يقتلوه .

وقال الطباطبائي في تفسيره - الميزان - ج ٥ ص ١٣٩ بتلخيص منا قد تقدم في آل عمران : اختلافهم في قتله . فلعل حكايته ثانيا هنا - اي في سورة النساء - للنفي التام بحيث لا يشوبه ريب : [ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم] فذكر القتل والصلب معاً في مقام الرد والنفي لبيان النفي التام . وانهم هم انفسم لفي شك منه وفي جهل بالنسبة الى امره : [مالهم به من علم الا اتباع الظن] وهو التخمين ، او رجحان ما بحسب ما اخذه بعضهم من افواه بعض . وقوله : [وما قتلوه يقيناً] اي ما قتلوه قتل يقين . . ثم ذكر في ص ١٥٠ - ١٥١ انه قال في تفسير البرهان في تفسير قوله تعالى : [وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً] عن ابن بابويه باسناده عن علقمة عن الصادق عليه السلام في حديث قال : ألم ينسبوا مريم بنت عمران الى انها حملت بصبي من رجل نجار اسمه يوسف .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : [وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته] الآية قال حدثني ابي عن القاسم بن محمد ، عن سليمان بن داود المنقري ، عن ابي حمزة ، عن شهر بن حوشب : قال لي الحجاج ياشهر - آية في كتاب الله قد أعيتني - فقلت ايها الأمير : اي آية هي - فقال : قوله : [وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل

. . . .

موته] والله اني لآمر باليهودى والنصراني فيضرب عنقه ثم ارمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يخمد . فقلت : اصلح الله الأمير ليس على ما أولت ، قال : كيف هو . قلت : ان عيسى ينزل قبل يوم القيامة الى الدنيا فلا يبقى اهل ملة يهودى ولا غيره إلا آمن بـه قبل موته ، ويصلي خلف المهدى . قال : ويحك انى لك هذا ومن اين جئت به فقلت : حدثني بـه محمـد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام فقال : والله جئت بها من عين صافية .

وفى الدر المنثور : اخرج ابن المنذر ، عن شهر بن حوشب : قال لي الحجاج يا شهر آية في كتاب الله ما قرأتها إلا اعترض في نفسي شيء قال الله تعالى : [وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته] واني أوتى بالاسارى فاضرب اعناقهم ولا اسمعهم يقولون شيئاً . فقلت : رفعت اليك على غير وجهها . ان النصراني إذا خرجت روحه ضربته الملائكة من قُبُله ومن دُبره وقالوا : اي خبيث ان المسيح الذي زعمت انه الله او ابن الله ، او ثالث ثلاثة ، عبد الله ، وروحه ، وكلمته . فيؤمن حين لا ينفعه ايمانه . وان اليهودى إذا خرجت نفسه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره وقالوا : اى خبيث ان المسيح الذى زعمت انك قتلته ، عبد الله وروحه فيؤمن به حيث لا ينفعه الايمان ، فاذا كان عند نزول عيسى آمنت به احياؤهم كما آمنت به موتاهم . فقال : من اين اخذتها فقلت : من محمد بن علي . قال : لقد اخذتها من معدنها . قال شهر : وايم الله ماحد ثنية الا ام سلمة ولكني احببت ان اغيظه .

وفيه اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : [يوشك ان ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يقتل

ويكرر صفة الكفر لهم كلما ذكر احدى منكراتهم ، ليدل على ان كل منكر منهم بمفرده يوجب اتصافهم بالكفر فكيف اذا اجتمعت منكراتهم .

وهنا يفتخرون بانهم قتلوا المسيح وصلبوه ، ويتهكمون عليه بدعواه الرسالة فيقولون : انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم - رسول الله - ويرد عليهم سبحانه بقوله [وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منهم ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً] .

ان قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه قضية يخبط فيها اليهود كما يخبط فيها النصارى بالظنون ، فاليهود يقولون : انهم قتلوه ويسخرون

الدجال ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ويقبض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين واقرأوا ان شئتم : [وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته] : موت عيسي بن مريم] .

وقال في المجمع ج٣ ص١٣٨ : ويقرب من هذا ما رواه الامامية ان المحتضرين من جميع الاديان يرون رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفاءه عند الموت ، ويروون في ذلك عن علي عليه السلام انه قال للحارث الهمداني :

يا حار همدان من يمت يرني — من مؤمن او منافق قبلا

يعرفني طرفه وأعرفه — بعينه واسمه وما فعلا

فان صحت هذه الرواية فالمراد برؤيتهم في تلك الحال : العلم بثمرة ولائهم وعدائهم على اليقين بعلامات يجدونها من نفوسهم ، ومشاهدة احوال يدركونها . كما روى ان الانسان اذا عاين الموت أرى فى تلك الحالة ما يدله على انه من اهل الجنة او من اهل النار . وقد فصلنا القول في ذلك فى كتابنا الآيات الساطعة الجزء الثالث .

من قوله : انه رسول الله ، فيقرون له هذه الصفة على سبيل السخرية . والنصارى يقولون : انه صلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة ايام . والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته كان لم يكن في الحساب . وما من احد من هؤلاء او هؤلاء يقول ما يقول عن يقين لتضارب الروايات وتداخلها بحيث يصعب الاهتداء فيها الى اليقين . . الا ما يقصه رب العالمين . .

والاناجيل الاربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته - . كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح كلها كانت اضطهاداً لديانته ، ولتلاميذه يعتذر معه تحقيق الاحداث في جو التستر والخوف والتشريد . وقد كتبت معها اناجيل كثيرة ، ولكن هذه الاناجيل الاربعة أختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد ، واعتبرت رسمية ، واعترف بها لأسباب .

ومن بين الاناجيل التي كتبت في فترة كتابة الاناجيل الكثيرة : انجيل برنابا - وهو يخالف الاناجيل الاربعة المعتمدة في قصة القتل والصلب فيقول : [ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير - فلذلك انسحب الى البيت خائفاً - وكان الاحد عشر نياماً - فلما رأى الخطر على عبده أمر جبرئيل ، وميخائيل ، ورفائيل ، وأوريل سفراءه - . ان ياخذوا يسوع من العالم - فجاء الملائكة الاطهار واخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الى الابد - . ودخل يهوذا بعنف الى الغرفة التي أصعد منها يسوع وكان التلاميذ كلهم نياما - فاتى الله العجيب بامر عجيب ، فتغير يهوذا في النطق ، وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع - حتى اننا اعتقدنا انه يسوع - اما هو فبعد ان أيقظنا اخذ يفتش لينظر

اين كان المعلم لذلك تعجبنا وأجبنا : انت ياسيدي معلمنا . أنسيتنا الآن . . . الخ (١)

وهكذا لا يستطيع الباحث ان يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة - التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر - ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية كي يؤخذ بها وتترك الاخرى .

اما القرآن فيقرر قراره الفصل : [وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم] : [وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما] ولا حاجة بنا الى شرح معنى الآية بعد الذي ذكرنا على الهامش عن كتب التفسير . كما هو الحال في قوله تعالى [وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته . . الخ] فليراجع الهامش .

وبذلك يحسم القرآن قصة الصلب ويعود الى تعداد مناكر اليهود وما نالهم من الجزاء في الدنيا بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم . وفي الآخرة من العذاب الأليم وكل هذا مسبب عن ظلمهم : [فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً] .

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم ، ودفعهم بالتعنت حتى مع نبيهم ومنقذهم .

والهدف العالي من ذلك البيان : هو ان تسقط وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وينعدم عليهم مكرهم وكيدهم وحبائلهم . ولتعرف الجماعة المسلمة ما ينبغي ان تعرفه في كل حين عن طبيعة اليهود ووسائلهم

---

(١) نقلا عن كتاب : « محاضرات في النصرانية » . للاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة .

ومدى معارضتهم لهالحق في ذاتـه سواء جاء من غيرهم ، او نبع فيهم ، فهم اعداء للحق واهله ، وللهدى وحملته ، في كل اجيالهم وفي كل ازمانهم مع اصدقائهم ومع اعدائهم ، لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته ، قاسية قلوبهم ، غليظة اكبادهم ، لا يحنون رؤسهم الا للمطرقة ولا يسلمون للحق الا وسيف القوة مصلت على رقابهم .

فهذا هو الهدف الرئيسي من القصة ، باضافـة الاغراض الاخرى التي سبق الايعاز اليها ، وبدون تغير على اسلوبها .

ولعل بيان الاهداف يكون من باب ـ الكنـاية ـ وهي ابلغ من التصريح حيث هي ـ دعوى ـ مقرونة بالبينة والبرهان .

العلم كيف يرفع حامله

وبعد ما ذكر من حقيقة اهل الكتاب يعود الى اعطاء النصف ويستثني منهم ـ اهل العلم ـ : الراسخين فيه . العاملين بمؤدياته والذي هو بالاخير : الايمان لا غير : [لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك ، وما انزل من قبلك والمقيمين (١) الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، اولئك سنؤتيهم اجراً عظيمـاً] . ووصف العلم بالراسخ لكونه الطريق الى المعرفة الصحيحة كالايمان الذي يفتح القلب لتقبل النور .

فالعلم السطحي لا يعطي النتاج الكامل ، او الصحيح . ونحن نشهد

(١) قرىء المقيمين بالنصب رغم المعطوف عليه مرفوع ، ولعله على الاختصاص اى اخص المقيمين فيكون مفعولاً ، وذلك لأهمية إقام الصلاة وان ورد مرفوعاً ايضاً في مصحف ابن مسعود .

هذا في كل زمان ، فالذين يتعمقون في العلم ويأخذون منه بنصيب حقيقي يجدون انفسهم امام دلائل الايمان الكونية ، وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى - المؤمنون - يفتح الله عليهم وتتصل ارواحهم بالهدى .

اما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون انفسهم علماء فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين ادراك دلائل الايمان ، او لا تبرز لهم اصلاً بسبب علمهم الناقص السطحي وقد اكتفوا بـه لحصول نصابهم المقصود لهم . وشأنهم شأن من لا تهفوا قلوبهم للهدى ولا تشتاق وقد اكتفوا ان قيل لهم - مسلمون - .

فالعلم الراسخ ، والايمان المنير كلاهما يقودان اهله الى الايمان بالدين كله ، كلاهما يقودان الى التوحيد الحقيقي الذي جاء من عند الواحد . وقد ورد في المأثور ان هذه الاشارة تعني نفراً من اليهود وهم الذين استجابوا للرسول صلى الله عليه واله ولكن النص عام ينطبق على كل من يهتدي لهذا الدين بقيادة العلم الراسخ ، او الايمان البصير .

وذكر الطبرسي (١) : انهم عبدالله بن سلام واصحابه قالوا للنبي صلى الله عليه واله : ان اليهود لتعلم ان الذي جئت به حق ، وانك مكتوب عندهم في التوراة . فقالت اليهود : ليس كما يقولون . اي عبد الله بن سلام واصحابه بل ان اليهود لا يعلمون شيئاً من ذلك ، وانهم يغرونكم ويحدثونكم بالباطل فقال الله تعالى في حقهم ومدحهم : [لكن الراسخون . .] اي الثابتون المبالغون في العلم ، المدارسون بالتوراة [منهم] اي من اليهود . يعني ابن سلام واصحابه من علماء اليهود والمؤمنون من اصحاب النبي صلى الله عليه واله . .

ثم يمضي السياق الى ان يقول : [ياأهل الكتاب لا تغلوا في

(١) في المجمع ج٣ ص١٣٩ .

دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة إنتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلاً] والخطاب لا يبعد ان يكون شاملاً لليهود والنصارى معاً لأن المراد من قوله تعالى : [لا تغلوا في دينكم] ان لا تتجاوزوا الحق فيه افراطاً وتفريطاً . فالنصارى غلت في المسيح فقالت : هو ابن الله . . واليهود غلت فيه حتى قالوا : ولد لغير رشدة . فالغلو لازم للفريقين . وقيل : للنصارى خاصة .

[ولا تقولوا على الله الا الحق] : انه واحد لا شريك له ولا صاحبة ولا ولداً : [انما المسيح] قيل سمي به لأنه كان يمسح الارض مسحاً - سائح فيها - : [عيسى بن مريم] لا ابن الله كما يزعم النصارى ، ولا ابن أب كما يزعم اليهود . نعم هو : [رسول الله] مبعوث لتبليغ عباده : [وكلمته] هي - كن - : [ألقاها الى مريم] تفسير لمعنى الكلمة فانه كلمة كن ألقيت الى مريم البتول .

ومعناه : انه لم نعمل في تكوينه الاسباب العادية ، كالزواج ، والأب ، و . . فكل شيء هو كلمة له تعالى ، وهو مرجع ايجادها كلها سواء كان عيسى ام غيره . غير ان سائر الاشياء تختلط بالاسباب العادية وتكوين عيسى عليه السلام اختص بوقوع الكلمة ، وفقدت الاسباب العادية في تولده : [وروح منه] قال تعالى [قل الروح من أمر ربي] ولما كان عيسى عليه السلام كلمة - كن - التكوينية وهي أمر فهو روح . وقد نفخ سبحانه في طينة آدم من قبل من روحه فكان انساناً كما يقول تعالى : [اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين] والسجود على أثر نفخ الروح

فهو له تعالى . لا على اثر الخلق من طين كما فهم - ابليس - لعنة الله عليه ابو الشياطين .

فالذي وهب لآدم من غير ابوين حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من لهو الذي وهب عيسى عليه السلام من غير أب هذه الحياة الانسانية كذلك . فلِمَ لم تقولوا : ان آدم ابن الله ، او ثالث ثلاثة ، او . .

وهذا من أبسط الادلة ، واوضح الحجج ، واقوى البراهين - نسبح القرآن المبين - : [فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا : ثلاثة إنتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه] كل تسبيح فهو تنزيه له سبحانه عن كل ما لا يليق به ، والولد لا يليق به : [له ما في السماوات وما في الارض] وارتباطها بما قبلها ارتباط الدليل بالدعوى ، اي فاذا كان كل ما في السماوات وما في الارض مملوكاً له في اصل ذاته ، وآثاره ، فعيسى وأمه من جملة ذلك ، فكيف يكون المملوك والمخلوق إبناً للمالك والخالق [وكفى بالله وكيلا] قيماً ، ومدبراً ، ورازقاً . او حافظاً لاعمال العباد على قول آخر . ولا مانع من ارادة الجميع .

ثم قال سبحانه : [لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله] احتجاج آخر على نفي إلوهية المسيح مطلقاً سواء فرض كونه ولداً ، او ثالث ثلاثة او . . فان المسيح عبد الله لن يستنكف ابداً عن عبادته ، وهذا مما لا ينكره النصارى ، لأن عبادته لله واخلاصه لربه كان مشاهداً لهم بالعيان والاناجيل الدائرة عندهم صريحة في انه كان يعبد الله . ولا معنى لعبادة الولد الذي سنخ إله . ولا لعبادة الشيء لنفسه ولا لعبادة احد الثلاثة لثالثها المنطبق وجوده على كل منها .

[ولا الملائكة المقربون] تعميم للحجة على الملائكة حيث قال

بعض المشركين بكونهم بنات الله . فهي من الاهداف الاستطرادية في ضمن قصة عيسى عليه السلام ومريم .

وبالأخير فان الله تعالى لا يريد من عباده ان يقروا له بالعبودية وان يوحدوه . . لأنه بحاجة الى ذلك منهم . ولا لأنها تزيد في ملكه ايجاباً ، او تنقص منه سلباً . ولكنه يريد لهم صحة تصوراتهم وادراكاتهم ، كي تصح حياتهم ، واوضاعهم ، لعدم امكان استقامت ذلك لهم دون القيام على اساس قويم ومنهج سليم .

اراد لهم ان يعرفوا من هو صاحب السلطان في هذا الكون المنظم كي لا يخضعوا إلا له ، ولا يسيروا إلا على منهجه وشريعته لاجل الحياة يريد لهم ان يستشعروا العزة امام المتجبرين والطغاة ، يريد لهم ان يعرفوا ان القربى اليه لا تجيء عن صهر ونسب ، ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح : [ان اكرمكم عند الله اتقاكم] وفي الحديث : [إئتوني باعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم] .

وان تقدير هذه الحقيقة الكبيرة وتطبيق العمل عليها ، وربط الحياة بنظامها لهو الرصيد ايضاً لنيل الخير والكرامة والجزاء في دار البقاء : [ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله ، واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً اليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا] .

فالقرآن يلفت الانظار من باطن قصة المسيح وأمه الى الموت المحتم والحشر المقرر ، ثم الجزاء الدقيق العادل . ومن ثم يوجه الدعوة الى الناس كافة كختام للمقطع : [ياايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم] واي

برهان يقاوم برهان الرب [وانزلنا اليكم نوراً مبيناً] قيل (١) : النور ولاية علي عليه السلام عن ابي عبدالله عليه السلام .

[فاما الذين آمنوا واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً] . . فان للقرآن طابعاً خاصاً في بيان واقامة برهانه ، وقيام سلطانه يدركه من له ذوق بلغته وحس باساليبه ومن الشواهد على ذلك : ان ابن اسحاق قال (٢) : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، انه حدث : ان ابا سفيان بن حرب ، وابا جهل بن هشام ، والاخنس بن شريف بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه واله وهو يصلي من الليل في بيته فاخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائهم لاوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا اول مرة . ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثالثة اخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد الا نعود . فتعاهدوا على ذلك . . ثم تفرقوا . . الى آخر الخبر . وهي واحدة من القصص الكثيرة في ذلك . والذين لهم ذوق في اي جيل يعرفون ما في القرآن من خصوصية

(١) في مجمع البيان ج ٣ ص ١٤٧ .

(٢) الجزء الاول من السيرة لابن هشام ص ٣٣٧ نشر المكتبة التجارية : مطبعة حجازي .

وسلطان وبرهان . وحين يعيش الانسان بروحه في الجو القرآني فترة ، ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه يحس يسراً وبساطة ووضوحاً في رؤية الامور . ويشعر : ان مقررات كانت قلقة في حسه قد راحت تاخذ أماكنها ومقارها في هدوء ، وتلتزم حقائقها في راحة ، وتنفى ما علق بها سابقاً من الزيادات المتطفلة . لتبدو فى برائتها الفطرية ، ونصاعتها كما خرجت من يد الله تعالى .

من سورة المائدة في قصص

عيسى عليه السلام ومريم

تتضمن سورة المائدة بقية في تصحيح عقيـدة النصارى من اهل الكتاب . ولذلك يعاد عرض طرف من قصة عيسى عليه السلام ومريم والمعجزات التي اجراها الله على يديه ، ومسألة المائدة التي طلبها الحواريون.

ثم عرض قضية ألوهيـــة عيسى وامه ، ودعاوى النصارى فيها ، والتكذيب من عيسى ذاته لأن يكون هو قـد ادعاهـا ويبرىء نفسه من هذه الفرية امام ربه فى مشهد مرهوب من مشاهد القيامة ، ويدع أمر قومه لله ربه وربهم على ملاء من البشرية باجمعها ، والرسل كلهم شهود قال الله تعالى : [لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعاً ولله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ، وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله وأحباؤه قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب

من يشاء ولله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير] (١)

فهو نوع من الاستدلال عليهم في ابطال مدعاهم بنبوة عيسى عليه السلام لله تعالى وشركته له ، بينما هم يعترفون بهلاك عيسى وامه وجريان الموت عليهم .

ومن يرد إشاءة الله في ذلك ، فاذن هو ممكن ، لا واجب . حاله حال أمه ، حال سائر الممكنات في الارض .

ثم يثني بالحجة : وان الله مالك السماوات والارض وما بينهما ، وعيسى وامه من اجزائهما ومالك الكل مالك للجزء ، كما ان جزء المملوك مملوك .

ثم يرد عليهم دعواهم البنوة له تعالى وانهم محبوبوه (٢) جل شأنه ومرادهم من ذلك : الاقربية اليه تعالى عن ذلك بالروح لا الجسد ، وانهم أبناؤه روحاً لا جسماً . وعلى كل فهو تعالى يبطل مدعاهم ذلك بقوله : [قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم] سواء كان العذاب الاخروي ، وقد اعترفوا به غير انهم يقولون : انه ايام معدودات . او الدنيوي كما هو مسجل عليهم عند عبادتهم العجل ، او مسخهم قردة وخنازير ، او تسليط الملوك عليهم كنبوخذ نصر ، وغيره ، واذلالهم . والحبيب لا يعذب حبيبه . فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب ، انما هي كذلك

---

(١) المائدة : ١٧ .

(٢) في مجمع البيان ج٣ ص١٧٦ : ان جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف وكعب بن اسيد وزيد بن التابوه وغيرهم قالوا لنبي الله صلى الله عليه وآله حين حذرهم بنقمات الله وعقوباته : لا تخوفنا فانا ابناء الله واحباؤه فان غضب علينا فانما يغضب كغضب الرجل على ولده يعني انه يزول عن قريب عن ابي عباس .

فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف ، وان الله يجري على المحسوبيات والمحاباة . يحابي فريقاً من عباده فيدعهم يفسدون ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين فاي فساد في الحياة يمكن ان ينشأ عن مثل هذا التصور ، واى اضطراب في الحياة يمكن ان ينشئه هذا الانحراف .

وهنا يضرب الاسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد حتى في عالم التصور ويقرر - عدل الله - الذى لا يحابي اضافة الى تقريره لبطلان اصل ذلك الادعاء : [قل فلِمَ يعذبكم الآية] ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على اصلها الواحد : على مشيئته التي تقرر الغفران باسبابه ، وتقرر العذاب باسبابه . لا بسبب بنوة او صلة شخصية . ثم يكرر : ان الله هو المالك لكل شيء ، وان مصير كل شيء اليه لما في ذلك من الحسم لتلك الاضاليل .

وقال تعالى (١) وقفينا على اثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين] .

التقفية : جعل الشيء خلف الشيء ، وهو كناية عن ان عيسى عليه السلام سلك به المسلك الذي سلكه من قبله من الانبياء . وهو طريق الدعوة الى التوحيد والعبودية لله . وبحكم هذه التبعية والتقفية فهو مصدق لما بين يديه من التوراة ، فدعوته ودعوة موسى عليه السلام على حد سواء من غير فارق اصلي ، نعم قد انزلنا عليه كتاباً : هو الانجيل ولكنه فيه هدى ونور ، وتصديق لما في التوراة . عدى ما منّ الله به عليهم من تحليل بعض ما حرم عليهم سابقاً - عقوبة - .

وفي ذلك من الرد على من ادعى لعيسى الألوهية بعدم الفرق بينه

(١) المائدة : ٤٦ .

وبين من قبله من الانبياء : مالا يخفى وليس في قوله : [ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين] تكرار ، لان المراد به تبعية الانجيل لشريعة التوراة ، فلم يكن في الانجيل الا الأمضاء لشريعة التوراة والدعوة اليها الا ما استثناه عيسى عليه السلام : [ولأحل لكم بعض ما حرم عليكم] .

والآية تدل ايضاً على ان في الانجيل عناية خاصة بالتقوى فى الدين والاخلاق غير ما عليه التوراة من العناية فى العقائد والاحكام .

وقال تعالى (١) : [لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح : يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ، وما من إله الا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم ، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم] .

وهذا كايضاح لعدم انتفاع النصارى بانتسابهم الى المسيح حيث قد اشركوا بالله ولم يؤمنوا به حق ايمانه لأنهم قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم .

---

(١) المائدة : ٧٦ .

اتحاد النصارى واختلافهم في المسيح

والنصارى وان اختلفوا في تصوير اشتمال عيسى على جوهرية الالوهيه بين قائل : باشتقاق أقنوم المسيح - وهو العلم - من اقنوم الرب - وهو الحياة - وهذا معنى الابوة والبنوة . وقائل : بان الله صار هو المسيح على نحو - الانقلاب - . وقائل : بانه حل فيه - لكن الاقوال الثلاثة تلتقي على هذه الكلمة : [ان الله هو المسيح بن مريم] وهو الكفر . وتوصيف المسيح في الآية بابن مريم مع الاستغناء عنه في تشخيصه - بالمسيح - للاشعار بسبب كفرهم وهو نسبة الالوهية الى انسان ابن انسان مخلوقين من تراب ، واين التراب من رب الارباب . وقول عيسى عليه السلام : [يابني اسرائيل اعبدوا ربي وربكم] احتجاج على كفرهم لدلالته على اعترافه بانه عبد مربوب مثلهم .

واما قوله : [انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار] فقد سيق لابطال ماينسبونه الى المسيح : من حديث التفدية : وانه باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم . فهم مغفور لهم ، مرفوع التكليف عنهم ، وان مصيرهم الى الجنة ولا تمسهم النار . .

والذي تحكيه الآية من مصيرهم الى النار موجود ايضاً في متفرقات ابواب الاناجيل : فان فيها الامر بالتوحيد (١) وفيها ابطال عبادة المشرك (٢) كما ان فيها الحكم بخلود الظالمين في النار (٣) ثم قال

---

(١) الاصحاح ١٢ : ٢٩ [انجيل مرقس]

(٢) الاصحاح ٦ : ٢٤ [انجيل متى]

(٣) الاصحاح ١٣ ٥٠ و ٣٥ و ٣١ - ٤٧ [انجيل متى] ايضا

سبحانه : [لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة] اي احد الثلاثة : الاب ـ الابن ـ الروح ـ تاكيداً على كفرهم مطلقاً حتى ما كان من مذهب جمهورهم .

وجرياً على التأكيد ، ولاثبات حقيقة التوحيد قال على اثره : [وما من إله إلا اله واحد] وفيه من التأكيدات لأمر التوحيد ما ليس في غيره ـ النفي والاستثناء ـ وزيادة من لأفادة تأكيد الاستغراق ـ ثم الاتيان بالمستثنى ـ : إله واحد ـ بالتنكير المفيد للتنويع ـ ثم التهديد بالعذاب الاليم : [وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم] وحيث ان الكثير منهم ، ومن كل اهل دين انما ياخذون مايأخذون تقليداً دون تفهم للوازم الباطلة لما يأخذون ، ولعلهم ـ المستضعفون ـ لذا قال : ـ ليمسن الذين كفروا منهم ـ مما يفيد التبعيض . وهم من علموا ذلك ، كما قال : [وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم] (١) اي أوتوا الكتاب ، او العلم . أما من كان منهم على غير علم ، او انه يعتقد ان المسيح عبد الله كنصارى الحبشة وامثالهم حسب ضبط التاريخ فليس لهم ذلك العذاب .

وقيل ايضاً : ان ـ من ـ بيانية لا تبعيضية ، وقوله : [افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم] تحضيض على التوبة وطلب الاستغفار منهم . او استفهام إنكار ، وتوبيخ .

ثم يكر عليهم بالحجة القاطعة ، والبرهان الحسي على اثبات بشريته وانسانية أمه فيقول : [ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل] والخلو هو الموت وقد استولى عليه الفوت والفناء عادة كل ممكن ، فما عيسى إلا واحد منهم ، وماله مالهم : [وأمه صديقة]

(١) البقرة : ٢١٢ .

اى كانت لها منزلة عند ربها لكثرة صدقها او لتصديقها بالكتب المنزلة من ربها لا أزيد من ذلك : [كانا يأكلان الطعام] ومن ولده النساء ويأكل الطعام لا يكون إلهاً للعباد ، لأن سبيله سبيلهم في الحاجة : وانهما يعيشان بالغذاء كما يعيش سائر الخلق . فكيف يكون إلهاً من لا يقيمه إلا الطعام ، وإذا جاع هوى .

وقيل : انه كناية عن قضاء الحاجة ، لأن من اكل الطعام لابد له من الحدث فذكر الاكل يراد منه عاقبته . ثم خاطب الرسول صلى الله عليه واله والمراد غيره للتعجيب فقال : [انظر كيف نبين لهم الآيات] سواء كانت المعجزات لأثبات نبوته ، او الحجج الأخرى لأثبات بشريته [ثم انظر أنى يؤفكون] اي كيف يصرفون عن الحق : وصارفهم دوافعهم المادية الشهوية . ثم زاد في الاحتجاج عليهم فقال : [قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك ضراً ولا نفعاً] ومن لا يملك ذلك لنفسه فهو أعجز من ان ينتفع بـه فيهما غيره ، وعبادة الاله لغرض دفع الضر وجلب النفع فاذا عدما فيمن تعبدون فالعبادة له تكون مسلوبة الغرض وحيث ان دفع مس الضر أبعث للانسان الى الخضوع من وجدان النفع قدم سبحانه الضر على النفع .

وقال تعالى بعد ذلك بايات : [لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود والذين اشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى ، ذلك بان منهم قسيسين (١) ورهباناً وانهم

---

(١) في كتاب الميزان ج٦ ص٨٩ : أن في الدر المنثور بسنده ان المراد منهم : رسل النجاشي الى النبي صلى الله عليه وآله الذين ارسلهم باسلامه واسلام قومه وكانوا سبعين رجلاً اختارهم من قومه : الخير فالخير في الفقه والسن .

لا يستكبرون ، (١) وهذا من قبيل - الضابط العام - في صورة خطاب خاص فقد علل تعالى اقربية النصارى الى المؤمنين بالمودة : بمجموع ثلاث صفات ، موجودة كلها فيهم ، دون اليهود والمشركين : ان فيهم علماء . ورهباناً زهاداً ، وعدم استكبارهم . وذلك تهيؤهم للسعادة ، لأن سعادة حياة الدين : قيامها بصالح العمل الصادر عن علم به فيطبقه عليه ، وهذا أشبه بالمقتضي ، فلابد حينئذ من إعدام المانع كي تتم العلة فى تأثيرها - والمانع هو الاستكبار عن قبول الحق سواء كان منشأه العصبية او الحرص على ما بيده من المادة .

فاذا تحقق الانسان : حقية أمر علمياً ونزع عن نفسه اغراض العناد واللجاج بامانة الاستكبار والاستعلاء على الحق فقد انصاع الى الحق ومال اليه وان لم يتأت منه ظاهراً .

فالنصارى فيهم علماء لا زالوا يذكرونهم مقام الحق ومعارف الدين قولاً . وفيهم زهاد يذكرونهم عظمة ربهم واهميـــة السعادة الاخروية والزهادة في الدنيا وفيهم التواضع وعدم الاستكبار . فقد تمت فيهم علة التأثير لحب المؤمنين حملة الحق ،

واما اليهود وان كان فيهم علماء لكنهم مستكبرون لا تدعهم رذيلة العناد والاستعلاء ان يتهيئوا لقبول الحق رغم وجود المقتضي فيهم - العلم - فهو غير مؤثر لوجود مانعه - الاستكبار - وهذا كما ذكرنا : ان الهدف منه : اعطاء القاعدة العامة لما يلزم الانسان من اخذ المقدمات اذا اراد الوصول الى الحق . قال رسول الله (٢) صلى الله عليه واله : [ان بني اسرائيل لما عملوا الخطيئة نهاهم علماؤهم تعزيزاً ثم جالسوهم

---

(١) المائدة : ٨١ .

(٢) في الدر المنثور عن ابن مسعود .

وآكلوهم ، وشاربوهم كان لم يعملوا خطيئة (١) فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبي من الانبياء (٢) . ثم قال صلى الله عليه واله : والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأطرنهم على الحق أطراً او ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم] .

وقال تعالى (٣) : [اذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرىء الاكمه والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ، واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون] . فقد

---

(١) بمعنى ان العلم فيهم قد صاحبه حب المادة فلم يعط نتاجه ولم ينج حامله من العقاب .

(٢) في كتاب الميزان ج٦ ص٨٦ عن المجمع عن ابي جعفر عليه السلام : اما داود فانه لعن اهل - إيله - لما اعتدوا في سبتهم ، وكان اعتداؤهم في زمانه فقال : اللهم البسهم اللعنة مثل الرداء ، ومثل المنطقة على الخصرين . فمسخهم الله قردة . واما عيسى عليه السلام فانه لعن الذين نزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك ، قال : فقال ابو جعفر عليه السلام : يتولون الملوك الجبارين ، ويزينوا لهم هواهم ليصيبوا من دنياهم وفى بعض الروايات الأخر : التصريح : بأنهم مسخوا خنازير .

(٣) المائدة : ١١٠ .

ذكرت هذه الامور الجارية على يد عيسى عليه السلام في موضوع آخر : بعنوان انها معجزات لنبوته ، ودلالات لرسالته .

اما هنا في سورة المائدة فكان ذكرها لغرض الامتنان بها عليه ، والتحذير من كفران النعم ، وحاشاه من ذلك ، لانه المصطفى والمنتخب بعلم الله جل شأنه فيه . وانما هي سنة القرآن في البيان ، وكما ذكرنا اكثر من مرة عن المثل - اياك اعني واسمعي ياجارة - لأن التحذير بذلك من الله تعالى اذا كان لنبي عظيم من انبيائه كعيسى عليه السلام فما حال غيره اذن عندما يكفر بنعم الله ، ويتناساها ، فالخطاب لنبيه والمقصود عامة البشر .

وذكرنا سابقاً عند بيان هذه الآيات من سورة آل عمران : ان الحكمة من تكرار - كلمة باذني - بعد كل فقرة لغرض دفع شبهة استقلاله عليه السلام بذلك . كما ان تكرار كلمة عيسى - بن مريم - مع العلم بان عيسى هو ابن مريم كان ايضاً لدفع شبهة : انه ابن الله .

واما قوله : [اوحيت الى الحواريين الخ] فلا دلالة فيه على انهم أنبياء يوحى اليهم . لأن الوحي يستعمل كثيراً في الالهام . كما في تفسير العياشي عن محمد بن يوسف الصنعاني عن أبيه قال : سألت ابا جعفر عليه السلام : [اذا أوحيت الى الحواريين] قال : الهموا . ومن موارد استعماله قوله تعالى : [واوحينا الى ام موسى ان أرضعيه] (١) وقوله تعالى : [واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً] (٢) وقوله في الأرض : [بان ربك أوحى لها] (٣) .

(١) القصص : ٧ .

(٢) النحل : ٦٨ .

(٣) الزلزال : ٥ .

ونكتفي لهذه الآية بذكر شاهد واحد من معاجزها لسبق كلامنا فيها : ففي الكافي عن محمد بن يحيى ، عن احمد بن محمد ، عن الحسن بن محبوب ، عن ابي جميلة ، عن ابان بن تغلب وغيره ، عن ابي عبد الله عليه السلام : انه سُئل : هل كان عيسى بن مريم أحيى احداً بعد موته بأكل ورزق ، ومدة ، وولد . فقال : نعم انه كان له صديق مؤاخ له في الله تبارك وتعالى وكان عيسى عليه السلام يمر به وينزل عليه ، وان عيسى غاب عنه حيناً ثم مر به ليسلم عليه فخرجت عليه أمه فسألها عنه فقالت له : مات يارسول الله ، فقال : أتحبين ان تريه قالت : نعم فقال : اذا كان غداً أتيتك حتى أحييه لك باذن الله تعالى ، فلما كان من الغد اتاها فقال لها : انطلقي معي الى قبره فانطلقا حتى أتيا قبره فوقف عليه عيسى عليه السلام ثم دعا الله عز وجل فانفرج القبر فخرج ابنها حياً فلما رأته أمه ورآها بكيا فرحمهما عيسى عليه السلام فقال له عيسى عليه السلام أتحب ان تبقى مع امك في الدنيا فقال : يارسول الله باكل ورزق ، ومدة ، ام بغير اكل ورزق ومدة . فقال له عيسى عليه السلام : باكل ورزق ومدة تعمر عشرين سنة وتتزوج ويولد لك ، فقال : نعم اذن ، قال فدفعه عيسى عليه السلام الى أمه فعاش عشرين سنة وولد له .

الحواريون وطلب المائدة

قال الله تعالى (١) : [اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل

(١) المائدة : ١١٣ .

يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة (١) من السماء قال: اتقوا الله ان كنتم مؤمنين، قالوا: نريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى بن مريم: اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا واخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين، قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذاباً لا أعذبه احداً من العالمين].

ان قصة المائدة لم تر في كتب النصارى، ولكن ورد في هذه الاناجيل خبر عن المائدة بصورة اخرى، ففي انجيل - متى - (٢): واما يسوع فدعا تلاميذه وقال: اني اشفق على الجميع لأن لهم الآن ثلاثة ايام يمشون معي وليس لهم ما ياكلون، ولست اريد ان أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال له تلاميذه: من اين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده. فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز. فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك، فامر الجموع ان يتكئوا على الارض، وأخذ السبع خبزات والسمك وشكر، وكسر واعطى تلاميذه، والتلاميذ اعطوا الجمع، فاكل الجمع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة اسلال مملوءة، والآكلون كانوا اربعة آلاف ما عدا النساء والاولاد. وفي انجيل - يوحنا - (٣) مضى يسوع الى عبر بحر الجليل وهو بحر - طبرية - وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التي كان يصنعها في المرضى، فصعد يسوع الى جبل وجلس هناك

(١) المائدة: هي الخوان اذا كان فيه طعام، والمائدة الطبق الذي عليه الطعام

(٢) فى نهاية الاصحاح ١٥

(٣) الاصحاح ٦

مع تلاميذه ، وكان الفصح عند اليهود قريباً ، فرفع يسوع عينيه ونظر ان جمعاً كثيراً مقبل اليه ، فقال - لفيلبس - : من اين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء . وانما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع ان يفعل اجابه فيلبس : لا يكفيهم خبز بمائتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً . قال له واحد من تلاميذه وهو - اندراوس - اخو سمعان بطرس هنا غلام معه خمسة ارغفة شعير ، وسمكتان ، ولكن ما هذا لمثل هؤلاء فقال يسوع : اجعلوا الناس يتكئون وكان في المكان عشب كثير . ووزع على التلاميذ ، والتلاميذ اعطوا المتكئين ، وكذلك من السمكتين بقدر ما شاؤا ، فلما شبعوا قال لتلاميذه : إجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء . فجمعوا وملأوا اثنتي عشر قفة من الكسر ، من خمسة ارغفة الشعير التي فضلت عن الاكلين .

فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا : ان هذا هو بالحقيقة : النبي الآتي الى العالم . واما يسوع فاذ علم انهم مزمعون ان يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف ايضاً الى الجبل وحده . وهذه ان صحت فهي كرامات اخرى غير ما يحكيه القرآن من قصة المائدة .

توافق الكرامات

وحيث ان هدف الانبياء واحد ، ومددهم بالخوارق ايضاً من واحد فلربما تتقارب المعاجز الكائنة بايديهم حسب المقتضيات . وبمثل ما كان لعيسى عليه السلام من الاطعام فقد كان ايضاً باذن الله تعالى لنبينا سيد الأنام محمد عليه وعلى اله الصلاة والسلام كما جاء في الخبر المأثور (١)

(١) مجمع البيان ج٧ ص ٢٠٦

عن البراء بن عازب انه قال : لما نزلت هذه الآية : [وانذر عشيرتك الاقربين] (١) جمع رسول الله صلى الله عليه واله بني عبد المطلب وهم يومئذ اربعون رجلاً ، الرجل منهم ياكل المسنة ويشرب العس فامر علياً عليه السلام برجل شاة فأدمها ثم قال : [ادنوا باسم الله] . فدنا القوم عشرة ، عشرة ، فاكلوا حتى صدروا ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ، ثم قال لهم : [اشربوا باسم الله] . فشربوا حتى رووا . فبدرهم ابو لهب فقال : هذا ما سحركم به الرجل فسكت صلى الله عليه واله يومئذ ولم يتكلم .

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم انذرهم رسول الله صلى الله عليه واله فقال : يابني عبد المطلب اني انا النذير اليكم من الله عز وجل والبشير . فاسلموا واطيعوني تهتدوا . ثم قال : من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في اهلي ويقضي ديني فسكت القوم ، فاعادها ثلاثاً ، كل ذلك يسكت القوم ويقول علي عليه السلام : انا ، فقال في المرة الثالثة : انت .

فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أمر عليك (٢)

وروي عن ابي رافع هذه القصة : وانه صلى الله عليه واله جمعهم

(١) التوبة : ٢١٤

(٢) اورده الثعلبي في تفسيره مع مابعده عن ابي رافع واخرجه الطبري فى تاريخه الكبير ج٣ ص٢١٦ ، وابن الاثير فى تاريخه الكامل ج٢ ص٢٢ وابن ابي الحديد ج٣ ص٣٥٥ والحلبي فى سيرته ج ١ ص٣١١ وعلي المتقي الحنفي فى كنز العمال ج٦ ص٣٩٧ والحاكم النيسابورى فى المستدرك للصحيحين ج٣ ص١٣٣ وفى الدر المنثور ج٥ ص ٩٧ واحمد بن حنبل فى مسنده ج١ ص١١ وابن كثير فى البداية والنهاية ج٣ ص٣٩

في الشعب فصنع لهم رجل شاة فاكلوا حتى تضلعوا وسقاهم عساً فشربوا كلهم حتى رووا . ثم قال صلى الله عليه واله : ان الله تعالى أمرني ان انذر عشيرتي الاقربين ، وانتم عشيرتي ورهطي ، وان الله لم يبعث نبياً الا جعل له من اهله إخاً ووزيراً ، ووارثاً ، ووصياً وخليفة في اهله فايكم يقوم فيبايعني على انه اخي ووارثي ووزيري ووصيي ، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي . فسكت القوم ، فقال ليقومن قائمكم ، او ليكونن في غيركم ثم لتندمن . ثم اعاد الكلام ثلاث مرات فقام علي عليه السلام فبايعه ، واجابه . ثم قال : أدن مني فدنا منه ففتح فاه ومج فيه من ريقه ، وتفل بين كتفيه وثدييه . فقال ابو لهب فبئس ما حبوت به ابن عمك ان اجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً . فقال صلى الله عليه واله : ملأته حكمة وعلماً .

وعن ابي عباس قال : لما نزلت الآية صعد رسول الله صلى الله عليه واله على الصفا فقال : ياصاحباه . فاجتمعت اليه قريش فقالوا : مالك ، فقال : ارأيتكم ان اخبركم ان العدو مصبحكم او ممسيكم ما كنتم تصدقوني قالوا : بلى ، قال : فاني نذيرلكم بين يدي عذاب شديد . قال ابو لهب : تباً لك ألهذا دعوتنا جميعاً ، فانزل الله : [تبت يدا ابي لهب وتب الى آخر السورة] . وقد ذكرنا مصادر هذا الخبر في الهامش عن كبار علماء السنة لما فيه من الاهمية في اثبات الوصية وان المصادر المذكورة وان اختلفت في كيفية نقل هذا الخبر الا انها كلها تلتقي في المقصود فيما يخص امير المؤمنين عليه السلام ونقله الكثير ايضاً من علماء الشيعة .

كرامة اخرى للنبي - ص - من

سنخ كرامة المائدة

عن جابر (١) قال : كنا عملنا مع رسول الله صلى الله عليه واله في الخندق وكانت عندي - شويهة - فقلت : لو وضعناها لرسول الله صلى الله قال : وامرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا خبزاً وذبحت تلك الشاة وصنعتها لرسول الله صلى الله عليه واله قال : وأمسينا وذلك انا كنا نعمل في الخندق نهاراً فاذا امسينا رجعنا الى اهلنا فقلت يارسول الله اني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير واحب ان تنصرف معي الى منزلي . قال : وانما اردت ان ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه واله وحده ، قال : فلما ان قلت له ذلك أمر صارخاً فصرخ ان انصرفوا مع رسول الله الى بيت جابر بن عبد الله ، قال : فقلت : انا لله وانا اليه راجعون . فاقبل رسول الله صلى الله عليه واله واقبل الناس معه واخرجنا ذلك اليه ، فبرك عليه وسمى الله تعالى وأكل وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم جاء قوم غيرهم حتى صدر اهل الخندق باسرهم ، وفضل الطعام ، ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه واله من حفر الخندق اقبلت قريش بجيوشها واتباعها في عشرة آلاف وخرج النبي صلى الله عليه واله بالمسلمين وهم ثلاثة آلاف الحديث .

---

(١) فى الفصول المهمة ص ٤١ لابن الصباغ المالكى : عن كتاب - محمد وعلي وبنوه - ص٥٨ .

كرامة اخرى تضاهي كرامة المائدة

قال (١) وروى ابن مساءة : ان ابنة بشر بن سعد ابن اخت النعمان بن بشير قالت : دعتني أمي بنت رواحه فاعطتني حفنة من التمر - جعلته - في ثوبي ثم قالت : اذهبي الى ابيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما ، قالت ، : فاخذتها وانطلقت بها فمررت برسول الله صلى الله عليه واله وانا التمس ابي وخالي فقـال : تعالي يابنية ما هذا معك . قالت : فقلت : يارسول الله صلى الله عليك وآلك : قليل من تمر بعثتني به امي الى بشر بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيان به . قال صلى الله عليه واله : هاتيه فصببته في كفي رسول الله صلى الله عليه واله فاملأها ثم امر بثوب فبسط ثم دحا بالتمر عليه وغطاه بثوب آخر وقال لانسان عنده : اصرخ في اهل الخندق : ان هلم الى الغذاء ، فاجتمع اهل الخندق عليه فجعلوا ياكلون منه وجعل يزيـد حتى صدر اهل الخندق عنه ، وانه يسقط من اطراف الثوب .

عودة الى صلب الموضوع - المائدة

ان بعض المفسرين يرى ان المائدة لم تنزل لان الحواريين حينما سمعوا قول الله تعالى : [اني منزلها عليكم فمن يكفر بعـد منكم فاني اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين] . خافوا وكفوا عن طلب

(١) فى الفصول المهمة ايضا ص٤٠ .

نزولها (١) ولكن اكثر آراء المفسرين على انها نزلت لأن الله تعالى قال [اني منزلها عليكم] ووعد الله حق .

ثم اختلفوا في معنى قولهم : [هل يستطيع ربك ..] وهم المؤمنون بالله والذين أشهدوا عيسى عليه السلام على اسلامهم له فلا يجوز ان يكونوا شكوا في ذلك . فقيل : ان معناه : هل يستجيب لك اذا طلبت وعليه فيكون استطاع بمعنى أطاع كما يكون استجاب بمعنى اجاب .

وقيل : ان معناه : هل يقدر . وكان ذلك منهم قبل استحكام معرفتهم بالله ، ولذا انكر عليهم عيسى عليه السلام فقال : [اتقوا الله ان كنتم مؤمنين] .

وقيل : انهم سألوا ذلك لتكون اجابته دليل صدقه وصحة أمره بحيث لا تبقى لهم شبهة وارادوا ان يزدادوا تثبيتاً كما قال ابراهيم عليه السلام : [رب أرني كيف تحي الموتى الآية] . قال : [إتقوا الله ان كنتم مؤمنين] .. معناه : إتقوا الله ان تسألوه شيئاً لم تسأله الامم قبلكم .

ايضاح

ان الآيات الاعجازيه الواردة في القصص الالهي على اقسام :
اما آيات أتاها الله انبياءه عند بعثهم لتكون حجة مؤيدة لنبوتهم او رسالتهم كما أوتي موسى عليه السلام اليد البيضاء والعصا ، وأتي عيسى

---

(١) قال ابن كثير فى التفسير : روى الليث ابن ابى سليم عن مجاهد قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . رواه ابن ابى حاتم وابن جرير ، ثم قال ابن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا القاسم - هو

عليه السلام احياء الموتى ، وخلق الطير ، وابراء الاكمه والابرص ، وأوتي محمد صلى الله عليه واله ـ القرآن ـ ، وهذه آيات أوتيت لحاجة الدعوة الى الايمان، ولاتمام الحجة على الكفار ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

واما آيات معجزة أتى بها الانبياء والرسل لأقتراح الكفار عليهم كناقة صالح ، ومثلها المخوفات والمعذبات المستخدمة في الدعوة، كايات موسى عليه السلام على قوم فرعون من الجراد والقمل والضفادع .. في سبع آيات . وطوفان نوح ، ورجفة ثمود ، وصرصر عاد . وهذه آيات مرتبطة بالمعاندين الجاحدين .

واما آيات اراها الله المؤمنين لحاجة قد مست ، وضرورة دعت .

كانفجار العيون من الحجر ، ونزول المن والسلوى على بني اسرائيل في التيه ، ورفع الطور فوق رؤوسهم ، وشق البحر لنجائهم من فرعون وعمله . فهذه آيات واقعة لأرهاب العاصين المستكبرين ، او كرامة للمؤمنين من غير ان يكونوا قد اقترحوها .

ومن هذا النوع المواعيد التي وعدها الله فى كتابه المؤمنين كرامة لرسوله صلى الله عليه واله كوعدهم فتح مكة ومقت المشركين من كفار قريش ، وغلبة الروم ونحوه .

فهذه انواع الآيات المقتصة في القرآن ، والمذكورة فى التعاليم الالهي .

واما اقتراح الآية : فهو من التعنت ، او التشهي كاقتراح اهل الكتاب ان ينزل النبي صلى الله عليه واله عليهم كتاباً من السلام مع

ابن سلام ـ حدثنا حجاج ، عن ابن جريح ، عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ابوها حين عرض عليهم العذاب ان كفروا فأبوا ان تنزل عليهم .

وجود القرآن بين ايديهم قال تعالى : [يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة الأية] . (١) وكما سأل المشركون النبي صلى الله عليه واله انزال الملائكة ، او ارآءة ربهم جل شأنه قال تعالى : [وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة اونرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيرا] (٢) والسبب فى مقت الله لهم : هو ان ليس المقصود من نزول الآية الاظهور الحق وتمام الحجة فاذا نزلت فقد ظهر الحق وتمت الحجة . فلو أعيد سؤال نزول الآية وقد نزلت وحصل الغرض فلا عنوان له الا العبث بآيات الله واللعب في المقام الرباني وفي ذلك اعظم العتو والاستكبار .

واذا صدر ذلك من المؤمنين يكون الذنب فيه اكثف ، والاثم فيه اعظم . فماذا يصنع المؤمن وهو مؤمن بنزول الآية السماوية وقد شاهد ايات الله وآمن عن مشاهدتها ، ويكون اشبه باقتراح ارباب الهوى والمترفين في مجالس أنسهم .

والمستفاد من ظاهر الآية [اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة [انهم أقترحوا على المسيح ذلك وهم حواريون المختصون به ، وقد رأوا تلك الايات الباهرات . وكيف يتصور فى من آمن بالمسيح ان لا يعثر منه على آية وهو عليه السلام بنفس وجوده آية ، ومحفوف بأية على طول الخط .

فمن البعيد جدا قول من قال : انهم طلبوا ذلك قبل استحكام الايمان في قلوبهم . فاذن هو اقتراح آية بعد آية ولذا وبخهم عيسى (ع)

---

(١) النساء : ١٦٥ .

(٢) الفرقان ٢١ .

بقوله : (اتقوا الله ان كنتم مؤمنين) .

ولذلك ايضا وجهوا ما اقترحوه بما يزيل عنهم تلك الحدة فقالوا : (نريد ان ناكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين)فضموا الى غرض الاكل اغراضا اخرى توجه اقتراحهم . ولكنهم مع ذلك لم يتركوا ذكر إرادة الاكل ، ومنه كانت الخطيئة .

طلب عيسى عليه السلام نزول المائدة

ولما ألح الحواريون على عيسى ع)وكرروا طلبهم لنزول المائدة ، والتمسوه منه. وسأل هو ربه ان يكرمهم بها ، وعنونها بكونها عيداً لهم باقيا بما في العيد فى نيلهم فيهموهبة ، او مفخرة تخصهم من بين الناس . وقيل : ان نزولها يوم الاحد ، ومن هنا اتخذ النصارى يوم الاحد عيداً . وحاشاه عليه السلام ان يسأل دون علم باستجابة طلبه ، وبغير اذن في ذلك من ربه فقال : (اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا واية منك وارزقنا وانت خير الرازقين) فهو عليه السلام يعرف ، ويعترف بانه عبد ، وان الله ربه ، وهذا الاعتراف يعرضه على مشهد من العالمين .

الاستجابة لعيسى عليه السلام

من الله تعالى

واستجاب الله سبحانه دعاء عبده الصالح المعترف عيسى بن مريم ولكن

بالجد والالحاح اللائق بجلال ربه المشفوع بالاستعطاف وانه خير الرازقين .

وقد أخر فقرة طلب الاكل ، وبدلها بالرزق : تلافياً لخطيئة الحواريين حيث جعلوها مقدمة وانها مطلوبة ذاتا . وهو من النكات الدقيقة .

ولأنها خارقة فيستجيب الله على شرط شرطه عليهم : على ان يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابا شديداً بالغا في شدته : لايعذبه احداً من العالمين : (قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذابا لااعذبه احداً من العالمين) : فهذا هو الجد اللائق بجلال الله حتى لايصبح طلب الخوارق تسلية ، وتفكهاً ولهواً . وحتى لايمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفخم دون جزاء رادع .

وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة والى هنا يسكت النص القرآني بعد وعده ووعيده وشرطه وقبوله فلم يعلم من نفس القرآن ان المائدة نزلت عليهم ام لم تنزل حيث لم يوافقوا بعد سماعهم ذلك التهديد كما ذهب الى . كل فريق كما اسلفنا .

ويمضي السياق بالهدف الاساسي من القصة الى تقرير الربوبية ولكن من طريق التقريع والتهديد واخذ الاعتراف العلني المصحوب بالتذلل والمسكنة من عيسى بن مريم : ممن ادعيت له الربوبية . وافاد عليه السلام : انه محدود العمل وفق التعليم ولم يتجاوز في ذلك اي حد من حدود - خالقه - . ولا يخفى ما في التعبير القرآني : [واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس إتخذوني وامي إلهين من دون الله] عبر بلفظ الأمومة دون ان يقال : اتخذوني إلهين . لما فى ذلك من الدلالة على بطلان حجتهم - الاساسية في الألوهية - : ولادته من غير اب . فهو من ام ان لم يكن من اب فكيف يكون رباً .

الاعتراف من عيسى - ع - بالواقع منه

[قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسي ولا اعلم ما فى نفسك ، انك انت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما امرتني به : ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم ، وانت على كل شيء شهيد ، ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم] . .

فبدأ عليه السلام بتسبيحه لما قد فاجأه من ذكر ما لا يليق بساحة قدسه ، فمن أدب العبودية : ان ينزهه اولاً عما لا يليق بشأنه من وجود شريك له . ثم عاد الى نفي ما استفهم عن انتسابه اليه بصورة أبلغ ، وبفن أأكد حيث لم يقل كالعادة في امثاله : اني لم اقل ذلك . بل قال ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق . فعمد الى نفي السبب ، لأبلغيته في التنزيه له جل شأنه فنفي هذا الحق : نفي لما يتفرع عليه من القول .

برهان ذلك النفي والدعوى

وقوله عليه السلام بعد ذلك : [ان كنت قلته فقد علمته] كدليل على دعواه : انه لم يقله : لأن علم الله ذاتي له لا ينفك عنه آناً ما لا سابقاً ولا لاحقاً . وفي ضمنه اثبات العدالة له جل شأنه ، وكانه يقول ان صدر مني هذا القول فلازمه انك قد علمت ذلك من الازل : وانه يصدر مني . وعدالتك الثابتة المقررة تمنع من ان ترسل رسولاً منتخباً

من الازل يصدر منه دعوى الربوبية لعبادك ، والشركة لك .

وقوله عليه السلام بعد ذلك : [تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك] توضيح لنفوذ علمه تعالى ، وبيان لأن علمه جل شأنه باعمالنا ليس على حد علم الملوك باحوال رعيتهم : يعلم شيئاً ويجهل آخر ويستحضر حالاً ، ويغفل عن حال . بل انه العليم بكل شيء - ومنها نفس عيسى عليه السلام - .

ولافادة عدم محدودية علمه سبحانه ضم الى ذلك الجملة الثانية : [ولا اعلم ما في نفسك] لأن علمي محدود وعلمك غير محدود .

واما قوله بعد ذلك : [انك انت علام الغيوب] فهو بيان علة ما تقدم وتعميم لعلمه تعالى لدفع توهم ان ما قاله في حق ربه : من علمه بما في نفسه : مقصور على ما بينه وبين ربه ، وانه لا يسري الى ما بين الله وبين غير عيسى من سائر العباد . فقال : انك انت علام الغيوب كلها .

وبعد ان استشهد بذات الله وعلمه ، على براءته مما انتسب اليه مع التصاغر ، يجرؤ حينئذ على اثبات وتقرير ما هو قائله ، وما هو ليس بقائله ، فيثبت انه لم يقل الا ان يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم الى عبادته ، وما هو وظيفته لا غير ، دون تجاوز : [ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدو الله ربي وربكم] ثم يخلي يده منهم بعد وفاته فيقول : [وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد] .

فقد أديت الوظيفة التي كنت مأمور بها من قبل ربي ، وهي مقتضيات الرسالة من التبليغ . وقد أديتها ، والشهادة على اعمالهم فقد كنت عليها ما دمت فيهم ، فلم أتعد ما رسمت لي من وظيفتي ، فانا براء مما ألقي اليهم من اتخاذي وأمي إلهين من دون الله .

ولا يخفى ما في قوله بعد ذلك : [فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم . .] من الدلالة على حفظ الاعمال ، وانها لا بد لها من مراقبة وضبط : مراقبة خاصة من السفراء . ومراقبة عامة ، منه تعالى ، والعموم مستفاد من قوله : [وانت على كل شىء شهيد] وينتهي بعد ذلك الى التفويض المطلق فى امرهم باضافة تقرير عبوديتهم لله وحده - هدف القصة الاصيل - وتقرير قوة الله على المغفرة لهم او عذابهم . وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء ، سواء كان هو المغفرة او العذاب : [ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم] المنيع ، والحكيم فيما تفعل ، فان عذبت فبالشرك ، وان غفرت فبالملك . فياله موقف عبوديه ، وصلاح ، ورهبة . فبالرغم من اطلاقهم عليه هذه الفرية الكبيرة فهو يبتهل من اجلها الى ربه هذا الابتهال المنيب طالباً من ربه فى ضمنها - المغفرة لهم -

ثم قال معقباً على ذلك ، كختام للأمر كله ، ومن اساسه ، ولأعطاء الثمرات : [هــذا يوم ينفع الصادقين صدقهم] وانه تعقيب مناسب على كذب الكاذبين باطلاقهم الفرية العظيمة على ذلك النبي الكريم في اعظم القضايا عامة - قضية الالوهية والعبودية - : اساس الانتظام في هذا الوجود .

وتعقيب مناسب ايضاً على اثبات الصدق لعيسى عليه السلام ضمناً وانه صادق في القول والفعل ، والجزاء على ذلك بكلمة رب العالمين : [لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم] لأنهم فازوا بامرين عظيمين : الخلاص من النـار اولاً . ونعيم الجنـة الباقي ثانياً . فحصلوا على الراحـة سلباً وايجاباً .

ويحق للصدق ان يكون مما يترتب عليه رضاء الله رغم ان هناك مما عداه انواعاً من المعاصي لو ارتكبهـا ذلك الصادق فكيف يحصل على رضاء الله معها . نعم فان الصدق الملتزم له اثره الفعال في ترك القبائح ولنذكر شاهداً واحداً من مئآت امثاله : ما روي ان رجلاً من اهل البادية استوصى النبي صلى الله عليه واله ، فوصاه صلى الله عليه واله : ان لا يكذب . ثم ذكر الرجل : ان رعاية ما وصاه به النبي صلى الله عليه واله كفته عن عامة المعاصي ، اذ ما من معصية عرضت الا وذكر وصية النبي صلى الله عليه واله له بان لا يكذب . فلو انه ارتكبها ثم سئل عنها وجب ان يعترف بها على نفسه لالتزامه الصدق فيتركها مخافة ذلك .

وتختم سورة المائدة بالآية : [لله ملك السماوات والارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير] الدالة على الملك المطلق . والمناسبة الظاهرة مع غرض السورة الذي هو حث العبـاد وترغيبهم على الوفاء بالعهود والمواثيق الماخوذة عليهم من ربهم ، والتفويض اليه في كل الامور ، لأنه مالكها ، كما فوض عيسى بن مريم عليه السلام امره وامر قومه الى العزيز الحكيم .

عرض غير منتظر

ولقد اخذنا على انفسنا في كتابنا هذا ـ شبه الالتزام ـ بذكر حقائق المطالب ، وجوهريات الامور ، وعلى الاخص ـ الاهداف الخفية للقرآن العظيم ـ وترك الاقوال ـ الطويلة والعريضة ـ في اطار تفسير كلام رب العالمين ، مما لا دخل له على الاكثر في فهم الغرض الاساسي

للآية الكريمة . وفي مقدمة ذلك التركاض وراء الروايات ، وفيها ما فيها مما لا يخفى على من وحد الله حق توحيده ، ونزهه صحيح تنزيهه : من المساس بقدسي ذاته ، وورع سفرائه .

ولكن مقامنا هذا ـ نزول المائدة ـ بما فى اخبارها من الاختلاف الشخصي لا النوعي مما يتطلب لاكثر القراء الأطلاع عليه لخلو كتب غير المسلمين منه اولاً ، ولروعة القصة فى مادتها وهيئتها ثانياً .

وللأزدياد من معرفة قدرة الله ثالثاً ، ولمعرفة عظيم مقام الصالحين من عباده عنده رابعاً .

لهذا كله نستسمح بقية القراء في ذكرنا بعض ما أثر فى موضوع ـ المائدة ـ ونوعها ، وكيفية نزولها ، وأمد بقائها ، واسباب ارتفاعها وانقطاعها ، وما حل بجاحديها ، وبذلك ننهي الكلام فيما يخص قصص عيسى عليه السلام .

البيان

قال الشيخ الطبرسي (١) : ولان الاخبار قد استفاضت عن النبي صلى الله عليه وآله والصحابة ، والتابعين انها ـ اي المائدة ـ نزلت قال كعب : انها نزلت يوم الاحد ولذلك اتخذه النصارى عيداً ، واختلفوا في كيفية نزولها ، وما عليها . فروى عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وآله قال : نزلت خبزاً ولحماً . وذلك لأنهم سألوا عيسى عليه السلام طعاماً لا ينفذ يأكلون منه . قال فقيل لهم : انها مقيمة لكم ما لم تخونوا

---

(١) في مجمع البيان ج٣ ص٢٦٦ .

وتخبأوا وترفعوا (١) فان فعلتم ذلك عذبتم ، قال فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا .

وقال ابن عباس : ان عيسى بن مريم قال لبني اسرائيل : صوموا ثلاثين يوماً ثم إسألوا ما شئتم يعطيكم فصاموا ثلاثين يوماً فلما فرغوا قالوا ياعيسى : إنا لو عملنا لأحد من الناس فقضينا عملنا لأطعمنا طعاماً ، وانا صمنا وجعنا فادع الله ان ينزل علينا مائدة من السماء ، فاقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة ارغفة ، وسبعة احوات حتى وضعوها بين ايديهم فاكل منها آخر الناس كما أكل أولهم وهو المروي عن ابي جعفر عليه السلام ايضاً .

وروى عطاء بن السائب عن زاذان ، وميسرة قالا : كانت اذا وضعت المائدة لبني اسرائيل اختلف عليهم الايدي من السماء بكل طعام الا اللحم .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : انزل على المائدة كل شيء الا الخبز واللحم . قال عطاء : نزل عليها كل شيء الا السمك واللحم . وقال عطية العوفي : نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شيء وقال عمار وقتادة : كان عليها ثمر من ثمار الجنة . وقال قتادة : كانت تنزل عليهم بكرة وعشياً حيث كانوا . كالمن والسلوى لبني اسرائيل . وقال يمان بن رءاب : كانوا ياكلون منها ما شاؤا .

وروى عطاء بن ابي رباح عن سلمان الفارسي انه قال : والله ما تبع عيسى شيئاً من المساوي قط ، ولا انتهر يتيماً ، ولا قهقه ضحكاً ، ولا ذب عن وجهه ذباباً ، ولا أخذ على أنفه من شيء نتن قط ، ولا عبث قط ، ولما سأله الحواريون ان ينزل عليهم المائدة لبس صوفاً وبكى ،

(١) اى تخفوا وتدخروا .

وقال : اللهم أنزل علينا مائدة الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون اليها وهي تهوي منقضة حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، واليهود ينظرون اليها ، ينظرون الى شيء لم يروا مثله ، ولم يجدوا ريحاً اطيب من ريحه . فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة ثم كشف المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين فاذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوسها تسيل سيلاً من الدسم ، وعند رأسها ملح ، وعند ذنبها خل وحولها من انواع البقول ما عدى الكراث واذا خمسة ارغفة على واحد منها - زيتون - وعلى الثاني - عسل - وعلى الثالث - سمن - وعلى الرابع - جبن - وعلى الخامس - قديد - .

فقال شمعون : ياروح الله أمن طعام الدنيا ام من طعام الآخرة . فقال عيسى عليه السلام : ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شيء افتعله الله بالقدرة الغالبة . كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله .

فقال الحواريون : ياروح الله لو أريتنا من هـذه الآية اليوم آية اخرى ، فقال عيسى عليه السلام : ياسمكة إحيي باذن الله - فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ، ففزعوا منها ، فقال عيسى مالكم تسألون اشياء فاذا أعطيتموها كرهتموها . ما اخوفني عليكم ان تعذبوا . ياسمكة عودي كما كنت باذن الله ، فعادت السمكة مشوية كما كانت . فقالوا : ياروح الله كن اول من يأكل منها ثم ناكل نحن . . فقال عيسى عليه السلام : معاذ الله ان آكل منها ولكن ياكل منها من سألها فخافوا ان ياكلوا منها . فدعا عيسى عليه السلام لها اهل الفاقة ، والزمنى ، والمرضى ، والمبتلين . فقال : كلوا منها جميعاً ولكم المهنا ،

ولغيركم البلاء . فاكل منها الف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير ، ومريض ومبتلى ، وكلهم شبعان يتجشى .

ثم نظر عيسى الى السمكة فاذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء ثم طارت المائدة صعداً وهم ينظرون اليها حتى توارت منهم .

فلم ياكل منها يومئذ زمن الأصح ، ولا مريض الا أبرىء ، ولا فقير الا استغنى ، ولم يزل غنياً حتى مات . وندم الحواريون ، ومن لم ياكل منها .

وكانت اذا نزلت اجتمع الاغنياء والفقراء والصغار والكبار يتزاحمون عليها . فلما رأى ذلك عيسى جعلها نوبة بينهم فلبثت اربعين صباحاً تنزل ضحى فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى فآء الفيء طارت صعداً وهم ينظرون في ظلها حتى توارت عنهم .

وكانت تنزل غباً يوماً ويوماً ، فاوحى الله الى عيسى : اجعل مائدتي للفقراء دون الاغنياء ، فعظم ذلك على الاغنياء حتى شكوا ، وشككوا الناس فيها . فاوحى الله الى عيسى : اني شرطت على المكذبين شرطاً ان من كفر بعد نزولها اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين . فقال عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم . فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين رجلاً باتوا من ليلهم على فرشهم مع نسائهم في ديارهم فاصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ، ويأكلون العذرة في الحشوش ، فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا ، وبكى على الممسوخين اهلوهم ، فعاشوا ثلاثة ايام ثم هلكوا .

وفي تفسير اهل البيت عليهم السلام : كانت المائدة تنزل عليهم فيجتمعون عليها ويأكلون منها ثم ترتفع فقال كبراؤهم ومترفوهم لا ندع سفلتنا يأكلون منها معنا فرفع الله المائدة ببغيهم ومسخوا قردة وخنازير

وقال الطباطبائي (١) : وفي تفسير العياشي عن عيسى العلوي عن ابيه عن ابي جعفر عليه السلام قال : المائدة التي نزلت على بني اسرائيل مدلاة بسلاسل من ذهب عليها تسعة أحوتة ، وتسعة ارغفة .

وفي لفظ آخر تسعة انوان ، وتسعة ارغفة - والانوان جمع نون وهو الحوت - (٢) .

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن ابي الحسن عليه السلام قال : ان الخنازير من قوم عيسى عليه السلام سألوا نزول المائدة فلم يؤمنوا بها فمسخهم الله خنازير .

وفيه عن عبد الصمد بن بندار قال : سمعت ابا الحسن عليه السلام يقول : كانت الخنازير قوماً من القصارين كذبوا بالمائدة فمسخوا خنازير .

وفيما رواه الكافي عن محمد بن يحيى عن احمد بن محمد ، عن محمد بن الحسن الاشعري ، عن ابي الحسن الرضا عليه السلام قال : الفيل مسخ كان ملكاً زناءً ، والذئب مسخ كان اعرابياً ديوثاً ، والارنب مسخ كانت امرأة تخون زوجها ولا تغتسل من حيضها ، والوطواط مسخ كان يسرق تمور الناس ، والقردة والخنازير قوم من بني اسرائيل إعتدوا في السبت ، والجريث والضب فرقة من بني اسرائيل لم يؤمنوا حيث نزلت المائدة على عيسى بن مريم ، فتابوا فوقعت فرقة في البحر ، وفرقة في البر . . وهذا آخر الكلام على قصص عيسى عليه السلام .

---

(١) في تفسير الميزان ج٦ ص٢٥٥ .

(٢) رواه في الدر المنثور عن الترمذي وابن جرير ، وابن ابي حاتم وابن الانبارى وابي الشيخ ، وابن مردويه ، عن عمار بن ياسر ، وفي آخره : مسخو قردة وخنازير .

من قصص موسى عليه السلام

في القران

وقصـة موسى عليه السلام هي اكثر قصص المرسلين وروداً في القرآن . وتعرض في حلقات تناسب موضوع السورة التي تعرض فيها . وقد وردت حلقة منها في سورة البقرة لمناسبة ما سبقها : من قصة آدم وتكريمه في الملاء الاعلى ، وعهد الله اليه بخلافة الارض ، ونعمته عليه بعد ما غفر له خطيئته . فجاءت قصة موسى وبني اسرائيل مساوقة لهـا تذكيراً لبني اسرائيل بنعمة الله عليهم ، وعهده اليهم وإنجائهم من فرعون وملائه واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم ، واطعامهم المن والسلوى . وذكرت مواعدة موسى عليه السلام وعبادتهم للعجل من بعـده ، ثم غفرانه لهم ، وعهده اليهم تحت الجبل ، ثم عدوانهم في السبت ، مختومة بقصة البقرة .

والغرض الاقصى : هو البيان للرسول صلى الله عليه وآله ولأمته من رعاية الله لأنبيائه وتسديده لخطاهم ، ودعمه لهم .

ومن جهادهم وجهودهم في سبيل اداء وظيفتهم ، وتحملهم المشاق في طريق وصولهم الى غايتهم . ومن احـوال أممهم في تلقي الدعوة ـ سلباً وايجاباً ـ وما لكلا الفريقين من الجزاء المناسب ـ الخير بالخير والشر بالشر ـ .

وجاءت ايضاً حلقة منها في سورة الاعراف ، وقد سبقهـا الانذار وعواقب المكذبين بآيات الله من قبل موسى عليه السلام ، فاعقبت ذلك

بعرضها - الرسالة - وفيها مشهد من الآيات : العصا ، واليد البيضاء - والطوفان - والجراد - والقمل - والضفادع - والدم - - الآيات التسع - باضافة سني الجدب ونقص الثمرات - وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ، وخاتمة فرعون وملائه المكذبين -

ثم ما كان من بني اسرائيل بعد ذلك : من اتخاذ العجل في غيبة موسى عليه السلام - واخيرها - الهدف الاسمى - والاعلان بان رحمة الله وهداه يرثه المتبعون للرسول النبي الأمي -

وأتت حلقة منها في سورة يونس - والمسبوقة بعرض مصارع المكذبين وبعدها تجيء القصة في بيان حلقة الرسالة ، وعرض مشهد السحرة ، ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل ، وهدفها انذار البشرية وعلى الاخص الأمة المرحومة : ان لا تتوغل في المعاصي ، وثم في الطغيان فتستحق الانتقام - كما كان من السابقين .

وجاءت حلقات منها في سورة المائدة . وفي سورة الاسراء ، وفي سورة الكهف ، وفي سورة طه . وهذا غير الاشارات القصيرة في سور اخرى .

ونحن بدورنا ان لا نطيل فى الموضوعات لعلوم القرآن الا لمسيس الحاجة واقتضاء المقام لغرض العبور الى موضوع آخر اغتناماً لفرصة الوقت . ولئلا يأخذ الكتاب سمة التخصص فى موضوع معين .

لهذا كله اقتصرنا من قصص موسى عليه السلام رغم اكثريتها على سائر القصص : على ما جاء فى سورة - طه - فقط ، وقد سبقها مطلع السورة ينبىء عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته . فجاءت القصة تبدأ بمشهد المناجاة ، وتتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام وتثبيته وتأييده . وتشير الى سبق هذه الرعاية للرسالة

فقد كانت ترافقه فى طفولته ، فتحرسه وتتعهده : [وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني] (١) .

فيبدأ السياق بقوله : [وهل اتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله : امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او أجد على النار هدى] . . (٢)

الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله : تسلية له بما ناله من اذى قومه وتثبيتاً له بالصبر على أمر ربه كما صبر موسى عليه السلام فنال الفوز في الدارين .

وكان من قصة موسى عليه السلام : انه فى منصرفه من مدين في جوار صهره شعيب راجعاً الى مصر التي خرج منها خائفاً عند طلب فرعون له حينما قتل منهم قبطياً لما رءاه يقتتل مع الاسرائيلي - ومعه اهله بنت شعيب - وهم بالقرب من وادي طوى في طور سيناء في ليلة شاتية مظلمة وقد ضلوا الطريق اذ رأى ناراً - وهي نور - واهل البادية يوقدون النار عادة على المرتفعات ليراها الساري في الصحراء فتكشف له عن الطريق ، او يجد عندها من يضيفه ، او يهديه .

لهذا استبشر موسى عليه السلام وقال لأهله : امكثوا . . الآية وقد استدلوا بصيغة الجمع على وجود خادم معهم . وقيل انه كان غيوراً على اهله لا يصحب الرفقة ، والجمع يستعمل لحساب المفرد . : [فلما أتاها نودي ياموسى اني انا ربك] ولا يخفى ما في البناء للمجهول من

---

(١) طه : ٤٠ .

(٢) الاستفهام للتقرير ، والحديث هو القصة ، والمكث : اللبث اليسير . والايناس : إبصار الشيء ، أو وجدانه ، وهو من الانس خلاف النفور . والقبس : الشعلة المقتبسة تكون على رأس عود ونحوه

الدقة - لعدم تحديد مصدر النداء .

فذلك من امر الله الذي نؤمن بوقوعه ولا نسأل عن كيفيته ، لأنها وراء مدارك البشر ، وتصورات الانسان . وقد علم موسى عليه السلام ان ذلك النداء من قبل ربه لدلالات اظهرها الله له ، ومنها انه رأى شجرة خضراء من اسفلها الى اعلاها ، تتوقد فيها نار بيضاء ، وسمع تسبيح الملائكة حولها ، فلم تكن الخضرة تطفىء النار ولم تكن النار تحرق الخضرة .

فعلم انها خارقة ، فألقيت عليه السكينة ثم نودي : [انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى] (١) انك فى الوادي الذي تتجلى فيه الطلعة المقدسة فلا تطأه بنعليك تقديساً لما فيه من النور : [وانا اخترتك] اي اصطفيتك بالرسالة - وياله من تكريم ان يكون الله بذاته هو الذي يختاره : [فاستمع لما يوحى] والاستماع هو الاصغاء [انني انا الله لا إله الا انا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى] - وقد ذكر الآيات المشتملة على النبوة - الركنين معاً - ركن الاعتقاد ، وركن العمل - واوصل الاعتقاد ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، والمعاد - وذكر منها التوحيد وأكده بانواع المؤكدات والمعاد بقوله : ان الساعة آتية - وترك ذكر النبوة لأن الكلام مع موسى فيها نفسها .

واما ركن العمل فقد لخصه في كلمة واحدة هي قوله : فاعبدني فتمت بذلك اصول الدين وفروعه في ثلاث آيات - وقوله : وأقم الصلاة لذكري ، لأن الصلاة لا تكون الا بذكر الله ، او لأن اذكرك بالمدح

(١) طوى اسم للوادى المقدس .

والثناء اذا صليت وذكرتني ، لأن من ذكر الله ذكره الله - .

وقوله ان الساعة آتية ، اي القيامة آتية لا محالة ، وهي الموعد المترقب للجزاء الكامل العادل الذي تتوجـه اليه النفوس ، فتحسب حسابه ، وتسير في الطريق وهي تخشى الانزلاق والله سبحانه يؤكد مجيئها وانه يكاد يخفيها - قيل في معنى - يكاد - اي يقرب ان اكتمها حتى من نفسي مبالغة في الكتمان - فعلم الناس لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من امرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم - . وان تعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود والانحراف فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم ، وعلى استعداد مستمر - ذلك لمن صحت فطرته واستقام - اما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل فيسقط ويكون مصيره الى الردى والهوي :

[فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى] - .

ذلك ان اتباع الهوى هو الذي يسبب التكذيب بالساعة - فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بان الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الانسانية كمالها ولا يتم فيها العدل تمامه ، وانه لابد من حياة اخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للانسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الاعمال - وبهذا قد أنهى سبحانه الى عبده المختار قواعد التوحيد .

فيبدأ في مقدمات التكليف الرسالي ، وتزويده بالمعجزات الخوارق فقال : [وما تلك بيمينك ياموسى] والاستفهام للتقرير تنبيهاً له عليها ليقع المعجز بعـد التثبت والتأمل بها ، وانها جماد لا حياة فيهـا :

[قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب اخرى]

اي اعتمد عليها في المشي وأهش اي أخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي حيث كان عليه السلام يرعى الغنم لشعيب ، او انه ساق معه في عودته

قطيعاً منها كان شعيب اهداه له ، ولي فيها مآرب اخرى ، وحاجات (١) .

وهذا اقصى ما يعرفه موسى عليه السلام عنها : [قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هي حية تسعى ، اي تمشي بسرعة وذلك أمر غير مترقب . وقد عبر سبحانه عنها بألحان ، ففي مقام قال : [رءآها تهتز كانها جان] (٢) وفي مقام بالثعبان : [فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين] (٣) والثعبان : الحية العظيمة .

معجزة موسى - ع - بين ايدينا

في كل لحظة

ووقعت المعجزة الخارقة التي تقع فيما بيننا بكل لحظة ، ولكن الناس لا ينتبهون اليها . لأن التي وقعت هي معجزة الحياة : فاذا العصا حية تسعى . وكم من ملايين الذرات الميتة او الجامدة هي تتحول في كل لحظة الى خلية حية كما تحولت العصا . ولكنها لا تبهر الانسان كما يبهره ما ذكر القرآن من تحول العصا حية ويبقى يضرب يميناً وشمالاً ويتخبط في تأويل ذلك بما لا حاجة اليه الى جنب قدرة الله المنتشرة .

والسبب ان الانسان أسير حواسه ، وأسير تجاربه ، ولا يبعد كثيراً في تصوراته عما تدركه حواسه .

---

(١) ذكر عدداً منها في مجمع البيان ج٧ ص٨ ولكن لا سند لها.

(٢) القصص : ٣١ .

(٣) الاعراف : ١٠٧ .

وقعت المعجزة بصورتها الأولى فدهش لها موسى وخاف : [قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى] ونردها عصا . فاطمأن موسى برجوعه إلى مدارك عقله وأصل عقيدته والتقط الحية . فاذا هي تعود إلى سيرتها الأولى ـ عصا ـ

ووقعت المعجزة في صورتها الأخرى : صورة سلب الحياة من الحي فاذا هو جامد ميت كما نحن عليه في كل آن ،

وصدر الأمر الرباني مرة أخرى إلى عبده موسى : [واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى] .. أي أدخل يدك تحت ابطك واجمعها مع ابطك لان اليد للانسان كالجناح للطائر يرف بها ويخف فلا يخلو من كتابة : فهي آية أخرى مع آية العصا . وقال تعالى في ذلك : [فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه (١) .

فاليد بيضاء ، لها نور ساطع . من غير سوء . أي من غير مرض وبرص وإنما هو : [لنريك من آياتنا] وحججنا [الكبرى] فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى : [إذهب إلى فرعون انه طغى] هـــذا أمر الرسالة . وعنده فقد علم موسى انه منتدب لهذه المهمة الضخمة .

وانه ليعرف فرعون فقد ربي في قصره ، وشهد طغيانه وجبروته وشاهد ما يصبه من العذاب على قومه وندائه : [أنا ربكم الأعلى] .

ولعلم موسى بغريزة نفسه : وانـــه سريع التأثر والانقلاب في ذات الله ينكر الظلم ، ويأبى الضيم ، كما يشهد به قصة قتله ـ القبطي ـ واستقائه في ماء مدين .

وان في لسانه حبسة ، واللسان هو السلاح الوحيد في الدعوة والتبليغ وإقامة البراهين فلربما منعته تلك العقدة عن بيان ما يريد

---

(١) القصص : ٣٢ .

فسأل ربه : ما يكفل له الاستقامة في طريق الرسالة : [قال رب اشرح لي صدري] أي وسع لي صدري حتى لا أضجر ولا أخ ف : [ويسر لي أمري] وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح : [وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي] لما في لسانه من الرتة (١) : [واجعل لي وزيراً من أهلي] يؤازرني ويعاضدني وإذا كان من الأهل يكون أولى ببذل النصح ثم بينّه بقوله : [هارون أخي] أخوه لأمه وأبيه وقد عينه لما يعلم منه من فصاحة اللسان ، وثبات الجنان وهدوء الأعصاب . عكس نفسه لأنه عليه السلام كان انفعالياً : [اشدد به أزرى] أي قوّ به ظهري [وأشركه في أمري] (٢) طلب له النبوة ومشاركته في الأمر لمؤهلاته

(١) في المجمع ج٧ ص٨ : ان سبب تلك الرتة في لسانه : جمرة طرحها هو في فيه . وذلك لما أراد فرعون قتله لأنه أخذ بلحية فرعون ونتفها وهو طفل . فقالت آسية بنت مزاحم زوجة فرعون : لا تفعل فانه صبي لا يعقل ، وعلامة جهله أنه لا يميز بين الدرة والجمرة ، فأمر فرعون حتى احضر الدرة والجمرة بين يديه فاراد موسى أن يأخذ الدرة فصرف جبرائيل يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه .

عن سعيد بن جبير ومجاهد والسدى . وقيل : إنحل ما بلسانه إلا بقية منه بدلالة قوله : [ولا يكاد يبين] عن الجبائي . وقيل : استجاب الله دعاءه فأحل العقدة عن لسانه ، عن الحسن . وهو الصحيح لقوله تعالى : [أوتيت سؤلك يا موسى] . ومعنى قوله : ولا يكاد يبين : أى لا يأتي ببيان وحجة .

(٢) في تفسير الميزان ج١٤ ص١٧٢ قال : وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه . والخطيب ، وابن عساكر ، عن اسماء بنت عميس قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه بأزاء - ثبير - وهو يقول : اشرق ثبير =

. . . .

= أشرق ثبير ، اللهم اني اسألك بما سألك أخي موسى : أن تشرح لي صدرى وان تيسر لي أمرى ، وان تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي أشدد به ازرى ، واشركه في امرى كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيراً .

وروى قريباً من هذا المعنى عن السلفي عن الباقر عليه السلام ، وروى أيضاً في المجمع عن ابن عباس عن ابي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله قريباً منه .

وقال في روح المعاني بعد ايراد الحديث المذكور : مالفظه : ولا يخفى انه يتعين هنا حمل الأمر على أمر الارشاد والدعوة إلى الحق ، ولا يجوز حمله على النبوة ، ولا يصح الاستدلال به على خلافة علي كرم الله وجهه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بلا فصل .

ـ ومراده من لفظ الأمر : ما في قول النبي صلى الله عليه وآله ـ وأشركه في أمرى ـ ثم قال صاحب روح المعاني : ومثله فيما ذكر ما صح من قوله عليه الصلاة والسلام له حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته : [أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى] انتهى كلام صاحب روح المعاني .

ثم قال صاحب الميزان : أما الاستدلال بالحديث أو بحديث المنزلة على خلافته عليه السلام بلا فصل فالبحث فيه خارج عن غرض الكتاب وانما نبحث عن المراد بقوله صلى الله عليه وآله في دعائه : وأشركه في أمرى ، طبقاً لدعاء موسى عليه السلام المحكي في الكتاب العزيز فان له مساساً بما فهمه صلى الله عليه وآله من لفظ الآيه ، والحديث صحيح ومؤيد بحديث المنزلة المتواتر حيث قد نقله السيد هاشم البحراني في =

. . . .

= - غاية المرام - بمائة طريق من طرق أهل السنة وسبعين طريقاً من طرق الشيعة. فمراده صلى الله عليه وآله بالأمر في قوله : [وأشركه في أمرى] ليس هو النبوة قطعاً لنص حديث المنزلة باستثناء النبوة . فلو لم يكن مراده صلى الله عليه وآله بذلك : الخلافة لبقي قوله بلا معنى يفيده .

وليس المراد بالأمر هو مطلق الارشاد والدعوة إلى الحق - كما ذكره - لانه تكليف يقوم به جميع الأمة دون خصوصية لعلي عليه السلام فيه بدليل الكتاب والسنة كمثل قوله تعالى : [قل هـذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني] سورة يوسف : ١٠٨ .

ومثل قوله صلى الله عليه وآله الذي رواه العامة والخاصة : [فليبلغ الشاهد الغائب] - وإذا كان مشتركاً بين الجميع فلا معنى لسؤاله (ص) من الله تعالى : اشراك علي عليه السلام فيه . فلابد وان يكون مراده صلى الله عليه وآله في دعائه لعلي عليه السلام امراً خاصاً وراء الارشاد الذى يشترك فيه جميع المسلمين . على ان الاضافة من قوله صلى الله عليه وآله - امرى - تفيد الاختصاص فلا يصدق على ما هو مشترك بين الجميع . ثم ان الذى احتمله من دعاء النبي صلى الله عليه وآله لو تم يجرى ايضاً في دعاء موسى عليه السلام لأخيه هارون ولا قائل به .

ثم قال : وقد تقدم ما يتعلق بالبحث فى تفسير اول سورة براءة فى حديث بعث النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بآيات أول براءة إلى أهل مكة بعد عزل أبي بكر عنها استناداً إلى ما اوحى إليه أنه لا يبلغها عنك إلا أنت أو رجل منك .

نعم التبليغ الابتدائي وهو تبليغ الوحي لأول مرة يختص بالنبي صلى الله عليه وآله فليس له ان يستنيب لتبليغ أصل الوحي رجلاً آخر =

ومواهبه الطبيعية ، وهي من المساعدات على بلوغ الهدف .

وقيل : كان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين . ومات قبل موسى بثلاث سنين .

موسى (ع) يدفع عن نفسه الشبهة

قال : [كي نسبحك كثيراً] أي ننزهك عما لا يليق بك : [ونذكرك كثيراً] نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمتك ، ومننت به علينا من تحميل رسالتك .

ونعمك كثيرة فتستدعي الذكر الكثير . فقد بين عليه السلام : ان طلبه لهذه الحاجات ليس للرياسة ، وانما هو ليتوصل بها إلى طاعة ربه وعبادته ، وتأدية رسالته ، وليذكراه معاً بين الناس في مجامعهم ، ونواديهم وفي أي مجلس حلاّ فيه وحضرا ، فتكثر الدعوة إلى الايمان بالله ورفض الشركاء . وقدم التسبيح على الذكر لأن الذكر تنزيه كما ذكرنا فهو يرجع إلى التوحيد الصحيح . والذكر عمل وعبادة وهي مسبوقة بالعقيدة

= فاذن المراد له صلى الله عليه وآله بقوله ـ واشركه فى امرى ـ أمره الخاص به ـ فاذا ارتفع منه النبوة لنص حديث المنزلة فتبقى الخلافة وإلا فيبقى دعاؤه فارغاً من كل معنى بعد ما بينا من عدم صلاحية الارشاد العام للاختصاص .

ومن قول موسى عليه السلام ما يشهد بذلك إذ يقول : [وأخي هارون هو افصح مني لساناً فارسله معي ردءاً يصدقني] اذ ليس المراد بتصديقه إياه أن يقول : صدق أخي ـ بل انه يوضح ما أبهم من كلامه ويفصل ما أجمل ، ويبلغ عنه بعض الوحي الذى كان عليه ان يبلّغه .

الصحيحة وبدونها لا قيمة لها .

ويعقب (ع) ما ادعاه من القصد بالدليل والبرهان : [انك كنت بنا بصيراً] منذ خلقتنا وعرفتنا نفسك وتعلم انا لم نعبدك مجدين في طاعتك . وحيث ان الله كريم لا يرد سائله ، ولا يخيب آمله فلا يبطيء عليه بالاجابة الكاملة : [قال قد أوتيت سؤلك يا موسى] كل مسائلك دفعة واحدة وإنجازاً لا وعد . ومقروناً بالتكريم والنداء له باسمه - ياموسى

قال الصادق عليه السلام : [حدثني أبي عن جدي عن أمير المؤمنين عليه السلام : قال : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فان موسى ابن عمران خرج يقتبس لاهله ناراً فكلّمه الله عز وجل فرجع نبياً ، وخرجت ملكة سبا كافرة فاسلمت مع سليمان ، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزة لفرعون فرجعوا مؤمنين] (١) .

تقوية الجنان بمحسوس البرهان

وحيث أن موسى عليه السلام ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الأرض وأطغى جبار عليها . وانه ذاهب لخوض معركة الايمان مع الطغيان .

انه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر . ثم مع قومه بني اسرائيل وقد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم - والناس على دين ملوكهم - وبذلك فقد ضعف استعدادهم - أي بني اسرائيل - للمهمة التي هم منتدبون لها بعد الخلاص - كما قد كان ذلك كله منهم - .

فعلى هذا الاساس يدعمه ربه باطلاعه على انه لن يذهب مغفولاً

(١) مجمع البيان ج٧ : ص٩ .

عنه ، بل انه لم يرسل إلا بعد التهيئة والاعداد . وانه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرب على المشاق وهو طفل رضيع . وانه قد رافقته العناية الالهية ، وسهرت عليه وهو صغير ضعيف . وكان تحت سلطان فرعون نفسه وفي متناوله وهو مجرد من كل عدة ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون ، لأن يد القدرة كانت تسنده . وعين القدرة كانت ترعاه في كل خطاه ، فلا عليه اليوم من فرعون وقد بلغ أشده ، وربه معه قد اصطنعه لنفسه واستخلصه واصطفاه .

[ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى : ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ،فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً . فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسي ، اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا (١) في ذكري اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولاً ليناً (٢) لعله يتذكر أو يخشى] ..

---

(١) أي لا تضعفا ، ولا تفترا ، ولا تقصرا .

(٢) أي ارفقا به في الدعاء والقول ولا تغلظا له في ذلك عن ابن عباس . وقيل معناه : كنياه . عن السدي وعكرمة . وكنيته ابو الوليد ، وقيل : أبو مرة ، وقيل : أبو مصعب . وقيل ان القول اللين هو : هل لك إلى ان تزكى ، واهديك الى ربك فتخشى] عن مقاتل . وقيل هو ان موسى اتاه فقال له : تسلم وتؤمن برب العالمين على ان لك شبابك فلا تهرم ، وتكون ملكاً لا ينزع الملك منك حتى تموت ، ولا تنزع منك لذة الطعام والشراب والجماع حتى تموت فاذا =

يذكر موسى عليه السلام بما من عليه من قبل ان يختاره للنبوة والرسالة ويكلفه بهما ، ومن قبل ان يؤتيه سؤله هذا ، وذلك حينما تولد ، فقد كان بعض الكهنة اخبر فرعون بان سيولد في بني اسرائيل مولود يكون على يده زوال ملكه .

فأمر فرعون بقتل كل مولود فيهم ، فكانوا يقتلون المواليد الذكور حتى اذا ولد موسى أوحى الله الى امه : ان لا تخاف وترضعه فاذا خافت عليه من عمال فرعون وجلاوزته ومراقبيه تقذفه في تابوت - صندوق - ثم تقذفه في اليم - النيل - فليلقه اليم إلى الساحل حيال قصر فرعون فيأخذه ويتخذه ولداً له - وكان لا عقب له - ولا يقتله ، ثم ان الله سيرده إليها .

ففعلت كما أوحى اليها فلما جرى التابوت بجريان النيل ارسلت بنتاً لها وهي اخت موسى ان تجس اخباره ، فكانت تطوف حول قصر فرعون حتى وجدت نفراً يطلبون بأمر فرعون مرضعة ترضع موسى فدلتهم اخت موسى على امها فاسترضعوها له . فاخذت ولدها وقرت به عينها وصدق الله وعده ، وقد عظم منه على موسى عليه السلام .

= مت دخلت الجنة . فاعجبه ذلك ، وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم هامان اخبره بالذي دعاه اليه . وانه يريد ان يقبل منه . فقال هامان : قد كنت ارى ان لك عقلاً وان لك رأياً ، بينما انت رب وتريد ان تكون مربوباً ، وبينما انت تُعبد وتريد أن تَعبُدَ فقلبه عن رأيه . وكان يحيى بن معاذ يقول : هذا رفقك بمن يدعي الربوبية ، فكيف رفقك بمن يدعي العبودية . في مجمع البيان ج٧ ص١١

اختلاف تعابير القرآن ونكاته

قال في مقام بيان الامتنان على موسى لدعم ايمانه وتقوية قلبه : ولقد مننا . . بصيغة الجمع للتعظيم حيث ان المقام يتطلب اظهار العظمة المنبيء عن القدرة التامة والاشارة المطلقة بتخييب مساعي فرعون الطاغية وابطال كيده لأخماد نور الله ورد مكره اليه وعليه : بان ربى عدوه ومهلكه - موسى - في حجره .

بينما قال تعالى في مقام ندائه لموسى عليه السلام في وادي الطور [يا موسى اني أنا ربك] بصيغة الافراد لمناسبة السياق ، ومقام اللطف والعطف ، ولتمحيص التوحيد . فالقرآن بكل أطواره علم ، وبكل اقواله حكمة ، وبكل بياناته نور ، وبكل مسالكه هدى .

نقاش في محله

قال الامام الرازي في تفسيره الكبير في هذا المقام : انه لا يعلم سر ارساله تعالى الى فرعون مع علمه بانه لا يؤمن إلا الله ، ولا سبيل في المقام وأمثاله إلى غير التسليم وترك الاعتراض .

ولا يخفى ما في تعبيره من الدلالة على وجود المقتضي في نفسه للاعتراض على الله سبحانه لو لا وجود المانع ، وهو جهله بالسبب .

والجواب عن ذلك - أولاً - على نحو البساطة : بانه لقيام الحجة عليه وانقطاع عذره امام الله جل شأنه ، ولارشاد الآخرين وتنبيههم من الغفلة من تابعيه وغيرهم : بما يرون من قيام البراهين على وحدانية

رب العالمين . ولئن اغتر هو بنفسه ، واعتز بملكه ، فغيره ليس كذلك وعلى فرض الضغط الخانق فلا أقل من الاعتراف قلباً والعبادة سراً كما كان الحال بالنسبة الى زوجة فرعون ذاته ، وايمان السحره ، وأخيراً لانقاذ بني اسرائيل من ظلمه ، وتخليصهم من جوره . ولتكون بداية لهلاكه واسباب غرقه و . .

وأما الجواب - ثانياً - علمياً وعلى اصول - علم الكلام - فقد قال الطباطبائي في تفسيره (١) : من أن المراد بسر الارسال الذي لا يعلمه الامام الرازى : وجه صحة الأمر بالشيء مع العلم باستحالة وقوعه في الخارج (٢) فاستحالة وقوع الشيء أو وجوب وقوعه انما ذلك حال الفعل بالقياس إلى جميع اجزاء علته التامة ونسبة الفعل وعدمه اليه بالامكان دائماً ، لكونه علة ناقصه لا تستوجب وجود الفعل ولا عدمه . فالارسال والدعوة ، وكذا الأمر صحيح بالنسبة إلى فرعون ، لكون الاجابة والائتمار بالنسبة إليه ذاته اختيارية ممكنة ، وان كانت بالنسبة إليه مع انضمام سائر العوامل المانعة مستحيلة ممتنعة .

وهذا الجواب منه على مبنى القائلين بالأختيار - أي ان الانسان مختار في أفعاله غير مجبور - واما الجواب على طريقة المجبرة - والرازى منهم - فهو : ان الشبهة تسرى عندهم إلى جميع موارد التكليف لعموم الجبر عندهم . وقد أجابوا عنها على زعمهم : بأن التكليف صورى لا جدي وواقعى . .

وان كان المراد بسر الارسال في الاشكال مع العلم بأنه لا يؤمن

---

(١) الميزان ج١٤ ص١٦٧ .

(٢) المعبر عنه في علم الاصول : الامر بالشيء مع العلم بانتفاء شرطه ، كالقدرة في مثل المقام مثلاً .

ما هي الفائدة المترتبة عليه بحيث يخرج بها الامر عن اللغوية . فنقول ان الفائدة في ذلك هي ان الدعوة الحقة كما تؤثر اثرها في قوم بتكميلهم في جانب السعادة ، كذلك تؤثر اثرها في آخرين بتكميل شقائهم قال الله تعالى : [وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا] (١) ولو الغي التكميل في جانب الشقاء لغي الامتحان فيه ، فلم تتم الحجة فيه ، ولا انقطع العذر ، ولو لم تتم الحجة في جانب وانقطعت لم تنجع في الجانب الآخر ، وهو ظاهر .

هذا وقد ذكرت هذه الشبهة - شبهة الجبر والتفويض - مفصلة عن الرازي وغيره من الاشاعرة مع الجواب عنها بتفصيل وتبسيط - عادتنا في ذلك - في ملازمي المطبوعة ، والموضوعة لتدريس - مادة التفسير - للصف الرابع ، في كلية اصول الدين البالغة مائة واحدى وعشرين صحيفة . وقد توليت تدريسها سنتين وحتى الآن هي موضع تدريس لهذه المادة . ويستغرق ما ذكرته فيها بخصوص الشبهة ودفعها صحيفة ١٠٥ - ١١٢ من أراد مراجعتها فنسخها توجد في الكلية .

عودة الى الموضوع

ولقد اجتمع موسى وهارون بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور ، وايحاء الله تعالى الى هارون بمشاركة اخيه في دعوة فرعون

فيتوجهان معاً الى ربهما يعرضان امام عظمته تخاوفهما : [قالا : ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى] . والفرط هو التسرع بالاذى للوهلة الاولى دون تأمل . والطغيان اشمل من التسرع ، واشمل من الاذى ، وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من احدهما او كليهما .

(١) الاسراء : ٨٢ .

وليس قصدهما الخوف على انفسهما ، وانما هو على الدعوة وذهاب ثمرها بتسرعه ومبادرته الى قتلهما قبل التأمل في حجتهما ، أو قبل ادلائهما بها .

وهنا يجيء الرد الحاسم الذى لا خوف بعده ولا خشيه معه : [قال : لا تخافا انني معكما أسمع وأرى] انني معكما بالنصرة والحفظ فلا تخافا من فرطه وطغيانه ولقد كان هذا الاجمال بقوله : لا تخافا كافياً ولكنه يزيدهما طمأنينة باضافة التعليل لعدم الخوف : بأنني معكما اسمع وأرى .

ومع هذا يعطيهما صورة عرض الدعوة ، وصورة الجدال : [فائتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى] . انه البدء بايضاح قاعدة الرسالة : [إنا رسولا ربك] وخالقك ليشعر منذ اللحظة الاولى بان هناك إلهاً هو الموجد وهو رب الناس وانهما رسولاه .

فارسل معنا بني اسرائيل واطلقهم ن الاستعباد ، ولا تعذبهم بالأعمال الشاقة . وهو تكليف فرعي متوجه الى فرعون .

او ان رسالتهما اليه ضمن هذه الحدود : استنقاذ بني اسرائيل ، والعودة بهم الى عقيدة التوحيد ، والى الارض المقدسة التي كتب الله ان يسكنوها . الى ان يفسدوا فيها ، فيدمرهم تدميراً . ثم استشهدا على صدقهما في الرسالة بآية ، ودلالة واضحة ، ومعجزة لائحة - هي العصا - وانهما أتياه من قبل الله تعالى ، وقوله تعالى : [والسلام على من اتبع الهدى] اما تحية للوداع وكانه اشارة الى تمام الرسالة : وان السلامة منبسطة على من اتبع الهدى ، والسعادة لمن اهتدى فلا يصادف في مسير حياته

مكروهاً يكرهه لا في دنيا ولا في عقبي .

واما ترغيب واستمالة . وقال الزجاج : لم يرد بالسلام هنا بالتحية وانما معناه : ان من اتبع الهدى سلم من عذاب الله ، ويدل عليه قوله بعد : [انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى] وهذا منه مبني على حجية دلالة المفهوم .

وعلى كل فقد أتيا فرعون ، وربهما معهما يسمع ويرى . فاي قوة وأي وسلطان هذا الذي يتكلم به موسى وهارون كائناً فرعون ما كان . ولقد ابلغاه ما امرهما ربهما بتبليغه .

وفيه من الاستهانة بأمر فرعون ، وبدون تملق له واحتشام وتأثر من ظاهر سلطانه رغم المحافظة على اللين في الكلام وعدم الخروج إلى الخشونة . ما لا يخفى . حيث قال : ائتياه ولم يقل اذهبا اليه . ولم يكن اتيان فرعون وهو ملك ، وآله القبط : ذلك السهل الميسور .

وقال : فقولا : ولم يقل فقولا له وكانه لا يعتني به ، وقال : إنا رسولا ربك ، وبآية من ربك . فقرع سمعه مرتين بان له رباً وهو الذى كان ينادى : انا ربكم الأعلى . وقال : والسلام على من اتبع الهدى ولم يخاطباه بذلك .

الجواب من فرعون

[قال : فمن ربكما يا موسى] وقد علم فرعون انهما معاً مشتركان في الدعوة ومرسلان من الرب ولذا قال : فمن ربكما . غير ان موسى هو الأصل في القيام بها ولاجله خص النداء به ـ يا موسى ـ وحيث انهما خاطباه مرتين بلفظ : ربك . وهو لا يرى لنفسه رباً بل هو ربهما

ورب غيرهما وقد كان الحري ان يقول : فمن ربي الذى تدعيان انه ربي ، ولكنه قد تغافل عن ذلك وكانه لم يسمع قولهما له : ربك . مبالغة منه في الانكار وليعلم ان الانكار في مثل هذه المقامات لا يراد منه انكار اصل الخالق . لان الاعتراف به ضروری وفطری لكل انسان بل المراد منه معنى آخر واليك تفصيله .

بيان معنى الربوبية - الوثنية -

وحيث ان الشيطان عدو للانسان ، والمتفنن في اشراكه ، والمتلون في أغوائه ، فاذا تهرب منه فرد في وقت ، وتمنع عليه آخر من ان يوقعه في الشرك والضلال الصريحين ، فهو لا يقطع امله منه . بل يبقى متابعاً له المتضليل بلون آخر ، وبشرك مموه بتوحيد ، ومعصية مبرقعة بلون طاعـــة وليفي بقسمه مع الله : [قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الآية] (١) ويستوفى ثأره .

وعلى هذا الاساس : ان من المتسالم عليه عند الامم الوثنيين : ان للكون خالقاً إلا انه اعلى من ان يقدر بقدر واعظم من ان يحيط به عقل او وهم . فمن المستحيل ان يتوجه اليه بعبادة ، أو يتقرب له بقربان فاذن لا يؤخذ ذلك الخالق إلهاً ورباً . بل الواجب هو التوجه الى بعض مقربي خلقه بالعبادة والقربان ليقرب الانسان من الله زلفى ويشفع له عنده .

فهؤلاءهم الآلهة والارباب ، وليس الله إلهاً ولا رباً ، وانما هو إله الآلهة ورب الارباب .

---

(١) سورة ص : ٨٣ .

فقول القائل منهم : ان لي رباً انما يعنى به : احد الآلهة من دون الله وليس يعني به الله سبحانه وفهم ذلك منهم يتطلب دقة . فقول فرعون • فمن ربكما يا موسى . ليس انكاراً لوجود خالق الكل ، ولا انكار : ان يكون له إله ، كما يظهر من قوله : [ويذرك وآلهتك] (١) وانما هو طلب منه لمعرفة من اتخذاه إلهاً ورباً : من هو غيره .

فهو يقدر ولو تجاهلاً : ان موسى واخاه يدعوان الى بعض الآلهة التي تتخذ فيما بينهم من دون الله فيسأل عنه ليضيع حقيقة الدعوة والمدعو إليه .

وقد كان الوثنيون يتفننون في اتخاذ الآلهة ، يتخذ كل منهم إلهاً بهواه . وربما بدّل إلهاً بغيره ، وسيأتي شرح قول الملأ : [ويذهبا بطريقتكم المثلى] بما يوضح ما ذكرناه .

واما ما يجرى على السنة بعضهم : من نسبة الخلق والتدبير الى نفس الاصنام دون أربابها فهو من لهجة العامة منهم .

وبهذا ليكن ختام الجزء الاول كما انه سيكون ابتداء الجزء الثاني بـ [خلاصة مذهب الوثنيين] انشاء الله تعالى .

---

(١) الاعراف : ١٢٧ .

قائمة بمصادر ومراجع الكتاب الجزء

الأول والثاني

(مصادر التفسير)

١ - القرآن الكريم .

٢ - التوراة .

٣ - انجيل متي .

٤ - انجيل يوحنا .

٥ - انجيل لوقا .

٦ - انجيل مرقس .

٧ - انجيل برنابا : تعريب خليل سعادة ، ط مطبعة محمدعلي صبيح وأولاده بالأزهر ١٩٥٨ .

٨ - تفسير الرازي الكبير .

٩ - تفسير مجمع البيان : للطبرسي .

١٠ - تفسير ابن كثير الدمشقي مطبعة الاستقامة .

١١ - تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ط طهران .

١٢ - تفسير جامع البيان لابن جرير الطبري .

١٣ - تفسير العياشي : محمد بن مسعود العياشي المطبعة العلمية ، قم .

١٤ - تفسير التبيان في تفسير القرآن : محمد بن الحسن - الطوسي - ط النجف .

١٥ - الدر المنثور : جلال الدين السيوطي ط ، مصر .

١٦ ـ تفسير الوجيز في تفسير القرآن العزيز .

١٧ ـ تفسير البرهان .

١٨ ـ تفسير الجلالين .

١٩ ـ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة .

٢٠ ـ تفسير آلاء الرحمان للعلامة البلاغي .

٢١ ـ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا .

٢٢ ـ تفسير البيضاوي .

٢٣ ـ تفسير الكشاف للزمخشري .

٢٤ ـ تفسير ظلال القرآن لمحمد قطب .

٢٥ ـ تفسير البيان لآية الله السيد ابو القاسم الخوئى .

٢٦ ـ تفسير الواحدى .

٢٧ ـ تفسير روح المعاني : للآلوسي .

٢٨ ـ تفسير التصوير الفني للقرآن .

٢٩ ـ تفسير علي بن ابراهيم القمى .

٣٠ تفسير الترغيب : للاصبهانى .

٣١ ـ تفسير آيات الأحكام : للجزائري .

٣٢ تفسير مسند العدنى .

٣٣ ـ مسند البارودي .

(مصادر ومراجع الفقه)

٣٤ ـ المبسوط : للشيخ الطوسى .

٣٥ ـ الاستبصار .

٣٦ ـ من لا يحضره الفقيه : محمد بن علي ـ الصدوق ـ
٣٧ ـ التهذيب .
٣٨ ـ اللمعة ، وشرحها .
٣٩ ـ شرايع الاسلام للمحقق .
٤٠ ـ المسالك : للمحقق .
٤١ ـ مستمسك العروة الوثقى ـ استدلالي ـ لآية الله الحكيم .
٤٢ ـ منهاج الصالحين .
٤٣ ـ وسيلة النجاة : لآية الله السيد ابو الحسن الاصبهانى .
٤٤ ـ وجيزة الأحكام : لكاشف الغطاء آية الله الشيخ محمد حسين .
٤٥ ـ المسائل المنتخبة لآية الله أبو القاسم الخوئى .
٤٦ ـ ذخيرة المؤمنين لآية الله السيد محمود الشاهرودي .
٤٧ ـ الخلاف : للشيخ الطوسى .
٤٨ ـ المنتهى ـ للعلامة ..

(مصادر الحديث والأخبار)

٤٩ ـ البحار للعلامة المجلسى .
٥٠ ـ الكافي : محمد بن يعقوب ـ الكليني ـ ط مطبعة حيدرى طهران
٥١ ـ غاية المرام : للسيد هاشم البحرانى ، ط ـ طهران ـ
٥٢ ـ عيون أخبار الرضا (ع) محمد بن علي : الصدوق .
٥٣ ـ المستدرك للصحيحين ـ للحاكم ، الحافظ ـ النيسابوري ـ
٥٤ ـ مسند احمد بن حنبل .
٥٥ ـ الجامع الصحيح : للبخاري ، ط : الهند ١٢٧٢ .

٥٦ ـ مصباح السنة للبغوي .

٥٧ ـ صحيح الترمذي .

٥٨ ـ جامع ابى نعيم .

٥٩ ـ الخصال : للشيخ محمد بن علي : الصدوق .

٦٠ ـ الاصابة لابن حجر .

٦١ ـ كتاب الطرف : علي بن طاووس .

٦٢ ـ نيل الاوطار للشوكانى .

٦٣ ـ سفينة البحار .

٦٤ ـ الوسائل : محمد بن الحسن الحر العاملي . مطبوعات النجاح بالقاهرة

٦٥ ـ الوافي .

٦٦ ـ مصباح الشريعة .

٦٧ ـ المحاسن : احمد بن محمد البرقي .

٦٨ ـ ارشاد القلوب : للديلمي ، المطبعة الحيدرية ـ النجف الاشرف

٦٩ ـ مرآت الانوار .

٧٠ ـ الخصائص : للشيخ المفيد .

٧١ ـ علل الشرايع ـ المصدوق ـ

٧٢ ـ كنز العمال لعلي المتقي

٧٣ ـ سنن ابن ابي شيبة

٧٤ ـ مسند أبي يعلي

٧٥ ـ صحيح مسلم . وابو داود ـ والنسائى .

(مصادر العقيدة والاستدلال)

٧٦ ـ التوحيد لابن بابويه .

٧٧ ـ تحف العقول
٧٨ ـ خصائص التصور الاسلامي ومقوماته .
٧٩ ـ كتاب الهيئة والاسلام .
٨٠ ـ كمال الدين : محمد بن علي ـ الصدوق ـ
٨١ ـ كتاب النظام السياسي في الاسلام ـ للغزالي ـ
٨٢ ـ الاحتجاج : للطبرسي ط طبع مطابع النعمان ، النجف .
٨٣ ـ الاسلام والنظام العالمي الجديد ـ
٨٤ ـ الانسان بين ـ المادية والاسلام ـ لمحمد قطب ـ
٨٥ ـ كتاب الله يتجلى في عصر العلم ـ للفيلسوف ـ لمـــاريت ـ ـ ترجمة عبد المجيد سرحان .
٨٦ ـ اقتصادنا ـ للسيد محمد باقر الصدر ـ

(مصادر الأخلاق)

٨٧ ـ جامع السعادات : محمد مهدي النراقي ، منشورات جامعـــة النجف الدينية .
٨٨ ـ مجموعة ورام .
٨٩ ـ الآيات الساطعة للشيخ موسى السوداني : مؤلف الكتاب .
٩٠ ـ كتاب الانوار للسيد نعمة الله الجزائري .
٩١ ـ امالي الصدوق .
٩٢ ـ امالي الشيخ المفيد .
٩٣ ـ مشكاة الانوار .
٩٤ ـ احياء العلوم : للغزالي .

٩٥ ـ كتاب الغرر .
٩٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد .
٩٧ ـ شرح نهج البلاغة لابن عبد ربه .
٩٨ ـ منهاج البراعه في شرح نهج البلاغة : للسيد حبيب الله الخوئي ط طهران .
٩٩ ـ التكامل في الاسلام : احمد امين .
١٠٠ ـ قبسات من الرسول .

(مصادر اللغة)

١٠١ ـ لسان العرب .
١٠٢ ـ قاموس اللغة : للفيروز أبادي .
١٠٣ ـ مجمع البحرين
١٠٤ ـ الراغب .
صحاح الجوهري

(المصادر العامة والتاريخ)

١٠٥ ـ بصائر الدرجات
١٠٦ ـ حلية الاولياء : الحافظ ابو نعيم الاصفهاني ، ط مصر
١٠٧ ـ دار السلام في تفسير الاحلام
١٠٨ ـ كتاب : محاضرات في النصرانية ، للاستاذ محمد أبو زهرة
١٠٩ ـ كتاب : سعد السعود

١١٠ ـ السيرة لابن هشام

١١١ ـ البداية والنهايه : لابن كثير

١١٢ ـ كنز العمال

١١٣ ـ السيرة الحلبية : للحلبي . المطبعة الأزهرية ١٣٢٩

١١٤ ـ الكامل : لابن الاثير

١١٥ ـ تاريخ الطبري الكبير

١١٦ ـ الفصول المهمة : لابن الصباغ المالكي

١١٧ ـ محمد وعلي وبنوه ، نجم الدين العسكري

١١٨ ـ اعيان الشيعة : السيد محسن الامين ، ط : بيروت

١١٩ ـ شواهد التنزيل

١٢٠ ـ الاوسط للطبراني

١٢١ ـ معالم الطريق

١٢٢ ـ كتاب منقبة المطهرين : لابى نعيم الاصبهانى

١٢٣ ـ العبقات : للسيد مير حامد الهندى ط بالهند

١٢٤ ـ الصحيفة السجاديه الكاملة

١٢٥ ـ رسالة الاسلام : تصدرها ـ كلية اصول الدين ـ

١٢٦ ـ صفوة العرفان : لمحمد فريد وجدي

١٢٧ ـ مجلة صوت المبلغين

١٢٨ ـ طبقات الامم

١٢٩ ـ جامع الاصول

١٣٠ ـ كتاب الوصية

١٣١ ـ الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيثمى ، ط مصر

١٣٢ ـ ذخائر العقبي : محمد محب الدين الطبري الشافعى

١٣٣ ـ ينابيع المودة : الشيخ سلمان القندوزي الحنفي ، ط استنبول

١٣٤ ـ جامع العلوم

١٣٥ ـ نهج البيان

١٣٦ ـ روضة الكافي

١٣٧ ـ كتاب العواطف : كأساس للحضارة

١٣٨ ـ كتاب : الانسان يقوم وحده ، للملحد : جوليان هاكسلي

١٣٩ ـ دور الافكار التقدمية في تطوير المجتمع ـ ماركسى ـ

١٤٠ ـ كتاب : كارل ماركس ـ

١٤١ ـ كتاب : لودفيج فيورباخ

فهرست ـ الجزء الاول ـ

يطلب الكتاب من مؤلفه - بغداد مدينة الحرية -

الجامع الموسوي : رقم التلفون ٤١٠٣٤٢

وفي الكاظمية - دار الكتب العراقية - لصاحبها

حاج علي محمد